خناثة بنونة

الغد والغضب

رواية

منشورات دار الآفاق الجديدة المغرب


الغد
والغضب

خناثة بنونة

الغد والغضب

رواية



منشورات دار الآفاق الجديدة المغرب

الطبعة الثانية 1411 ـــ 1991

الأشياء لا تفعل غير أن تلد وجهها، هي هي، هنا وإلى حيث يتطاول المكان بحضوره. وحينما يدهمني هذا الشعور، تنفلت كل المراسيم الجذلى عن خاطري، وأهيم.. أبحث بتيه عن حضور لم يشهد عملية الاجهاض والتلقيح بتتابع. لكن الوجوه والنواميس وطرق العيش، تصفع وعيى بقسوة، فأفقد أي يقين، سوى يقيني باهتراء أيامنا.

كان ذلك في الماضي وحتى الان. انما كنت لا أضبطه، فيبقى لي نوع من البراءة، أخوض بها سرابا معينا اقتضت أسرتي أن يكون هدفا لي.

ـــ ستصبحين كابنة عمك.. مثقفة، وحازمة في تحفظ.

وكنت أدرك في صوت أبي ما يود أن يخفيه، فهو كفرد من أسرة لا تملك ذخيرة هامة من طلاوة، تلتجيء إلى تصيد الاطراء الاجتماعي عن طريق الثقافة. وكنت أريده أن يفصح :

ـــ لقد فاتك أن تكوني فاتنة.. فلا أقل من أن تعملي من أجل أي تعويض. ولكن يفاعتي، كانت تشحذ حواسي بنوع من التحمس، فأنفجر مع الالزامات الدراسية، أحقق فيها ما لو ملكت زمام رغباتي، لرفضته.

وكان أبي خلال ذلك، يلوح لي بوهنه المتكبر، كقلعة متصدعة وراءها فلول منكسرة، تعيش اللحظة الحاسمة من الوهم الأخير. ولكنني كنت أكره توهيماته الادعائية حول دراستي حينما يتشبث باختياراته لصالحي.

«ليست غير فرصة أخيرة لأبيك عليك أن تحسني صنعها» لو.. فلعلى آنذاك أعثر على صفاء ما، لاؤدى لابي دوره ودوري، وأعلق على صدر قلعته شارة النصر الأخير.

وعوض ذلك كان يقع فريسة حالات متشنجة من الاهتمام المسعور، ويسقط في نوبة متوترة ترمي وجهه الذي صرعته السنون، بظلال من جهامة كنت أحتار في تفسيرها. وكانت أمي تتدخل :

ــ ولكن لم هذا التعلق بمستقبلها ؟

فيرد :

ــ لأنها أنا.

وأحتج :

ــ لن أقبل وضعا أرفضه في الاشياء، لكي أكون مجرد وجه منسوخ، لأجسد عملية التلقيح والتوليد للشيء نفسه. كنت أقول هذا بهمس، بينما نظرته تنطلق من غور عينيه لتصبغه بنوع من رجولة ترهبها أمي، وأسأله :

ــ كيف ترى الثقافة ياأبي ؟

فيجيب باعتداد من يعطى من عندياته :

ــ انها سلاح من لا سلاح له.

وأكاد أصفعه :

ــ لم لاتفضح الوجه الاجتماعي في معاييره الحالية.. ولم لاتقول : إنك بلا سلاح لأنك بلا اغراء، لأستطيع أن أحترمك أو أحتقرك. ولكني أخرس الزمجرة الرعناء للفهم المكشوف الذي يحاول أن يحتج، وأغيره :

ــ ولم السلاح، فنحن نحيا ولا نتعارك.

فيرد بصوت يكون آنذاك ينهمر من رصيده التجريبي، المخزون في أعماق سنينه الستين :

ــ الحياة صراع... ومن يحيا يصارع.

ويطن الجواب في ذهني كحقيقة : (الحياة صراع ومن يحيا يصارع) ثم أمهم بكلمات وأتركه.

وتسير الحياة وأسير، دون أن تهيء لي فرصة أن أعاركها.. لقد كانت رخية بما فيه الكفاية، أتلمظ ضروب نعيمها ولا أتوقف. انما كان شيء في داخلي يدفعني إلى أن أتسمر في لحظة فجائية لأحملق بتنمر، في المرئيات والمدركات مع نوع من الاستفهام الغامض عن كل ذلك. وبعد أن أخبط رأسي في حركة رافضة وأتحرر من خصوصيات اللحظة أكاد أعتقد :

ـــ لعل هذا هو ما عناه أبي : «الحياة صراع».

وأسأل سلمى :

ـــ كيف ترين الحياة ؟

ـــ الحياة حياة بالفهم أوخارجه.

وكأنها ليست هنا :

ـــ الحياة حياة.

ـــ وماذا تريدين غير ذلك

ـــ الصراع مثلا.

ـــ ولـــم ؟

ـــ الصراع حياة... أو الحياة صراع

فتتمتم بما يشبه الامتعاض وتجيبني :

ـــ ولماذا تريدين أن تستعجلي كل شيء ؟..

وأسكت مع أن طبيعتي ومجاري الاهتمام الدفاقة من أبي لم تسكت، فهو يلح :

ـــ كيف الاساتذة ؟

ـــ هل الامتحان قريب ؟

وغير ذلك من الرشح الكلامي الذي كان يحاصرني دون أن أملك أن أبعده، كغيره، كبقية المصطلحات الحياتية التي تعلو من حولي، كأضلاع

قفص لا انتهاء لجدرانه، فكان علي أن أتحسس قضبانه وأنا أتسكع بين البيت والدراسة مشدوهة حيناً ومتيقظة أحيانا أخرى، دون أن يطرق باب سجني أي فهم كبير غير الفهم المتوثب لسلمى.

وهي، بطابعها الذي ارتكنت إلى قبوله، فرضت علي أن أحترم اتزانها، فكنت بين التذمر والتهيب وأنا لا أستطيع أن أفصح :

ـــ تعتريني حالة تهويمية صاعقة، فأصبح خارج الأنا، وأتمثلني كالحضور الدائم في توالي الزمن العادي. أو :

ـــ كم يخنقني التفكير في أنني لا أفعل شيئا غير أن أخطو، كالباقين.. كالذين سعوا لأن يتعلموا فيشتغلوا.. لقد كرهني هذا في المسلك الذي يقف بي عند مقعدي بالصف.. فهل أنت كذلك ؟

أو.. و.. أو.. لا شيء، لقد كان علي أن أصمت.

وذات حصة ارتعدت الوجوه أمامي قبل أن ألتقط صوت الاستاذة وهو يرعد في اتجاهي :

ـــ ماهذا الشرود، ألم تعد دروسي تهمك !..

وكنت أقول لسلمى وهي تخفف عني الجرح الذي أدركت أن زجرة الاستاذة قد خلفته :

ـــ كلما أمعنت في تخطيط البلدان والاقاليم ومحاولة حصرها في غلات قارية، الا وأحسست أنني عبر صوتها ذي الحقائق الجغرافية وعبر الخرائط أتشرد.

ـــ ولكن لماذا ؟!

ـــ لا أدري

ـــ وما معنى هاته الظاهرة

ـــ انني أعجز عن الارتباط بصوتها وحقائقه.. بل وحتى بطريقي.
ـــ ولم كل هذا ؟
ـــ لأنني أحس بوادر زوبعة خفية تمس جذور الدرس والطريق وتفكيري.

فحملقت في بلا تمعُّن كأنها كانت لا تكلف نفسها جهداً لأن تفهمني

* * *

وتلاطمت أيامي ببعضها، وغرقت في حالة من الغياب.. وفي الصحو كانت كل الأنماط الحياتية والبشرية تطل علي بشكل غير قابل لمنطق راجح. وكان ذلك يبقي هاته الانماط في منطقة البعد، بحيث لا تملك أن تجعلني أنظر اليها دون شكوك.

وعبر ظرفي والتوتر.. كان كل شيء يخضع عندي للاستفهام :

لم كان ذلك الشكل ولم يكن غيره.. ولم لم يكن غير غيره اذا كان غيره : كنت استفهم الرؤوس المنحدرة والاقدام الهاربة والسحنات الدكناء، وأنا أمر بها في شارع أو بين أسطر كتاب أو في البيت عند حضور أبي. وكان هو، أبي يتشبث بمعتقده، فليست هناك من خدعة. لم يكن يفصح لي عن ذلك.. ولكنني كنت أفهمه من نوعية اختياراته، واهتمامه بالظروف القريبة، وانشغاله عن الابعاد الفكرية بالتوفيق السهل بين كل تناقض.

وتزكت نظرته بنجاحي في «البكالوريا» فأصبح شديد الارتكان إلى مخططه، دون أن يعرف تلك المشاحنات الجدلية التي خلفت عني صورة شوهاء عند أستاذ الفلسفة، الذي أصبح عندي مجرد جمجمة ممسوخة لمشروع انسان كان من الممكن أن يكون، ولكن كينونته لم تتم، خصوصا عندما أهمل ذات مرة اعتراضي : «أن العقل البشري يخضع الاشياء كما يقول

جان لوك، للبينة وعدم التناقض، ومن ثم فإن هذا العقل قاصر عن حل المعضلة لأنه يتطلب اليقين.».

* * *

وترحيبا، لست أدري، بنصره أو نجاحي، قرر أبي أن يأخذنا إلى مصطاف ساحلي، فاكترى دارة في المحمدية. وتشجع زعيق أمي كالعادة عندما يختار أبي منطقة السلم. وابتعادا من الزعيق واليقين الشامخ، كنت أسلم عربي لوهج الشمس الساعات الطوال.. وكانت السيقان والبسمات والهدير الراعد لبحر مكشر، ينغل في قلبي كنحيب حقيقي لمأتم انساني، وهو هنا يتجسد، حيث يتنصل من زركشته، محاولا أن يطمر هدير فجيعته في القفز والقهقهة والتمدد. وكان ذلك يصيبني باحتراق، كأنني أنا وحدي، من بين كل هاته المآت المستحمة، من فهمت أو جنت !. وأحشر رأسي في مرفقي وأضغطهما به، وأحاول لو أبتهج. وبالعكس، تتزحلق من حنجرتي زفرة أو أكثر، فتتناثر الرمال من حولي، كوجودي، ولا اتمهل الا وأنا أنتفض في وقفة، كأنني كنت أبذل فيها جزءا متضخما من ذلك الجهد العاجز الذي أملكه ولا أدري كيف أصرفه.

ومع الأرجل المغمورة بالرمل وانتعاش الأمواج المنتحبة، كنت أقذف رجلي، أنشد تبريرا لاشتعال فكري. وفي هاته العملية، كانت زمجرة الأمواج تغزوني :

ــ القيود هي الاساس.. والحرية وهم.. ومتى يدرك الكل خسارته ؟. لذلك أود لو دمرت العالم أو اجتحته كالسيل.

وكان ذلك يجعلني أفر ومعي حرارتي : فمن يتكلم ؟ الموجة أو قلقي أو اضطراب الأشياء والمفاهيم أو كل موجود ؟. ومن يجيب ؟ من يسفه هذا أو يزعزعه ؟ أستاذ الفلسفة ؟ لا، لا. وأبتسم، ليضبط أبي بسمتي،

فتكون عنده كاعتراف بحسن اختياره لمكافأتي.. وبماذا ؟ بهذا البحر وهذا الحشد البشري الباكي، ويقول :

ــ لسوف تتعجب شقيقتك من تصرفي.

ويراقبني، فيلمح بسمتي قد خمدت، دون أن تترك أي ظل أو ينبس فمي بشكر فيضيف :

ــ كل هذا من أجلك لأنك ناجحة.. ولو كانت هي قد شابهتك، لكنت قد بكرت بهذا التغير قبل أن أزوجها، وعلى أي، فقد تحضر، لقد استدعيناها.

ولذ لي أن أثرثر.

ــ وهل هناك، أبي، من ناجح حقا ؟

ــ كيف لا وأنت كدليل !

قال جوابه بلهجة معتقد يتباهى بمعتقده. ولكني كنت أفتقر إلى مثل هذا الاعتقاد، فأضفت :

ــ وما هو النجاح ؟

فتقلص ما بين حاجبيه وهو يغرس عبوسه في استفساري وأجاب :

ــ النجاح ؟.. النجاح هو أن يكون الانسان ناجحا.

ــ أعني ما هي حدوده ؟

فانفكت أساريره المتغضنة، وانطلق بصره في الابعد وتاه لبرهة. وكانت تلك حاله حينما يجوب أصقاع تجاربه ليعود بنتيجة، وقال :

ــ النجاح لا يحدد.

وأحسست بنوع من الوميض ينبعث من تلاقح رأيه بفهمي، فهل قال أبي حقيقة.. ذلك أن ما توافق الناس على تسميته بنجاح ليس غير صفة

شوهاء غير مكتملة لنجاح لا يمكن أن يحقق. وسألته :

ــ وهل هناك من يبلغه ؟

وكانت لهجتي غير رصينة، بحيث جعلته يجيبني بجواب يسير بحديثنا سيرا آخر :

ــ النجاح ؟ النجاح ! المهم أن ينجح الانسان ولقد نجحت.

ــ ولكن..

ــ فقاطعني مكررا :

ــ ولقد نجحت وستظلين تنجحين.

وكان بصري يتذبذب بين صوته ووجهه ووقفة أمي وهي تكرر محتجة :

ــ إنها إما مستفهمة أو عابسة، كأن لا حديث يفرح، نشترك فيه كلنا. وتابعت، بنوع من القنوط الملح:

ــ لكن ماذا يعني هذا النجاح !

ودون أن يفهم معطيات صوتي وملل نبراتي أجابني :

ــ إنه سلاح.

وردني بشكل لا يخلو من قسوة إلى معاييره الخاصة المقتبسة كما اعتقدت، من طابع فاسد يسود. فأبي، لم يكن حرا فيما اعتقده، حينما حول الثقافة إلى سلاح في معارك مجتمعات معينة، وذلك حسب التدرج الاعتقادي الذي يجعل من الجمال السلاح الأصح. ومن فقده يتلمسه في فرصة متاحة. وبهذا يبقى مثل هذا المجتمع الانسان أمام حكمه : يجب أن تكون مسلحا.. بالجمال أولا.. والا فبغيره، وذلك لتستطيع أن تحيا.

ــ لكن لماذا يجعلون الجمال يلعب دورا خاطئا في الخفاء، لماذا يحولونه إلى سلاح مع أنه انتعاش وتنعم ؟. ولأيام، سبحت أفكاري في الوجه

الاخلاقي للمجتمع، هذا الوجه الذي يصنعه أمثال أبي. وانتهيت : لعل ما خفي يعني غير ظاهره ؟ ثم فكرت اقتصاديا في الأمر : فجواز الحياة الرخية في يد كل مستملحة، بينما مثيلاتي : عليهن أن يؤمن عيشهن بالتعلم.

ووجدتني أتوتر : فالتنظيمات الاخلاقية تتطور. وهذا العصر غير عصر أبي. والثقافة الآن تعني التطور. وهم في الجمال من الخبز واليه ينتهون. والمعارك كلها سطحية، نخوضها بالجمال أو الوظيف. والرذائل، هي هي حينما نجعل من الجمال باب للذة والوظيف. وغيرنا، أعمالهم هي مراياهم يرونها دائما وبلا خجل. والحياة الكريمة ضريبة في عنق المجتمع للفرد والمجموع هنالك. ونحن ؟ كل شيء يهددنا، لأننا لا نملك غير جلسات اصدار الاحكام بالمجان. لكن ماذا علي أن أعتقد ؟.

وفي هذا التخبط، كنت أود لو وجدت صوابا.. أي صواب. وكان أستاذ الفلسفة يلوح، ولكني كنت قد اقتنعت بأن أستاذ الفلسفة غير فيلسوف، وأنه ليس في مستوى أية معضلة فكرية أو اجتماعية.. فأبقى في الوحدة واليأس، مع نحيب البحر وتشرد المستحمين وصفحات الكتب ومفاهيم أبي.

ظل البحر هناك، وأبي هنا، وأنا : هذا الوجود المرتطم بين حضورين غامضين أرتمي. وحينما كنت أتمدد في مواجهة الشمس، كنت أرسل كفي لأن ينغرسا في الرمل الناعم، لأتركه من بعد، يتسلل بليونة جارحة إلى عدمه، وكنت أتمنى :

لو ينتهي الزمن، لو يتسلل التوالي من كياني كحبات الرمل هاته، فأنتهي.

لكن الأماني شيء، ويدي المنتفضتين بدفقات الحياة، غيره. وقد كان ذلك يعني أنني مغزوة وبشكل قاس بالتيه والغموض والتساؤل.

وجمعت أطراف توتري وسرت، يشدني عزم في مكاتبة سلمى

سلمى :

لكأن قهقهة ساخرة لجبار متسلط في أعماقي، يكاد يعصف بكل شيء.. فاما أن أصبح في حاجة إلى أشياء غير هاته، أو أنفي حتمية الأشياء. لهذا أحسني كعلامة استفهام مكسورة، لاتجد أي ذهن أو فعل كبيرين يعيدان إلى الاسماء والاشياء الحقيقية والمفاهيم واليقينات.

والانسان يعاني في وجوده محنة هذا الوجود، فحتى لو نظمه باعتبارات غير اعتبارات جيل أبي، بل بأخرى يافعة، فانه لا يستطيع أن يفك المعضلات الوجودية الكبرى. إن البحر والمستحمين و... «ماذا أفعل ؟. أكتب رسالة ! لن أتم» سلمى، انظري الي ولو مرة من وراء الحروف يغير نظرتك اليقينية المثلجة، وقولي على الاقل : أخطأت. هدى

* * *

عائشة، تعني بالنسبة لأبي دورا ثانويا، فهي قد أخذت من أمي بعض السمات، كالطول والثرثرة، ولذا كان أبي يعتبرها هجينة، ليست ابنة أصيلة، لأرومته، بينما يجد نفسه في قصري وقبحي واتقاد صمتي. وكان يعلق بأسلوب بعيد عن فهم كل من عائشة وأمي.

ـــ كأنها عراقة أسرة بأتمها.

وكان ذلك ينفرني.. فأي تعلق كاسح بالماضي عنده، وما معنى هذا التواصل لسمات فئة بشرية، بحيث تصبح كرصيد خاص بها : البشاعة والاحتداد. وكانت عائشة تسبقني.

ـــ وأنا يا أبي ؟!

ـــ أنت أمك.. لست منا بالتمام.

وتتيه أمي بما أورثته لعائشة وتتجاهل تعريضه :

ـــ يمكنك أن تحمد ربك.

وكنت متأكدة من أنه في سريرته يفعل، بل يود لو ظهرت سمات من أسرتها فينا، فقد يغير منطقه آنذاك ويترك الافتخار بالأرومة والمحتد، خصوصا وأنه ممن يتناولون الجمال كسلاح. ولكنه يمتنع :

ـــ إنني أحمده على هدى.

وكانت عائشة بسليقتها المخيبة تسأله :

ـــ ولماذا ؟!

ـــ لأنها أنا.

وهاته المرة فقدت لهجته اعتدادها، وخالطها نوع من التحسر الفاجع، فحسبتني ولأول مرة قد فهمت عبارته.

لأنها أنا ـــ أليس أبي بطريقته الخاصة يحس بما أحس، فهو يشعر بما يحمله : بذور فنائه معه، ولكنه لا يسلم بالنهاية، فيريد عن طريق استمرار خصوصياته في، أن ينفي عدمه، ليؤكد قابليته لمقاومة التلاشي والمحو. فمن كيانه المهدود، قد انفلت مثيل له، هو أنا، ليرى في جدته وديمومته. وكان يؤكد فهمي ما كان يقوله أحيانا بتفجع :

ـــ وددت لو كانت ابنا.

ففي هذا التمني، كان يحصل أخيرا على الاطمئنان، لأنه حتما سيعتقد باستمرار أرومته جيلا بعد آخر. وفي الاستمرار سيتأكد، ولو من تحت أطباق الثرى المتماسك على جدته في قبر، إنه غير فان.

وفي الوقت الذي يسير بي هذا التوافق لان أخطو نحوه أكثر، كان الاحساس الآخر يفاجئني : لماذا نسعى لان نؤكد حتمية الحياة ؟ فنحن بآمالنا وتحقيقها، نخلق الوسائل التي تتجسد عبر حلقاتها أزلية الحياة.. فأبي

وخوفه ثم حبه للاستمرار، ليس غير جسر يخلقه، لأن تتمطط الحياة فوقه بتيه. فهو وأنا والرغبة والاستمرار والتعلق والاجيال مجرد وسائل، بينما هدف الحياة هو السيد.

وكنت أتصور مشهدا : جسده المسجي تحت أطباق الصخر والضغط.. ومن فتحة في وسطه ووسط القبر، يتطاول حشد بشري، منتظم في تسلسله، يحمل نفس الوجه والاعتداد والخصائص النفسية للشخص المدفون.. وكانت هذه الاجيال الضاربة في أعماق الزمن تثير في وجه الاب الميت نشوة الانتصار على القبر.. ولكن الطابور المستمر، يدرك فجيعته، حينما يحس وشوشة الاقدام الراقصة للحياة فوق أكتافه، فيكون هناك من ينفصل عن السيل الهادر، ويحدث في حبات العقد خللا، لأن يبرهن لفهمه، إنَّه ليس مجرد حبة وكفى.

وهمهمت بلا تأكيد :

ــ ولم لا أكون أنا ؟

* * *

8.9.1

يا هدى.. يخامرني استفهام : لماذا تستعجلين كل شيء : تفاهة الحياة وجهنميتها.. ألست في العنفوان.. تستطيعين أن تسمعي الترنيمة وتفوتك الآهة. وبصدق : فان خصوصياتك جبارة.. ولكن هل تستطيع أن تبني ؟ أشك في ذلك، اذ مثل هذه السوداوية الكاسحة ستقف بك عند لامبالاة قاتلة أو عنف ساحق. فلماذا لاترتبطين بما هو واقع، وتعطين لوجودك حلا ما بعمل ما.

«انسي شطحات نفسك ونواح البحر ويتم الناس وفكري في السنة القادمة، فبها وبما بعدها سنمسك بوسيلة تعطي لأعمارنا منطلقها.

سلمى

إن منطق سلمى هو هو، قد يكون لا يخلق صعابا ولا يتجاوزها.. لكنها بالتأكيد غيري : وداعتها وصرامتي.. أبوها غير أبي.. تشد أفكارها إلى الملموس ولا ترهق راحتها بشطحات ذهنية. أما أنا، فيخيل إلي، حينما أقارن قصري بطولها، أنني أشحن بشكل مضغوط ما يسرح بتوأدة في قامتها.. ولذا فهي لا تهتم بما أعاني : أن أستطيع تصريف جزء من الطاقة المنصهرة في داخلي أو أن أحركه.

ورفعت الرسالة بتمهل، وسرت فيها بلا اطمئنان، ووجدتني ألتفت إلى الايام الرخية، محاولة أن أعثر فيها على معنى أو مدلول.. لكن كيف ؟

* * *

وبنفس ذلك الجموح الذي ولده أبي في حداثتي حينما كنت أسمعه يقول :

ـــ ماشاء الله، لم يعد الزمن زمنا.. إنه تكالب في السرعة وكفى.

واتخذ شكله المفهوم لما كبرت، فأصبحت أقارن ما عليه واقع حياتنا، بالواقع الذي نتطلع إليه. وتحت تأثير هذا الفهم، ركبني هوس للاسراع في كل شيء، لأنني أنتسب إلى القرن العشرين قبل الميلاد.

وحتى الان.. وشعور غامض غير تام الخلقة يدفع اشكالاتي الذهنية والاجتماعية لأن أشدها للارجل المتسكعة والاجساد المتلاطمة والهياكل الممددة : أسأل كل ذلك عن مدلول : الافق البحر التخلف قطيعة السماء والارض ونحن كالحشرات ندب في الفراغ الهائل بلا اختيار.

وكان كل ذلك بلا جواب، سوى أنني أحترق من الداخل وأود لو طمسني المنظر، فلا أعود أرى شطحات هزلية لبشر يتعقلون.. أو، لو اكتسحت بصيرتي المنظور الخارجي لكل هذا العالم وبلغت لبه أو بالاخص لو وضعت قدمي على ما هو ثابت.

لكن مع ذلك، أجبت سلمى من ذلك المرتفع الرملي الذي كنت أركبه :
لامعنى لكل هذا، فالناس بلا معنى فكيف أعمالهم ؟! ثم تذكرت :

ـــ الا نظرة أبي إلى المرأة الجميلة التي ضبطته بالامس يرنو إليها.. فتلك لها معناها.

وابتسمت.

أبي.. نظرة ولهى من عينيه الذابلتين، كنت فيها وهو لا يراني، أضبط جيلا بأتمه.. بمفاهيمه وشهواته وأخلاقياته. وخيل إلي آنذاك، أنني عرفت الكثير عن كل آرائه، وبالاخص التي تتعلق بي وبالتعليم والسلاح، بل وأكثر.. فعبر نظرته انكشف الانسان : في زمنه وزمني وكل زمن، ففي داخله حنين سحيق لأن يروي وجوده بطلاوة، وقد يتعدى الأمر ذلك، فيسعى لامتلاك.

وخيل إلي آنذاك أن أبي يستعد، لو وجد فرصة أو فضلة من شبابه، لأن يستخدم اقتداره، ويخضع تلك الفتنة الانثوية لمتطلبات رجولته.

وحينما كنت أتسكع على حافة الرمال المبللة، ظللت أتحدث صمتاً :

ـــ أي نعم.. نظرة أبي : بمعناها، ففيها الجوع واللهب المسعور والارتعاش اللذيذ والبحث عن لحظة مسروقة من العمر المفجوع، ليذيبها الجائع في بحر نشوة بعد أن تذهله عن نفسه وعمن هو.

وتابعت أفكر باعجاب :

ـــ أبي، بعمره وقبحه، لازال يترصد لحظات من هذا النوع فأي مقتدر هو ؟!.

ولحظتها فكرت في نفسي.. في وجهي بالاخص.. وودت لو أراه الساعة، لأعرف أي فرق بينه وبين وجه المرأة التي هزمت في أبي غطرسته، ونزعت من تجهمه الصارم بسمة ذات معنى.

ووجدتني أحس فرحة غامرة، تلصقني بخطواتي وبالوجود وبيقية المستحمين : اثنين اثنين...

سهوت كثيرا عما أعرف أنني أملكه ، فلقد تصدى جوعي للفرح، لهاته التسلية التي أنستني من أنا.. وهمت مع الأمواج الجذلى والخطوات والاصيل الذي كان يغمر الشاطىء ببقايا ظلال مهرجانية.

ولاحت مني التفاتة، فضبطت كثيرا من البسمات، على وجوه أروع من وجه أبي وأصغر. وتساءلت : لمن هاته ؟.

وأجبت : إنها البسمة الهرمة.. تتقصد غايتها وتحاول أن تجعلها تسلية.

وبلغت الدارة بعد أن لسعني برد المساء، فألفت أبي كعادته : معتصما بتجهمه.. يتربع فوقه كمصطبة فقيه المدينة الكبير، أو كالمجلس المحفوف بالمهابة للخليفة هارون.. فوددت لو كنت طفلة : فلو كنت.. لسحبت المصطبة والمهابة والتجهم من تحته، ودفعته كأنثى حقيقية، لتطلع بسمته بالأمس : فتراها أمي...

وراودتني رغبة في أن أخبرها بحقيقة المترهب في مسوح القديسين، لتعرف أي رجل هو. لكني تراجعت، فلقد عذرته : فلو كان يملك في زوجته جمالا فتانا، لكانت نداءاته الآن قد خفتت.

ومع ذلك، بقيت البسمة في ظني كحل.. كمنفذ وحيد في هذا المنفى الكبير... كأمل للانسان الحائر قابل للفعل.

وأسرعت أضبط هذا الوجه بكل ملامحه على صفحة مصقولة.. فطالعتني سمات بلا تناسق، تتربع عليها قسوة مريرة.. كل ذلك يعتلي هيكلا متضخما لحجم قصير.. وشعرت بلون من الامتعاض : امتعاض مرير لم يفض مثله على قلبي كالآن. ولمت أمي : لماذا تزوجت أبي حتى تلدني ؟ ولماذا هو يفتخر بي، مع أنني لو ظهرت أمام نظرته كأية أنثى لما ابتسم.

ولمت نفسي :

ــ ولماذا أهتم بالبسمات.. إن ورائي هرما تاما من مدح أساتذتي وغيرة زميلاتي، باستمرار بقي كحصني.. فلماذا الآن تدمعني ملامح وجه هو نفس وجهي منذ ست عشرة سنة.

ــ ولكن أباك ابتسم، باني الحصن وصانع القيم.

فرددت عليه بالمفاهيم التي زودتني بها نفس البيئة.

ــ لأنه رجل !..

ثم استشعرت لونا من الراحة، لأنني كنت ملتصقة بالاعتبارات الاخلاقية التي شرعها ظلما، طلاب اللذة الكبار..

وفي مقتبل الأيام.. لم أهمل أن أهتم ببعض التزيين المستملح، مما أضفى على جفاف وجهي ونظرتي، نوعا من الرقة.

* * *

عزمت عائشة على العودة، فتمنيت لو رافقتها. كنت أود أن أنفصل عن المنطقة... فكل ما فيها معاد : المدى الرصاصي المرتعش، وتسلط السماء وتشرد المستحمين. وكلمت عائشة أبي في الأمر فاعترض :

ــ لم نأت إلى هنا الا من أجلها.

فقلت : لبعض أيام فقط.

وحينما انسابت العجلات بعيدا عن جبهة المصطاف، كنت أفكر في الاهل :

ــ أبي سيتخذ جلسته الاعتيادية في الفسحة الملحقة بالدارة، ليرقب الوجوه والقدود التي تستحق النداء المبتسم. وأمي لن تجد عائشة لترافقها في الجولة المسائية، فتقبع بجانبه للتفرج.. وقد يتغير أبي اطلاقا، فيسترد صولته

فيصيح فيها كما يحلو له :

ـــ أليس هناك من حياء ؟!

فتنزوي في الداخل، مخلفة له كل الفسحة، لأن يسكع نهمه في القدود.

وأصبح مما يلذ لي والسيارة لا تزداد الا انسيابا، أن أضبط أبي في بسمة.. أن أحس أن ذلك العالم المتضخم من التطاول والعفة والتسلط وخلق القيم.. ينهار، تعصف به ملامح شهوانية لامرأة رائعة، فتسخر من أعوامه وغطرسته وحذلقات قيمه.

* * *

وبالمدينة الكبيرة، البيضاء، حيث تسكن المتاعب والشراهة والمصالح.. كنت أقذف بساعاتي في الشوارع : على واجهات المحلات.. في المسبح وفي بيت أختي. ووسط ذلك التضخم من الاصوات والهدير، لذ لي أن أعيش فحسب.. فازددت اهتماما بحذلقتي، واشتريت بذلة أضفت علي جانبا من روعة.. وحاولت أن أتطاول في سيري كالطاووس.. كبنات هاته المدينة بالضبط.

وتنعمت برفقة أختي وأسرتها.. وعرفت السيارة بهم وبي، مسالك متعددة، وتمنيت لو ظلت تسير.. فطالما هي تسير يتملكني إحساس بأن هناك ما ينتظرني، أما وأن نقف، فان الرغبة تتجلى في ما وصلنا إليه : شاطىء أو مقهى. وفي هاته المرة، تم لقائي بأخت زوج عائشة.. تسكعنا وثرثرنا. لقد كانت تقودني في التغير الذي بدأته، لأنها تملك مهارة تغيير وجهها وهندامها. وكانت علاقتي بها، تتقلب بين حالتين : التقبل والرفض، فهي مرة نموذج تام لانجاز كل ما هو سخيف، وهي أخرى طراز لمن عرف من البدء النهاية، فأتقنها، كسلمى : عرفت ما ينقصها من العمل ذي المعنى. لكن أنا :ماينقصني ؟.

وأصبح صوت منى يعذبني، وكذلك ابتسامتها وزينتها. فمع بطلان أي رصيد فكري لها، الا أنها قد أمسكت بشيء يعذبني وهي تتقنه.

ومن بعد، حينما كانت تأخذها نشوة أنها تفرجني على مراتع مدينتها، فهي سيدة بهجتي، أكون أنا قد تعبت من التسكع المعاد والبهجة المغتصبة والوجوه المجروحة المطروحة على الكراسي في الحدائق والمقاهي، وتسألني باهتمام مبالغ فيه :

ــ ستتابعين دراستك في كلية الاداب ؟

ــ نـعــم.

ثم أطارد بقايا الاعجاب المهتم، الذي يمرح في مقلتيها وأتأكد :

ــ كل شيء له براءته بالنسبة اليها.. فأن يدرس الانسان فكل ما يخصه يجده.

وباستمرار تجهمت المدينة والدروب ومسابحها لي.. وزمجر هديرها الضاج وازداد حنقا، ففكرت أن أرحل.

كانت عودتي على ميقات مع جيران جدد، اكتروا الدارة التي تجانبنا، فامتلأ صمتنا وهمسنا بأصوات الجيرة، وكان منهم رجل ضاج، يشبه أبي في عنترياته حينما يقسو. وحينما يعلو صوت الجار في قهقهاته الجذلى، كان أبي يرخي السمع ويعلق :

ــ هذا انسان كبير وسعيد.

وتسأله أمي مستفسرة :

ــ هل تعرفه ؟

ــ لا

ــ وكيف عرفت ذلك ؟

ــ من ضحكته ونبرة صوته.

فحتى السعادة يتعرض لها ذهن أبي القاموسي.. فهي ليست غير صوت.. غير رعدة جذلى، غير وقاحة حادة في الضحك.

وأستفهمه :

ـــ كل سعيد في زمنكم كان يضحك هكذا ؟!

وعوض أن يجيبني، علت وجهه غيمة من كدر. ففهمت أنني أسأت القول :

«في زمنكم». لقد جرحته، أليس هو من لايزال يتسم لبنات هذا الزمان.. الرجل فيه يلاحقهن، ليبرهن على ديمومة الفحل فيه.. فالرجل رجل في كل زمان : في الستين، في العشرين، في المائة.. في كل العمر !..

وهدهدت جرحه :

ـــ فقط.. أود أن أعرف.

ولأنه كان يريد في هاته الصفة، فقد تسامح وأجابني :

ـــ حينما يشبع البطن ويمتلىء الجيب و.. ويملك الانسان ما يهمه، فانه يسعد.

ـــ أهذه إذن يا أبي شروط السعادة في.. في ذاك الوقت ؟

ـــ وماذا يطلب الانسان أكثر ؟!

ـــ أليست هناك من هموم أخرى ؟

ـــ الصحة.. لو كان أيضا يملك صحته، فليس هناك من مزيد.

ـــ والآخرون ؟ أهم خارج الحساب !؟

ـــ الاخرون يفكرون في أنفسهم.

ـــ ولكن مع ذلك أليست هناك من هموم اضافية ؟

ـــ هموم إضافية !.. ما هذا الاصطلاح ؟

ـ هموم اضافية وكفى.

ـ وأية هموم ستكون همومه، وهو يملك مثل ذلك الرخاء.

العالم رخي لطبقته. وهمومه من مستواه. والغليان العام والخاص خارج ظله. والداخل لغة لايتقنها، وأضاف :

ـ انني لا أفهمك

ـ تلك الهموم الأخرى.. التعاسة الداخلية مثلا.

وقبل أن يضيف شيئا، سربلني بتفحصه :

ـ التعاسة الداخلية !.. وقانا الله من مسمياتك.

كان الجيرة، كما تصورهم أبي من خلال قهقهة كبيرهم، في بحبوحة. وكانوا أيضا يملكون ما لا نملك، فكل منهم له وفرة من جمال. وهذا الجمال والثراء، قد عملا عملهما في أبي.. فتخلى قليلا عن انفراديته، وتكسرت الاسوار بين دارتينا، وتم بيننا نوع من التعارف.

وسُررت على غير العادة، بهذا الضجيج الملقح بشتى الأصوات وانماط الاحاديث، فقد كان ذلك يخلق نوعا من الدفء، يسربل الانسان في لفائفه، ليضمه الى انفاس بشرية حارة. وانطلق أبي على عواهنه، يكرر قهقهة جاره ليؤكد ثراءه هو أيضا، لكن دون أي بهاء، وليضفي على تجمعنا نوعا من التلاحم، وليزداد حملقة في الزوجة التي تفوق أمي جمالا. وكانت تلك الأصوات الطرية لصبية في بدء العمر، تملأ وحشتي بالصوت الآدمي.. بأنه هناك : أبيد مستمر.. فرغم خدعته يملك أن يسعد، كمارد لا يعبأ بالشهب.

وبرفقة صغارهم، عرفت النشوة البكر، والجذل البريء والحركات والقفزات والتسكع الباسم. وكانوا يتحلقون حولي في الجلسة والخطى، كأنني قائدة سرب من الخالدين.

وهاته الرفقة، أخرست في مؤقتا الهواتف الداخلية، وكدت أرى أن في

الحياة ما يمكن أن يثير ويعجب.. وأن سيدها من يستطيع أن يستمتع بها فحسب.

وطاردت المتعة في البهجات الفتية التي تحوم من حولي، بعد أن لو كنت قد استشرت في أن نتعارف معهم لفضلت العكس. وحينما كان الصياح الحبيس للبحر والانسان معا، ينطلق في ذاتي، كنت أقذف بنفسي في جذلهم، وأجهدها لكي أنسى.

ولا أدري إلى أي حد ارتبطت بالبراءة الساذجة المطلة من أحداق الصغار. ولذ لي أن أكون محفوفة بكل هاته البراءة وبجميع هذا المرح.. وتمنيت لو كانت حياتي، بقية عمري، يوما طويلا مع هاته الرفقة.. ثم يتوقف.

وحينما كانوا يتركونني، كنت أتعقب فيهم تخديرا لذيذا يوقف حزني عن أن يشعشع، وساءني مرة أن تناثروا من حولي، ليعلن أحدهم وهم يجرون :

ــ لقد حضر.

فخلفوا لي نوعا من القنوط، لازمني حتى وهم يعودون إلي، لأنني كنت قد ارتبطت بهم بنبل : لقد أحببتهم.

ومثل هذا الحب، خلف لي يقينا أساسيا : فكل انسان.. أي انسان، يملك جوهره. وأفجعني أن يكون هذا الانسان.. هذا الغير الساقط بالتمام.. هذا الذي جوهره معه يحمل هذا العذاب : أنه موجود.

وهفهفت اللحظات والثواني فوق مكوثي.. كانت كل منها تجر أذيالها محملقة في بنظرة ندية، تشهدني بها على أنني أحيا، اذا كانت لانسان، أي انسان.. الجدوى في أن يحيا !.

وكذلك كان أو لم يكن.. فكل حضورهم كان يتم بأكمله.. ألمس وأشهد جريانه وهو مُنى يودعني، حتى عندما كنت وإياهم نتقاذف الكرة

بأكفنا، وحضر أخوهم، لم يوقف العملية، رغم أنه يملك طلعة سارحة.. يظهر أنها هائمة الخطوة والنظرة والحديث، بحيث فكرت في أنه قد يكون متعلق الحس والخاطر بما يكون قد صادفه في جولته.

وشاركنا..

فعرفت عنه أنه انتقل إلى السنة الثانية من كلية الحقوق.. وأنه يعاني ضجرا خفيفا من أيامه، وأن انطلاقته هاته المرة إلى أوروبا قد أنعشت عروقه. وقال لي :

ــ ذلك العالم.. آه عليه !

إنه من طينة أبي، الرجل الصميمي الذي يعيش فحولته بالتمام. ولكن مع ذلك، كانت تبقى أسئلة عدة، أهمها : أي شيء آخر قد يعنيه مثل هؤلاء الرجال ؟. أما أبي، فقد أصبح يعني بنهجه الاخلاقي ووجهه الظمآن، انسانا منشطرا، وبذلك لم يعد أبي أبي : إنه ازدواجية محيرة. أما هذا، فانه صراحة تامة، تعصف بوجهه تلك السرحة اللطيفة لتتقلص عضلات ذلك الوجه ونبرات الصوت في دعاء رجولي محموم. وكادت هذه الصراحة تقنعني بصدقها، في منسجمة مع ذات الانسان نفسه، لا يستحيي بها، أو يرهب أو يتملق احتراما : إنه نفسه ولا أحد غيره.

وأخذ الموضوع بتلابيبي، فاستسلمت لمراقبة مفكرة لكل ما قد يصدر عن أبي أو محسن.. فهما معا، يعنيان صنفا بشريا متقاربا، كل ينفذه بطريقته. فبينما محسن يتوافق عفويا مع ما يطلبه : يتعقبه في الشاطىء الناغل بالوجوه الحلوة دون أن تقعد به ذكرياته القريبة، أرى أبي يتقمص مسوح المتعبد الصابىء، وهو يتلصص بنظراته على كثير من الجمالات وبالاخص والدة محسن. وكان المشهد الذي اضبطه عليه يزرع قلبي بالالتياع : السبحة والتمتمة ونظرته التي تشع شهوة حارة. وكنت أهمس بنقمة : أي جيل هو !

إنه لا يتلاءم مع أية ظاهرة، فكل ذنوبه ومباهجه يعيشها في الظلام، كأنه يرهب الصباح !...

ومثل هذا الاحتجاج المدعوك بالتمرد، كان يزيد في استمساكي بالوجوه الطرية للانسان.. بهؤلاء الذين سيتطابقون مع احتياجاتهم ونزواتهم وخطاياهم وفضائلهم ويلجأون إلى معانقة كل ما يخصهم بشجاعة غير ملتبسة.

بفعل هذا الوضوح الذي أحببتهم أيضا من أجله، تكاثرت مشاركاتنا في الجولات الهائمة. وكان هو يلاحقنا، فيداخلني شعور بأننا بالنسبة إليه، الوسيلة الأخيرة التي أتاحها له هذا الصباح أو المساء، بعد أن تعقب الكثير منها. وكان ذلك لايثيرني أول الأمر. لكن في أعقاب تلهف عطشان صارخ لأبي، تذكرت أنني أنثى، فهالني ألا أكون هذه الانثى بالذات.. بنفس الصفات والخواص والاسم لأي رجل. وشممت في تصرفات محسن اللامهتمة، بداية حسرة تهددني.

كان هو يلاحق أي وعد يمكن أن يكون له فيه نصيب، فأراه كيف يتعقب بعضهن، وكيف تعود عيناه منتشيتين، وكيف يعلو كتفيه اعتداداً بأنه رجل. وكانت مثل هاته الاسلاب التي يعود بها ذات الفينة تورثني سؤالا مسعورا : أأنا حقا أنثى ؟. وأتذكر بوجع : أنثى بدون رصيد.

وتفجرت عروقي بالغيظ على من أورثني حدته وملامحه، فقد كان هو الرجل، في مجتمع يقدس الذكر، لا يعبأ بسمات البشاعة. لكن أنا : كيف ؟!...

وكان الاحتداد في أعماقي ينتفض، أثر كل عودة ظافرة لمحسن، حتى أني أصبحت أرهب عودته.. أود لو أنني لا ألتقي بها، لكن الاندماج الذي تم بين أسرتينا والذي كان أبي أهم صانعيه.. كان يهيئني باستمرار لضبط كل رجوع منتصر.

وفي نفس الحال، كانت نظرته، التي قليلا ماتقف علي، في شكل يكشف عن رغبة طارئة، تشعرني بالهوان.. فلماذا لا أرسم على وجهه نظرة كنظرة أبي : بريقا خاطفا ولهاثا مكبوتا كأنين.

و لم يكن يملك وقته الا ليستغله فيما يوده، بحيث لا يحمل ذلك لواحدة مثلي غير الجروح.

وبقي في نهجه يسير.. يمنحني ذات النظرة، بينما أتعذب أو أبتهج مع الصغار أو تصدمني اللاجدوى القابعة في النظرات والشهوات والشبع والحرمان. وكان هذا أهون مما كنت أعاني منه، حينما كنت وجها لوجه : بلا هموم اعتيادية أمام الفراغ الكبير في الدرس والبحر والحياة.

وظل الموضوع كله بالنسبة لي هكذا، بل.. حينما كنا في آخر التقائنا، كان أبي يرعبني بحسرته، فلكأن سأما أليما يترقبه، وهو بلا مرمى فتان لنظرته : أما أنا، فقد خامرني هدوء تام : فلكأنني لست من هاته المجموعة بالتمام.

ووجه محسن حديثه العادي إلي :

ــ سنلتقي في الجامعة.

فأجبت بلا اهتمام : ممكن.

فأمسك أبي خيط الحديث وأتم :

ــ ذلك ضروري.

وتابع بعد أن رمى نظرة متسكعة تبحث عن وجه يعشقه :

ــ ان أخوتنا الحميمة لا يمكن أن تتوقف، فلسوف تلتقيان هناك ونلتقي نحن جميعا في فاس.

وانتظر جوابه. فقال رب الاسرة الأخرى بصفاء ساذج :

ــ ان شاء الله.

بينما كنت أنا، أعاني من هذا الاحتيال الذي رأيت أبي يتقنه. وشعرت بالافلاس يهدد كل صفاء، ما دام أبي، النموذج الوقور الصلب، يتحرش بهاته الطريقة، بزوجة غيره.

ولعلعت في ألياف صوتي صرخة كنت أود أن أطلقها في وجه الحصن المتداعي الذي يدب بخطواته الواهنة، لاقتناص لذة محرمة. ولكن الموقف الجمنى، فتسللت الصرخة إلى سحنتي وصبغتني بصفرة وامتعاض قاسيين.. وافترقنا.

كان الفراق في اللحظات الأخيرة يعني بالنسبة الي، حلا مرغوبا فيه.. فلقد ثقل علي أن أتحمل هذا الوجه المتآمر لأبي.. بحيث وددت لو أخنق اللحظة قبل أن تبدأ، لنسرع إلى التحية الأخيرة.

ومن بعد، لم يبق الأمر كما قد بدأ.. فلقد انتفضت ذاكرتي عن تذكر لكل قبلات الصغار وتمسحهم بأطرافي لحظة الرحيل.. فأحسست بألم. لكن الأمر، تبلور بعد حين في شكل آخر :

ــ لماذا تعلقت بهم على هذا النحو ؟!.

ولاح لي، أنني أعيش في الغبن، بحيث أن مثل هذا التعلق المبالغ فيه، يعكسه. فلو كان لي ما أملكه، غير ظنوني والفراغ.. لكانت عواطفي قد ارتبطت بهم باتزان.

* * *

(هو نفسه : هذا النمط. وهل تراني سأظل أماشيه كحتمية ! ان ما حصل يفرض أن تكون هناك مبادرات فردية، مادامت حركة الجماعة يؤخرها تسلط الالقاب والشرطة والأوسمة والسياسات والمقاصل والزنزانات وأنت أنا هو : ماض وحاضر.

وهل علينا أن نبقى نحمل هزيمة الزمن والحركات والرفض إلى متى ؟. فشيء فينا قد حقد. والحقد عليه أن يقتلع الموت، سيد حياة هاته المنطقة. والعمل في صمت هو علاج الجروح التي في القلب وفي الرأس.

وقررت الاستاذة : هذه الخامات الضائعة، أسهم مع آخرين في تبذير طاقاتها في الدوران بعيدا عن نتائج صالحة لها، لماذا لا أبدأ بها ؟ فقبل الان، حينما عدت من الشرق، بعد أن كنت قد اكتويت في المغرب، وضعت يدي وعقلي على أكبر لطخة، فكان لابد أن أبعث القضية فيهم.. واستجابوا : فكان منهم من انكب على الكتب والمجلات ليلم شتات القضية من أسباب ومسؤوليات، فيصوغ ذلك صياغة شخصية، حيث يصبح ذلك التناول هو الذي يشرح، بهم، ولهم، القضية عوضا عني، خصوصا بعد طبع البحوث وتوزيعها عليهم.

... أما بعد، فلقد سألتهم :

ــ أين فلسطين ؟

تضاربت النظرات ووقعت علي مرتبكة. لكن مع ذلك ظل السؤال قائما : أينها ؟ وأجبت : إنها أنتم وأنا وكل شبح. فنكبتها هي نكبة هاته الأمة : نظمها وتخطيطها وتلف مسيرتها. إنها قائمة في كل فرد منا، نحن الذين نمثل الاستسلام أمام كل سرقة تقع على أفكارنا ومشاعرنا ومبادرتنا وردود فعلنا اتجاه التحديات. صمتت لحظة. إن العمل هو ما أريده. والمباشرة بلا ثرثرة خطة أساسية. وساساتنا أضاعوا طاقة تفكيرنا في غزوهم الاجوف لحاسة السمع. ونحن في الاسفل لابد أن ندب.

ــ بدءا بالقضاء على أسباب القضية فينا : الجمود. بمحاولة التفاعل أكثر مع الصلة التي تجمعنا ببعض، بادخالكم إلى حيز الحركة لعلكم تلتصقون بشيء فيكم ومنكم، وبخلق صلة بينكم وبين اهتمامكم، لمحاولة انتزاع أقدامكم من التيه الجامد، اخترت أن أطرح عليكم اقتراحا :

ــ ان كل سنواتكم وأنتم تتلقون وكفى، فتتعطل فيكم خواصكم : خواص التفاعل الحي المحيي في كل حياة. ونظرا لارتباط هذا الاسلوب في التعليم بكل ماعداه : أن تكونوا وكنا ونكون خارج كل ما يفعل، حتى تتم النتائج لتكون ماحقة : صغار في البيت بلا حق في المشاركة، غائبون في الدروس، وهامشيون في المجتمع، بعيدون في التخطيطات والاختيارات والسياسة والاقتصاد واعطاء العنديات لصالح الكل. هذا واقع الفرد والجموع، وهل ترانا سنظل محافظين على أسلوب الموت هذا ؟!).

* * *

ومن البدء.. من لحظة الشروع في كلية الآداب. توهمت أنني أعمل أيضا من أجل البديل.. وشيء آخر غير التعلق الصبياني الاهوج بأطفال...

كنت أعتقد هذا، مع أنني لم أملك التواضع الكافي لان أخبر سلمى به. فلقد كان حديثها مقتصدا معي، فهي تتجاوز ما يتعلق برسالتينا كأنها كانت تستهين بذلك، أو أنها تسعى للمحافظة على ارتباطي الجديد بالدراسة الجامعية التي أشارت لي، بأنها وسيلة للحصول على ما هو معنى، ففضلت التريث أو اختيار الصمت كحل نهائي. ونفس الصمت اخترته، ولاحقت بتعقب مضبوط، أي اقتناع يلوح لأمسك به. وذوبت انتباهي في أصوات الاساتذة، وجررت نفسي في محاولة البحث عن سهو لكل ما حدث.. حتى

عن الاوضاع التي تدهور اليها أبي : فقد أصبح شديد التوتر، قلق اللهجة، كئيب الجلوس والحركة.. فعلى صرامته تقبع ظلال متحسرة للذة مكتسبة. فأنا هنا، بعيدة عن كل ما قد تثيره أحوال أبي في من تعاطف أو لوم.

كان التعليم الجامعي حسب ما ألهمتني به رسالة سلمى، يعني غير ذلك الاطار المحبوك الذي انحشر فيه عمري، منذ كان في أعوامه الأولى حتى الآن.. بل هو مرهون بأن يهيء لشيء له مدلوله.

وذلك، هو ما دفع بي إلى أن أسلك نهج البحث عنه، في قعدتي وانصاتي ومشاركتي واسهاب الاستاذ الشيق حيناً والممل أحيانا. وبدون تقصد، أصبحت أثير فضول بعض الاساتذة، مع أن جلهم كان يركن لاهمالي، مستشعرين نوعا من الخيبة في أن ترتبط تلك التدخلات التي أشارك بها بمثل هذا الوجه.. لكنّ خيبتهم اللامرئية، كنت أهملها مع بقية الاشياء الأخرى التي أهمل، لأنني كنت مدفوعة على مدلول أو معنى.

واشتد تطلعي.. فلقد كنت كفرس شكس محبوس بلجام الاحتياج إلى أي شط.. فهو ما يخصني، ما يمنحني سلوة ما أو أي عزاء. وتعجبت سلمى، بالصمت نفسه، من هذا الانكباب الذي رأتني أتقنه.. وفسرته بأنه هو السبيل الصالح الذي علي أن أفعله.. وفعلته، كمصير أو قدر. لكنه لم يكن قدرا أو جبرا.. فلم تكن حتميته تفرض القرار النهائي : فقد كنت أعاني في جلستي ثقل السنين على كاهلي وكاهل كل البشر.. من عاشوا جميعا.. من تحملوا ضجر اليوم نفسه.. بنفس حتميات الرحلة في نفس الطريق، بلا فهم أو جدارة أو استسلام هاته الجلسة.. والانصات السخيف ونفس القاعة والفسحة والامتحان والتخرج والتمرس بالواقع الابكم الحزين. وفي التشبث بحماقتي في وجه الاستاذ المحاضر، كان يعتريني اكتساح ضبابي، يبتلع الحياة، كل تماس بها في كلمة كبيرة كالعالم : هراء. وكانت الكلمة تطن في مسمع نفسي كزمجرة ساحقة لزنجي حرون.. فأجهد لأنفلت من

حصار الكلمة التي تتردد بسعر، ولكنها تأتيني من كل ما أرى : الرؤوس المصطفة كمحاكمين مهيئين في اللحظة الأخيرة لتلقي الحكم.. وبعدهم، خيال ذلك المهرج الذي يتحرك فمه في انفتاح وانغلاق، كأن الحياة قد ركبته فنفذت عبره بهلوانيتها. وأحاول أن أسمع.. فلا يكون شيء يمكن أن يوفي بجديد أو خلاص.

وقالت سلمى دون ترقب، ونحن نجتاز الشارع الكبير في اتجاه أن نقطعه من أسفله.

ـــ في التعليم الجامعي يشعر الانسان بغتة أنه قد كبر، وأنه يباشر اختياراته مع قدر هام من الحرية.

فندت عني تمتمة غير واضحة. وتابعت :

أية فرحة كبيرة هي الحياة، حينما تحمل إليه كل هاته الامكانات.. تجعله سيد نفسه، يتحمل كل مسؤولياته ويوجهها لا كعبء ولكن كعطاء، عليه أن يكيفه.

وهنا عرفت أنها تلامس بخفة، أعماقي، لتثير فيها ما استتر، وأنها تود لو تلمس عندي نفس ما تستشعره، أو تحاول على الأقل أن تنبته في. فقلت للتضليل :

ـــ هكذا !

فأضافت :

ـــ وأكثر.. فقد تكون هي فرصة الانسان أيضا لأن يباشر انسانيته.. فلو رفضها فستكون أيامه بلا اشراق.

وعجزت عن أن أضبط في صوتي توتره فصرخت :

ـــ ليس الانسان مغفلا بما فيه الكفاية.. فبين جوانحه قدرة على اجتلاء

التفاهة المغمورة في روح الاشياء، فهو يرفضها ويعلن سيادته، لأنه لا يقبل غير الاشياء الحقيقية التي لا تنخرها سرية طامسة.

وأسرعت :

ـــ ماذا ؟

ـــ لن يكون سيد غير الاشياء التي تستحق سيادته. والا.. والا فسيكون رفضه أكبر احتجاج يعلنه.

كانت حيرة مربكة قد صبغت وجهها بنظرة مفكر :

ـــ يعني هذا ؟...

ـــ فأكملت لها بشكل لم يكن ينتظر :

ـــ يعني أنني أرفض كل شيء.

ازداد بصرها تمعنا في صوتي، ورأيت خيبة مريرة تكدر الصفاء البريء فيه : ولمت نفسي لأنني لا أحمل لها غير الكدر، وودت لو عالجته بطريقة ما. فقلت بلهجة صبيانية :

ـــ لم أحاول أن أكدر فرحتك.

فتشاغلت عن الاجابة بحركة من رأسها قبل أن تجيب :

ـــ المهم أنت.

وعثرت في الصوت على التياع انساني.. فوددت لو غمرته بأي بديل.. أو، لو انحشرت في تدفقاته الخصبة، وغسلت في ليونة كل احتراقي وبكيت.

ولما لم أفعل، فقد سمعتها تقول :

ـــ ألا تستطيعين أن تفعلي شيئا آخر ؟

ـــ مثلا ؟

ـــ أن تخففي قليلا من سوداويتك...

وتريث صوتي، قبل أن يستطيع أن يفك قيوده لأن يقول بلهجة نفذ صبرها :

ـــ وهل أستطيع أن أفعل ؟!

فأمسكت بي :

ـــ ولم لا، فأنت ذات ارادة.

وسللت من صمتي كلمة اعتقدت أنها مجانية : أشكرك. ثم سرنا بتمهل حزين قبل أن تتلقفنا بهجة هند التي أوقفتنا :

ـــ إلى أين ؟

وأتمت : أيها الثنائيُ المتناقض.

ـــ نتجول قليلا..

فعرضت :

ـــ يلذ لي أن أتفرج على المارة فوق مقعد في مقهى.

وصمتت قبل أن تسأل :

ـــ أنذهب ؟

فوزعت سلمى بصرها بين عرضها ووجهي، وأتت بحركة مفكرة سريعة، وقررت دون أن تهتم برأيي :

ـــ لنذهب.

وذهبت ومعي تعجب : كيف قبلت سلمى مرافقة هند. وأخذت هند تضفي على جلستنا مرحها الصبياني، بحيث أنها أخمدت الكثير من مخلفات ذلك الموقف الدرامي الذي مثلناه معا : سلمى وأنا. ومع أن ذلك النوع من المرح المبالغ فيه كان يثقل علي، إلا أنني كنت ملزمة بأن ألاحقها، فلكل دوافعه : فهند تفرح بمجالستنا كما نحن نعرف : طالبتان مرموقتان. وسلمى تريد لو تملك أية وسيلة لتقتل في أعماقي جرثومة الكدر..

وفي آخر الدور، كانت كل منا قد عرفت أنها تمثله.. أما هند فهي الآن تجر أرجلها معنا، لأنها محتارة ببقية وقتها أين تستهلكه. وبغتة لاح خيال عرفته. إنه محسن، الذي كان قد وهبني هو والبحر نصف بسمة في المحمدية. تقدم حركيا كعادته وحيا بعد أن قدمناه إلى سلمى، وسألني :

ــ أين أنت ؟.. لماذا لم نلتق كل هاته المدة ؟!

ــ فقلت بلهجة هاربة :

ــ الدراسة. كيف الأهل ؟

ــ بخير، وأنتم ؟

واستدار نحو هند.. فكانت حالة استدارته بليغة مع أنه لم يبادلها غير حديث مقتضب، وعند وداعه خاطبني :

ــ انني أسكن في الحي، رقم الغرفة 86.

وسايرتنا هند مسافة وهي تقول :

ــ انني أعرفه من مدة.. فهو طالب حقوق.

وبعد حين اعتذرت :

ــ أريد العودة، طابت ليلتكما..

فردت سلمى، ولست أدري بأية نبرة ردت :

ــ وطابت لك أيضا.

وبعد صمت غير قليل، جاءني صوتها في لهجة أم :

ــ أرأيت كيف يعيش الناس على واجهات متعددة، فكل قد يعيش البهجة بدافع خاص.

وبعد أن سوت حقيبة يدها أضافت بصدق :

ــ انها ترياق ضروري.

فضربت يدي ببعضهما وأجبت :

ــ ولكنه خادع

ــ ليكن.. ألا نخدعه نحن أيضا

ــ ولم كل هاته المراوغة ؟

ــ وما ذنبنا اذا كان منا من يملك بصيرة حادة ؟! يجب أن نحتال لنقطع الاشواط.

ــ فقلت كمن أدينها :

ــ لكن.. أين هو ذلك السعي الحثيث من أجل العثور على شيء أو مدلول ما !..

فتشجعت نبراتها :

ــ ذلك أهم.. إنه يعني جدوانا، فعالية طاقاتنا العضلية والفكرية، لكن..

ووجدتني أتطلع إلى صمتها وأسأل :

ــ ماذا ؟؟

وحينما ظلت في الصمت ألححت :

ــ لكن هاته... ؟

فانطلقت :

ــ لو عجزنا أو تعثرنا في امساكنا بذلك.. فلماذا لا نلجأ إلى المراوغة من أجل اقتناص امكانية تحمل العيش، فنضحك ولو أننا نبكي..

فقلت، ونحن ندلف إلى الحجرة بالحي :

ــ معنى هذا أن عدم الحصول على شيء يعني العجز أو العثور، أما الشيء في حد ذاته فموجود ؟.

ــ وهل يتحمل الانسان ذنبين أيضا ؟

ـــ ذنبين ؟

ـــ فأوضحت :

ـــ عجزه عن الحصول على المدلول، على الشيء، ثم افتراؤه : أن يضحك وهو يبكي !..

فجاء صوتها بلهجة اليقينية كعادته :

ـــ ألست تتحدثين عما في الحياة من أضداد وتقولين : لاشيء مع بعضه : كل يشكو من قلة الانسجام. فلماذا لا يكون الضحك الباكي جزءا من الظاهرة العامة التي تأخذين الحياة بها.

وقلت بدافع الثرثرة فقط :

ـــ وكيف يغتصب الانسان الابتسام والحياة بلا رونق !.

فأكدت بلهجة تقريرية :

ـــ كما قلت لك.. ليعكس معنى الحياة الخفي.

* * *

(ـــ فكرت أن أقترح عليكم : لماذا لا تصبحون على الأقل، أساتذة أنفسكم ؟.. أن تكونوا المعلم والمتعلم في نفس الآن.. أن تباشروا مسؤولية ما أمام أنفسكم وأمام بعضكم وأمامي، ومن ثم أمام كل ما يخصكم ؟.

سرت همهمة. وفي الالسنة عقود من الصمت. وأن تدفع الآخر ليكون نفسه، يلزمك الكثير من الصبر والثبات. والاب والام والجد وجد جده من قرون يقبع في الالسنة دون الافصاح. والخوف سيد الاشياء عندنا وهل يمكن التراجع ؟

وضعت يديها على جانبي المكتب، واقترحت :

ـــ سأظل أقوم بتدريس مادة الجغرافية، وستتكفلون أنتم

بتدريس التاريخ، وذلك بعد أن أقوم بتدريسه مدة شهر من أجل أن تسجلوا كل حركة، كل نبرة، كل ما يتعلق بتدريس هاته المادة، ليقوم حوار بيننا في آخر كل درس، ومن بعد ستشرعون أنتم مباشرة في التدريس فماذا ترون ؟.

هاته المرة التمعت في الاعين حركة اهتمام. ان ما ينقصنا هو البدء والشباب الذي يعيش في عالمنا على ترهات مستوردة، يملك نظرة اهتمام. والوعي الضئيل عليه أن يبدأ بأي شكل.

وأضفت للتشجيع :

ــ مسبقا، يجب أن أوضح الصلة بيننا : فنحن أصدقاء، يجب أن نعي ما ينقصنا، وبهاته الوسيلة كما أسلفت، يجب أن نسهم في قتل موتنا، لعل معركتنا الصغيرة تنتج.

انكسر الصمت :

ــ وهل سيكون عملنا خاضعا للتنقيط ؟.

نفس الشيء : فليس هناك من دافع وراء شباب المنطقة غير البحث عن البديل القريب، عن نجاح عادي، عن كرسي، عن عمل، عن مرتب في آخر الشهر، عن حياة جامدة تبتدىء من الحتميات اليومية وتنتهي فيها : إنه مستوى الاهتمام والنظرة والتطلعات عند من وجدوا حياتهم داخل هذا الاختناق !.

ــ هذا موضوع أطرحه أمامكم ؟

ــ ....)

* * *

في أعقاب هاته المجادلة الشاقة اللينة، استيقظت في كثير من الاضداد : النحيب والقهقهات. والوجود والفناء. الجدوى والسقوط وبقية الاشياء التي

لا أتصل بها، حتى أبي بنظرته المحيرة، والبحر الذي كنت أرتمي فيه بحسرة من لم يكن يجد غيره، والصبيان العجيبين الذين لم أستطع الا أن أحبهم، وسطحية أمي وصداقتنا الجديدة مع أهل محسن.

كانت كل ذكرياتي تنتفض واضحة، من وقت ما أحسست بشكل ساذج، أن الاشياء تنفصل عني، وتتراكم عوضها استفهامات ضخمة : كحيرتي.

وددت لو بدأت من جديد، لو كانت لي الحياة من يومها الأول.. لأعيشها بلا فهم أو هموم، أو أن تنفي سلمى كل ارادتي وتقودني كعاطلة إلى الهداية أو الضلال. وفكرت : هل سلمى تقودني إلى حلول ؟ : لقد حاولت، لكن كل هياكل الاصوات وكل حضورنا بالصف يتحلل، يتحول إلى نباح مسعور أو أصوات خفية أو قضايا عادلة أو نحيب انساني : ذلك هو الصوت الوحيد الذي يبقى لي دون كل الاصوات..

وقررت بشكل غير مضبوط، أن أبدأ.. ألست عاجزة ؟ أليس المعنى ساكنا في شيء ما ؟ أليس الضحك الباكي سلاح من عجز ؟ أليست سلمى تتدرج في اتخاذ الحلول إلى النهاية ؟.

وكنت في هذا القرار، كجندي من اللفيف الاجنبي يساق قسرا إلى معركة يئس من الصولة فيها.. فلماذا يفعل !؟.

ومع ذلك، مع أن صوت سلمى ورأيها ظلا يلاحقاني، فقد أحسست بخمود هادىء في محاورتي المعادة.. لم أكن مهتاجة كالسابق، تطغى علي أفكار ونهايات مسبقة، تحمل إلى الوجه البائس مقدما.. ولكنني كنت أسير بمهل إلى ماأعرفه، بخمول في الحس وتجمد في الاطراف ونوع من التنويم، ثم أراود نفسي لعل شيئا يلوح أو لعلني ألتصق بشيء.

وهلل جل الاساتذة حينما عادت تدخلاتي تنعش الدروس. ولم يستطع أحدهم مرة أن يملك اعجابه، فبالغ :

ـــ انني أتوسم فيك مستقبلا بأتمه.. لكن يجب أن تعرفي كيف توجهي مواهبك وتنميها.

قال ذلك، وأهمل ذلك التغير الواضح في لهجة التدخلات التي اتخذتها. وبذلك أشعرني رأيه بنوع من الغبن.

وفترة بعد فترة.. مهلا على مهل.. بنوع من التقدم كالدبيب وانكباب مسعور على الكتب، كنت أنجرف إلى ما أعكسه : إن من لم يستطع أن يملك السيادة المطلقة، عليه أن يموت. وأن العالم تسيطر عليه سيادة أخرى. وأن كثيرا من التحضيرات والنظم الاعتباطية تسحق الوجه العظيم فينا. ونحن لا نملك السيطرة التامة على البدايات والنهايات. وأن فروضا حتمية تسحقنا : فالاكل يحتاج إلى الاكل.. والموت يجدد موته.. والمظاهر تتلاحق عبر الامتداد المكاني.. ونفس الانسان هو هو : وإلام المفر ؟ النحيب العريق يتعالى من صوتي، وأسمعه حينما أرمي بصري على الحدود المضبوطة التي أحسها تحيط بكل وجود، كل فلك كل كوكب كل نجم، وأتساءل بصوت مخنوق : إلى أين إلى أين ؟... ثم أقذف بكتلتي البشرية في الدروب، هنا وهناك.. كمخبول يتذكر في لحظة صفاء أنه يبحث أو يفر.. أما في بقية اللحظات فليس غير مغشي عليه، يجوب الاصقاع في نوبة غياب.

وفي حالة ما، كانت قوة خارقة تسرح في داخلي، تستهجن هذا التلف الفظيع الذي أجسده، وتريد لو وجهتها، ففي طاقتها، ما قد يكشف لي أي بصيص. ولكن كيف ؟! فأنا في حالة تجعلني لا أتبين الاصوات والاشكال والالوان والاحجام، أن كل ذلك ليس غير انجراف غائب.. ولا أتنفس لأتذكر، إلا حينما يكون بدني يشكو العياء الأخير.

ومع ذلك، فقد كان يلوح لي في العياء والجذل والتكتل والسعي، الوجه الخفي لهاته الظواهر. فالانسان يعول في مرحه، ويؤكد انفراديته في تجمعه، ويكشف عجزه المحتاج في عيائه أو سعيه : وبهذا فلا شيء حقيقي.

وأغوص في هموم لا حد لها، حتى أنني عندما تلقيت استفسارا من أحد الاساتذة :

ــ مالك ؟.. غياب متواصل أو حضور شارد ؟!.

لم أملك الا أن أجيب :

ــ وماذا أستطيع ؟ فليس هذا المبنى بضخامته غير شارة حمراء توقف خطوى لبرهة، ثم أستأنف التلف.

فارتمت نظرته علي، وتدفق من صوته تعجب مرتبك :

ــ ماذا ماذا ؟

فقلت بصوت، تملك نبراته ألمها :

ــ لا شيء.

وكدت أستدير منسحبة ، ولكنه تمكن من أن يقيني أكثر، وقال مهتما :

ــ مالك.. أتعانين من شيء ؟

وبنفس ذلك التكتم الغامض والعفوي الذي كنت أعرف به، وجدتني أتصرف ثم أنصرف. وحينما كنت في الخارج، استنشقت كمية من الهواء.. لكن عوض أن أنتعش، شعرت بدبيب ملايين الارجل النملية تزرع نفسي باستفهامات متداخلة لا واعية، وفقدت السيطرة على حالتي، وحاولت أن أهرب.. وفي هروبي تطلعت إلى السحنات وفي نظرتي سؤال :

ــ ترى، أكل هؤلاء السائرين وفق غاياتهم يحملون ما أحمل ؟. لماذا لا نتجمع ونكسر هاته الرزانة الحديدية : فيتحقق توحدنا عبر انسجامنا في الرفض.

* * *

وعبر هاته السلسلة.. سلسلة حالاتي، ظهرت سلمى. وهاته المرة،

فضلت ألا تثير الموضوع، إنما اكتفت بامكان قيادتي. أخذتني إلى بعض الاماكن، وأحاطتني بوجوه الطالبات والطلبة، وأرغمتني على السفر معهم في جولات.

وكانت تغمر نفسها بالبهجة، فأظل أتمعن فيها وأتساءل : أية سلمى هاته !

ولانها تستطيع أن تفعل كل شيء كما كنت أعتقد، فإنني أعتقدت فيها آنذاك، أنها تستطيع حتى أن تفشل.. لكن هذا الفشل، فشلها هي بالذات، كان يبدو لي ذا لون آخر.

وبدافع من ذاك الاعتقاد ازددت ملاحقة لها في التصميم الذي أتقنته : فأحضر في الامسيات والسهرات والجلسات المرحة، دون أن تفارقني نظرة بطابع خاص : لقد كنت أتعقب حالتها بنوع من الترقب، منتظرة أن يطلع شيء كنتيجة لهذا المسلك الذي تسير وتدفعني إليه.. فكأن هذا النهج، عبارة عن صلوات متعبد يمجد معبوده بطريقته الفرحة، منتظرا لحظة الكشف. وذات مرة، انبرى مني سؤال لم أتقصده :

ــ متى يلوح المعبود ؟

فاهتزت :

ــ ماذا ؟. ثم أضافت : لم هذا أيضا !؟.

ــ لقد طال انتظاري.

وكنت أقصد نتيجة الحالةالتي نسير عليها. ولكنها أجابت بصلاحية :

ــ انتظار !.. سيظل يطول. المهم أن تبحثي أنت بنية العثور.

ــ واذا كنت لم أعثر، لقد لاحقتك طويلا.

فاعتلى وجهها استفسار ملحاح، ثم تريثت :

ــ ما معنى هذا !.. أأنا طريق إلى الله ؟!

ـــ إلى الله أو إلى غيره : سر أو يقين أو أية نتيجة.

ففكرت قايلا :

ـــ ولم لا تكون الرزانة الفكرية والموضوعية في البحث، هي الوسائل الوحيدة لذلك ؟.

وأدركت أنها تتكلم حسب فهمها، بينما أنا أسألها في نطاق موضوع. لكن مثل هاته الاجوبة دفعت بي إلى أن أتذكر إله أبي.. فلطالما رأيته يستحضره ليعبده. وتعجبت. فاستاءت :

ـــ والا تاه الانسان تيها اضافيا.

فأكملت لها :

ـــ أو أن يعيش في الضلال.. يعتقد أنه وجده، فإذا به يتلاعب بمعتقداته.. كأبي.

ـــ أبوك ؟

ـــ أبي وإلهه.

فانتشرت في عينيها حيرة هامدة، وكررت بلا تمعن :

ـــ أبي حينما يداعب مسبحته بتراتيل تعبدية، ليستحضر لحظة ارتباطه بالهة، يكون خاطره بعيدا، في جولة البحث عن متعة، يستطيع بها على الأقل أن يبهج بها بصره.

وحينما ظلت على صمتها، قذفت برأيي :

ـــ إنني أرفض هذا الاله.. هذا الذي يقبل الرياء. فخرجت عن صمتها :

ـــ وهل تعتقدين حتما أن الاله هكذا ؟!

ـــ وكيف أعتقده.. فهكذا عثرت عليه.

ـــ وهل هذا السبيل النهائي !؟

قالت ذلك بلهجة طيبة ومنكتة في نفس الآن. فرددت :

ــ ولم لا.. فهو أول من حدثني عنه.

وأضفت : وهو أيضا رزين.

فتمعنت في وقالت :

ــ ومع ذلك.

فعقبت كمن ذكرها :

ــ وغيره، لم يكن يتيح لي فرصة أن أفهم.. فأستاذ الفلسفة كان يسكتني بقوله : أن هذه أدواء مجتمع غير مجتمعنا، فمجتمعنا يعاني من شيء آخر. ثم يترك لي الحيرة ويهملني.

وبشكل مدين قالت :

ــ وهل حتى أنت تهملين نفسك ؟!

ولم أجب. فتابعت هي :

ــ أبوك والاستاذ وغيرهما : لن يكون أي أحد سبيلك في مثل هاته القضايا.. أنت السبيل وأنت الوسيلة، وما تعثرين عليه هو ظفرك النهائي، فهل أنت بكل ما تمثلين لا تزالين تعيشين بفكرة أبيك وهروبية أستاذك !.

وفي ظلال الصمت اللامفكر، الصمت المأخوذ بحالته، أضافت :

ــ اسمعي ياهدى.. المهم الان هو أن تمسكي براحتك. فلم كل هذا الجريان خلف قضايا كهاته.. إنك لن ترجعي بنتيجة إن أنت لم تمهلي تعبك، خففي عن نفسك لتستطيعي أن تكوني قادرة على أي بحث، ومن بعد فكل قضاياك كانسانة ستحل.

فرددت مع أنني مأخوذة بعرضها :

ــ لكن أمامي الكثير.

فأجابت :

ـــ هو هو.. سيبقى الكثير من مثل هذا في كل الحالات.. في معرفتك أو تخبطك، شبابك أو هرمك : فهذه المعضلات لا تزداد الا امتدادا دون أن تتوقف عند حد، لنحس حلاوة النصر الأخير.

لم أضف. إنها بجانبي : تؤيد حسراتي ولا تتوقف عندها، من أجل أن تباشر مهارتها في التنفيذ، وذلك لاستخلاص وسيلة للعيش، مادام العيش حتمية منفذة. ولذ لي أن أزيد على سبيل الشكوى فحسب :

ـــ وهاته التعاسة الروحية التي أعاني منها ؟!

فردت باقتناع :

ـــ لتكن هي قضيتك الأولى.. حاولي الانفلات منها، لأنها لاتمثل أي حل، فهي مجرد كثافة ضبابية ترميك بعيدا حتى عن المواقف التي قد تكون مواقفك للحصول على فهم موضوعي للحياة والناس.

إن سلمى قد استطاعت أن تكون حيزا فكريا تتحصن بطبعها اللين لتنفيذه، فمع أنها تفهم.. تحس التعاسة نفسها.. الا أنها تغالب لتنفيذ تخطيط اعتقدته، لعلها تصادف أي رضى أو اقتناع.. وحينما رأت سحنتي المفكرة أمسكت بيدي وعرضت :

لنحاول أن نعيش، ولو أن هناك من يعتقد أن العيش هو ضريبة الانسان الفادحة أو فرصته الوحيدة.. اتركي هذا العناد وشاركيني.

ـــ وهل تكلموا ؟

ـــ إن فصول الدراسة عندنا خاضعة لصمت ثقيل أو ثرثرة غير مجدية، دون أن نحاول أن يموت الصمت ليطلع حوار جاد داخل تلك الفصول. ولقد تدخل آخر :

ـــ لو كانت بالنقط يا أستاذة فقد يضر ذاك بنجاحنا في آخر السنة.

وأجبت :

ـــ لو لم تكن بعوض، أي بالتقسيط، فسوف لا تتعرض التجربة لحمية المنافسة.

ـــ نعم.

أصوات عدة رددت نعم.

ـــ واذن ؟

وجاء صوت من الأخير :

ـــ ولكن هل نستطيع أن نفعل ذلك يا أستاذة ؟

ـــ ولم لا. انكم تستطيعون أن تباشروا طاقة الفعل المتوفرة في أذهانكم وأعضائكم المهم هو الخطوة الأولى لتجدوا أنفسكم أمام كثير من الامتيازات التي تختفي تحت كل رأس ووجه وحضور.

ـــ وهل سيحدث هذا في بقية الفصول ؟

ـــ أتمنى

وجاء صوت في هلع :

ـــ قد لا يفعلون، وتكون النتيجة في الأخير أحسن مما عندنا.

ـــ أبدا. سنجرب، وإن لم تعط التجربة ما يقنعكم أنتم، فسأضع الأمر من جديد للمناقشة لاختيار ما ترون.

انفتحت العيون أكثر، وحملقت في بما اعتقدت أنه الرضى. ومع ذلك سمعت :

ـــ وهل سنلقي ما في الأوراق، أي ما كتبناه، أم علينا أن نحفظه لنلقيه ؟.

ـــ لا لا، لا للحفظ ولا للسرد. إنني أريد مخاض الفكر.. أن تبحث وتجمع وتكتب ثم تتمكن مما بحثت عنه، لتقوم الذاكرة واللسان من بعد بدورهما.

ــ ولكن..

وفي (لكن) هاته كان خوف ما. الخوف فيها وفي الجلسة والنظرة والفصل والمؤسسة والمدينة والقطر والمنطقة والأمة ونحن خائفون وهل سيبقى حتى هؤلاء ؟!. جيل وجيل وأمة وانهزام. ومعركة صغيرة يجب أن تكون هنا. وكثير من الاشياء يجب أن تسقط فيها.

ــ انطلاقا من البعد عن كل (لكن)، وعن جميع الاستدراكات، من أجل البحث عن ثقة ما، أراها فيكم وأريدكم أنتم أن تروها أيضا، فإنني أقترح أيضا :

ــ يجب أن تتسجلوا جميعا في المكتبات العامة، ويوم الاثنين المقبل كهذا اليوم، سيصحب كل منكم بطاقة انتسابه مع الكتاب الأول الذي اخذه منها. ولسوف نأخذ ساعة في الأسبوع من الحصة الزمنية المخصصة للتاريخ والجغرافية، لتكون للمطالعة العامة. وأظن أن هاته وسيلة ما لمساعدتنا في التجربة البسيطة التي أريد أن تمنحكم القدرة على المجابهة والاحتكاك والتصدي والمشاركة والخلق.

ــ أنا مسجل يا أستاذة.

قالها أحدهم باعتداد، بينما علقت :

ــ حسن. والكل سيكون مثلك يوم الاثنين، حيث سأرى بطاقة الاشتراك والكتب المختارة عند الجميع).

* * *

وعشنا، أو هكذا خيل لسلمى فخيل لي.. فقسرا كنت أحاول أن أفك عني بعضا من الاقفال، وجاهدت لأن أرى أي شيء : الناس، البنايات، الحركة، جهد الانسان وكل ما صغر.

وكانت سلمى ترميني ذات الحين بنظرة تجهد لان تجعلها خرساء. ولكني مع ذلك أسمع ضجتها، فلكأنها تقول ما أحسه :

ـ لم كل هذا التآمر.. فبيني وبين الغبطة الحقيقية مسافات.

ومع ذلك كان يلذ لي، أن يسير عمري.. أن يسرع فهذا التأثير من سلمى يخدمني، ولهذا كنا نشارك في الحفلات الساهرة ونعبر الشوارع مع جماعة منتشية من الطلبة، ونقضي عطل الأسبوع في التنزه. وتخدع طبعها العفيف، فتجهد من أجلي بأن تأخذني لأي مكان. وكانت تراقبني باحتراس.. كأنها تريد أن تفجر في رجاء بعينه، دون أن تتركني أقع.

وكان أبي لا يفتأ يغمرني برسائله، من وقت ما تركته في مدينته، فهو يذكرني بالوعود التي لم أقطعها على نفسي، لأن أكون مسعى حياته النهائي.. فيجب أن أحترس، لاجعل هذا المسعى في مستوى عجرفته..

ولم تتدخل سلمى أبدا في ارتباطي بأبي، حتى عندما كانت رسالته الأخيرة تحملني مغبة هذا الصمت الذي التجأت إليه.. فهو يخاف أن يكون أي شيء قد أخذني، وكان يعرض علي نصائحه في احترام السمعة وتراث اسمه.

ولقد ركبني غيظ هام : فكيف يبيح لنفسه الحق في أن يكيل إلى نصائحه، فهل يريد أن يدفع بي لأن أكون مثله : أمثل العابد والصابىء في آن واحد، لأحفظ عليه سمعته. لكن هل حافظ هو عليها، هل كان شريفا من الداخل، أم كان المجتمع يفرض عليه ألا يتطابق مع نوازعه فيعيش كل حياته منفصما ؟. وقررت :

ـ لن أكون غير وجه صريح، يعيش حقيقته بوضوح، كالصغار.. كأولئك الذين أحببت تطابقهم مع ما يفرحهم.

وفي أعقاب قراري فكرت :

ـــ ليطمئن، فليست لي الآن أية حقيقة.

غير أن أيامي في استرسالها العادي، كانت تحمل تراجعا طريفا من سلمى.. فهي عكسي تماما، تتحفظ فيما يجب أن نشارك فيه، بينما كنت أنا أندفع، تحدوني رغبة في أن أعرف ماهي حقيقتي في هذا المضمار : أأنا أبي أم الصغار أم من أنا ؟. وكان الاحساس بالقصور يفاجئني وأنا أشهد عجزي عن الاندماج النهائي في السهرة أو المجون، فأقول : انني دون مستوى التجربة، فلن أستطيع أن أعود بنتيجة...

وفي الوقت الذي حاولت فيه أن أباشر قليلا من الانغماس، كانت سلمى بالمرصاد.. بصوتها بنظرتها بكل حضورها، فأتخاذل. وكم حاولت أن أنفلت، فهناك وجوه عدة، فيها النداء والرجاء واللامبالاة. وكانت هند، بضحكاتها العادية تنتقل من أحد إلى آخر، كجوع مزمن يتلقف اللقم من كل فم دون أن يتخم. وهناك غيرها.. جماعة من العَطشى : ليلى، محسن، محمد، سناء، فاطمة، ومن لا أعرف أسماءهم، انما أظل أرى وجوههم حتى في ظلمة الليل، وهي تعيش في الزوايا وتحت وقوف الاشجار، فأود لو أعرف كل اثنين منهما.. أي كائنين خاصين، وما قد يشيع من التحامهما الذي أرى استسلامهما له. ولكن سلمى، بكل ما تعنيه، تقف كالظل، بيني وبين الرغبة. وكنت أتبين قصد سلمى، لقد كانت تهدف لغرض، ولا تريدني أن أقع في غيره، دون أن تهتم بمخلفات رسالة أبي أو تدري أي أشياء قد أيقظها في تنبيه أب يتعقب النساء في اعوامه الأخيرة بنظرة فاتكة على مرأى من ابنته.

وتمنيت لو صادفت أية خطيئة.. فمن سأكون معها ؟.

إن ذلك ما استحوذ علي وسلمى هنا تقول بنفس صوتها :

ـــ بودي لونرحل.. فلقد تعبت من هذا الجو.

فغلبتني لهجة خائفة مفاجئة :

ــ نرحل إلى الأهل ؟!..

فقاطعتني بفهم :

ــ اليهم أو إلى أي مكان، المهم أن نستريح.

ورددت بلهجة بين التعجب والاستفسار :

ــ وإلى أين ؟

ــ إلى أي مكان تفضلينه أنت.

وكان صوتها مطمئنا إلى نفسه، لأنه يعرف ما يريد، وتعجبت :

ــ أنا ؟

ــ نعم.. لنروح قليلا عن أنفسنا.

فقلت بما يشبه الهروب :

ــ اختاري أنت.

قلت هذا، كأنني قد ارتأيت أنا نفسي أن نرحل. دون أن يكون ورائي أي رصيد آخر لتربية بعينها، ولنمط من الحياة برمته.. فلكأنني هي نفسها : سلمى، بذلك النموذج الحياتي الذي وفرته لها عائلتها.

ــ أنقضي بعض الأيام عند أخي في مراكش ؟.

وافقت على خطتها لأن تسحبني من التجربة التي رأت أنها تكاد تغمرني.. وسرت : رحلنا، أمنحها قيادي، لأن تقذفني إلى الناس وتسحبني منهم عند الضرورة، فلكأنها كما تمثلها بهاتة التصرفات المضبوطة : **وجودي الثاني.**

وأجهدت امكاناتها لأن تنفس عني.. وعملت أسرة أخيها الصغيرة لأن تجعل أيامنا معها أيام ترويح. وكنت في المقابل، أجهد نفسي في الضغط

عليها، لتقبل كل هاته الحفاوات.. ولكن، كان يغريني أكثر، لو عشنا بدون حذلقات مجتمعية، لو قذفنا بأيام من عمرنا في تسكع حر، لننسى أي شيء سوى أننا ضائعتان.. حرتان : لا نوجد. ولكن بين حالة وأخرى، ليس مثل هاته الرغبة ما كان يمسكني.. انه حنين خفي لمعانقة تهديد ما.. تجربة عنيفة، أو أي خطأ : فعلي أن أستخلص من أنا ؟. ومثل هذا الحنين المنبعث من ركن خفي في، لم أكن أعترف به لسلمى، فهو ما قد هربت بي منه. ظانة أن رحلة كهاته، ستعمل أي عمل.

وفي هاته الرحلة القصيرة، تسكعت في دروب المدينة وآثارها وما تمجده.. وبلغت لحظات من السهو لم تدم فلسنا بكل هذا التسكع المضبوط سوى النموذج المعاد، يسرق نفسه من رتابته، ليرمي بها كطفل ملول، يتفرج على البهلوانية المرتعشة بين جنبات هذا الكون. هكذا كان يخيل إلي ونحن نستطلع أسرار المدينة ومباهجها وفلكلورها. فكل بهلوان أو مغن أو راقص يحاول أن يفرج نفسه قبل أن يفرج غيره، يعلن حماقاته وضجره في صرخات غنائه وشطحات أقدامه ليجعل حتى الاخرين يمرحون أو يفهمون، بما فيهم نحن : سلمى وأنا.

ـــ في العالم أشياء كثيرة.

وهززت رأسي ولم أجب.

وحينما حانت عودتنا، تركت المدينة برأي :

ـــ الانسان كما هو هنا هو هناك، يلعب على حبله بغية أن يسلو أو ينسى.. لكن، ما الفائدة ؟!.

* * *

(قال سعد :

ـــ أسبوع كثير، أليس كذلك ؟.

ـ ولو. فخلاله باشرنا المقترح الأول. لقد خصصت لهم مرجعا موحدا للمادة، وطلبت منهم الشروع في تحضير الدروس من الكتاب المقرر وغيره إن أمكن، بشرط أن يكونوا حاضرين في الاسلوب والمادة والتطبيق.

ـ وكيف ؟

ـ كتابة التاريخ عندنا أغلبها محرف، لذلك يجب أن يبحثوا عن البطل الحقيقي في منجزات الماضي : عن الشعب العظيم، عن ذلك المارد الذي بنى والذي في استطاعته أن يبني باستمرار من خلال استقرائهم للأحداث والاشخاص.

ـ مهم.

ثم بدأت القيام بالدروس، وفي يد كل واحد قلم يسجل به الاضافات والاستنتاجات والوسائل والحركات مع الاستفسارات والملاحظات، ليطرح كل ذلك في آخر الدرس، حيث استغله للحديث عن طريق التدريس والاسلوب البيداغوجي وفوائد الابتكار حتى في الطريقة نفسها، من أجل تحريك الركود والالسنة والاطراف والجو العام للصف، بالاضافة إلى الجوانب التربوية أيضا.

وعمل هذا على توضيح الملامح المغربية في الدروس وطرقها وعلاقة الطالب بها وبالاستاذة، ومن ثم بالطلبة كلهم وبغيرهم من الناس والاشياء والحاجات والمسؤوليات. وحاولت أن أربط هذا الخط في الدروس بسير الحياة في الخارج فيما يجب لهم وعليهم، من أجل أن نكسر جدران الصف ليصبح الدرس كأنه في ساحة سوق أو داخل اجتماع سياسي أو نقابي أو ثقافي أو ضمن نظريات فكرية. فكل استفهام حول موضوع المادة أو

طريقة التدريس أو سلوكي أو حركاتي، كان يذهب بعيدا لأربطه بشيء ما من حياتنا : لنا أو ينقصنا.

وفي هذا الهجوم الذي بدأت به، كنت أفجر غيظا على كل شيء.. أشباه الاشياء التي تزيف حقيقة الشيء، في البيت في المدرسة والكلية والقطاعات الاقتصادية والسياسية والفنية والاجتماعية. فذاك النحيب الخجول الذي تولد عندي نتيجة الشعور بالانتساب واياهم إلى الزمن الميت، كان يدفعني إلى أن أصدهم بكل شيء.. بكل ما يقتلهم ويسالمونه، حتى السؤال .. أي سؤال، حينما يطرحه أحدهم بطريقة غير متقنة، كنت أستغله : لأربط ذلك بالمستوى الذهني، وحق الاستفسار، والتدرب عليه، واتقانه وكيفية استخدامه للهدم والبناء، وضرورته في تكوين الجماعة والفرد واستمرار الحياة وتطورها.

ــ وكيف تلقوا الهجوم ؟

ــ كنت مأخوذة بما أفعل، في يدي المادة : هم، وأنا غائبة فيها وفي أبعاد الفعل، يدفعني غضب وحب وكرامة وليدة، أثر الكرامة التي أهانتها القرون والانظمة والمعارك المهزومة وطرق العيش.

ومثل ذلك التدفق قد شدهم : ربطهم أولا بالجديد في صوتي وتفكيري والوسائل، وشيئا فشيئا وقفوا على أعتاب ما يشبه اليقظة.. فوجدوا أنفسهم في القول والفعل والهدف، ومن ثم سهل أهم شيء : لقد سهل البدء.

ــ بالنسبة للجميع ؟

ــ بالنسبة للشعبية الادبية بالخصوص)

* * *

وعلى أعتاب المدينة التي تقبع الجامعة في حضنها، انفتح بصري بغتة، فشاهدت لأول مرة جل ما فيها.. مبانيها والبحر.. أطرها الحكومية التي تستحوذ على قطر بأتمه.. شارعها العريض والانسكاب البشري المبرقش على جانبيه.. وكل ذلك الهدير الحياتي كيف تكتل بين هاته الشساعة المحدودة لمدينة ملول. وفكرت في عالمنا.. نحن الذين نخلقه : طلاب وطالبات الجامعة، كيف أننا هناك، يمكن أن نعيش على هوانا، بقيادات مختلفة : سلمى أو هند.

وسرني أن أذكر هندا بمثل هاته الزعامة، فلكأنها وسلمى تقفان على رأس خطين في شكل متواز. وفكرت في نفسي : هل أستحق أن تكون لي أنا أيضا زعامة ؟ لكنني تذكرت : إن عالمي حزين، يمتعض منه أستاذ الفلسفة ويقول : إنه مرض مجتمع غير هذا المجتمع. كما أنني لا أتطلع إلى نصاعة مبتذلة كهند، لأن ورائي الكثير.. مخلفات مدينة عريقة متجهمة، تزرع خطواتي بكل ما هو جدي...

لكن هذا الرأي نفسه لم يعمر، فلقد أحسست بدبيب طارىء يفجر في أعماقي شوقا طريا لهند، فهي عالم برمته، يعيش حياته بوضوح، ويعكس غيبا لا أنا أعرفه ولا سلمى فلم لا أطل من عينيها على ما تعرفه ؟، خصوصا وأنني ابنة الرجل المنحل الذي يحذر ابنة سوية.

وكنت أفكر :

ـــ ولكن، كيف أنجو من ترصد **ضميري الثاني** : سلمى ؟ فغيابنا لم يكن الا نقاهة قبل المرض، فكيف تراني الآن سألاحقه !.

وعلى ضوء هذا الاختيار، فكرت في حياتي ككل، بكل ما يهددها وما تخبئه، وقلت :

ـــ إنني فحسب، أعمل لأخلق في نفسي الرغبة في مواصلة الحياة.

ولازمني هدوء رخى مع هذا التبرير، وبحثت عن الوسيلة : سوف أحاول أن أعلم من هند، أي عالم تعيشه ؟

وبفضل هذا الاعتدال الذي وجدتني أمثله، اعتقدت سلمى أن حلولها نهائية، فلا بد أن يمر احتداد العمر مع الزمن وأن أنجو..

وكان هذا الاهتمام يمسكني إليها بتقدير. لكنه مع ذلك بدأ يوقظ عندي الرغبة في تجاوزه، فلقد أشعل أبي في أعماقي بتحذيره الفج، نوعا من التنمر، ووجدته يتواتر في كياني بتمهل ملحاح رغم أنه بطيء.

وبسبب هذا الذي أحمله، كنت عفويا أقع أحيانا على تصرفاتي : متوترة قانطة أو هادرة لا مبالية. وكان صوتي المنساب بلا تذوق يشدهني : فما معنى هاته الثرثرة ؟ ولكني لاأفتأ سائرة في سبيلها. والغريب أن كل ما أقوله أو أسمعه، كان أغليه لا يصدر عني أو يقع علي.. فهو يتعلق بالاخرى التي بدأت تلوح مني، بعيدة عن عراقة الذات التي طبعتني بها كل السنوات الماضية.

وكان صوتي رغم اعتياده، يلوح مزخوما بلهب لم أفلح اطلاقا في اخماده، فيعطي لكلماتي دفقا من حرارة، يجعل أغلبية الطلبة، النبهاء بالاخص، يتربعون حوله، ففيه لفحات احتراق يوهمهم بالدفء.

ومع أن «محسن» لم يكن يهتم بصوتي، لكن انتهاءه من تناول «وجبة دسمة» جعلته يتندر بكلماتي، ويعجب من العجب الرقيق الواضح على وجوه الاخرين.

ولا أخفي.. فمثل ذلك الأثر، كان يجعلني أحس بأنني أملك بعض الاهمية، وأن وجهي لن يجعلني مرفوضة بالتمام، وأن صوتي، أو شراراته، يكاد يكون تعويضا لي عن الكثير.

في هذا الوقت، كان حنقي على أبي يشتد، فهذا العالم الصغير : ما هو

خارجنا ومتعلق بنا، يدفع الانسان إلى الرغبة في اثارته.. الا أبي، فهو يتخفى عنه، يتستر دونه بعباءات غليظة من التسبيح والتجهم والترتيل الابكم ! فلم لا يعلن نفسه للناس : لكل الاخرين ؟.

ولكي أسفه اعتقاد أبي ووصاياته المرتابة، أقبلت بفضول على الاحتكاك بالغير. وكان يثيرني أن تتعانق نظرتي مع كل هاته العيون، وأن يصطدم صمتي العريق بكل هاته النبرات، وأن أحرق وحدتي في كل هذا التجمع.

وكانت هند في غياب محسن، تحضر. وكان حضورها في غيبته يعريها ويبعث في ظني من جديد، انها النموذج الاخر للزعامة.. لمن يطل بكليته على عالم خاص به. وكانت نظرات الطلبة تتقبل حضورها بتلهف، بينما هي تحتمي ببعض الدلال غير المتحفظ، وتركن إلى جانبي، بليونتها كالقطة المعطاء.. وتحاول أن ترتفع إلى مستوى الانصات، في حين أن نظرتها تتصيد من بينهم : الاروع.

كان هذا يحدث في غيبة سلمى. أما في حضورها فإنني أجدني قد عدت لما تفضله، فأحرم من ذلك التدفق الذي بدأت أرمي فيه بعض اللفحات. وكان اهتمام الزملاء يظل ينهمر حولنا بنفس الرغبة، لكن صرامتي الحائرة تربكهم.

واستطاعت هند، بكل ما تتقنه من تسلل، أن تتشبث بي، كأنني سأطلع في حياتها كقيمة معينة. ولكنها لم تدر أنها بالنسبة لي أيضا، تعني كشفا أود لو أحققه.

وركبني هوس لان أفهم، وتمنيت لو تم لقاء.. أي لقاء، في حضوري، بين هند وسلمى، لارى ما يمثلانه آنذاك.

وحينما كانت تماشيني، كنت أتساءل : هذا الجسد.. أي ألوان من التفجير والارتواء قد عرف ؟.

وكان ذلك يوقظني على جسدي.. هذا الذي قد يكون يحمل نفس استعدادات جسد هند. لكني لم أتيقن : فجسدى لن يكون غير شبيه بي.. يحمل لوعة كبيرة منذ البدء.

ولكني رأيت خمودة.. خمود جسد هند، وهو يتلقف في كفه يد محسن، حينما التقيناه صدفة ذات مرة.. فلكأن أية لحظة أو أيام أو متعة أو قطيعة لم تجمع بينهما !.. بينما كنت أنتظر أن يحصل أي شيء واضح، حينما يتقابل جسدان عرفا بعضهما في وقت ما.

ومثل هاته السلبية أشعرتني بأسى : ذلك أن أية مشاركة ليست أبدية، فالحكم الحقيقي للتفرد.

وحاولت أن أفهم نفسي أن هذا هو النمط المسيطر، فلن تنبعث حالة خارقة من جسد قابل آخر يعرفه، حتى ولو بنظرة تدله، كنظرة أبي.

وفضلت أن أسأل «هندا» عن ذلك، فكيف تتحول هاته الرهافة المعطاة إلى صخور كلسية !. وتفرست عيناها الخضراوان في، وقالت بلا اهتمام :

ــ وكيف يجب أن نتقابل ؟!

فلم أستطع أن أخفي :

بحسرة أو غضب أو شوق مثلا ؟

ــ ولكن كل ذلك لا يهم.

ــ وما هو المهم اذن ؟

ــ لا شيء فلقد انتهى كل منا من الاخر.. فلماذا يظل يحمل له كدرا أو تلهفا !

وألححت :

ــ لعل ما بينكما كان سطحيا ؟

ــ فاعتلى وجهها ظل خجول. ولكن صوتها بلغني :

ــ لماذا هو سطحي !.

ــ ثم أضافت :

ــ ليس هناك من سطحي أو عدمه.. إنها حالة وكفى.

ــ وماذا يعني الآن بالنسبة إليك ؟

فاستفهمتني :

ــ من ؟

ــ محسن

ــ يعني أي رجل في الشارع.. في مدينة أخرى.. في عالم كنت فيه ورحلت عنه.

وحاولت أن أتذكر أية صورة أخرى، لعلاقة تقوم بين رجل وامرأة.. ولكنني لم أكن ادخر أي رصيد. فدستور البيت كان يحرم الخوض في مثل هذا.. ومطالعاتي لا تطرح الا القضايا العويصة للانسان. ولذلك صدقتها، واعتقدت أنها سيدة مصيرها، مالكة جسدها وحاكمته، تعيش ما يهمها بلا تستر، وتقطعه بحسام بتار عند الضرورة، ثم تستأنف أيامها كما تريد، دون أن تفقد ما تملكه : فما زالت هي نفس الطالبة بكليةالاداب تلازم الحضور أكثر منا، وتجد أيضا لتماشي الركب.

وباستمرار، واصلت هند شروحها.. كانت تلقنني كل ما أجهله. فلقد طاب لها أن تملك جهالتي وتكون ربة محوها. ولكنني كنت أقشعر من كل ذلك الوضوح وتلك الانباء الضاجة بالفحش، حتى انني بعد ذلك، حينما كنت داخل الحي الجامعي تساءلت : أتراه في حقيقته، هذا الحي وكرا للخلاعة ! وفكرت : ولكنها، الخلاعة هاته، قد تكون طريق من لا طريق له.

ومن جديد، تذكرت أبي، فليست نظراته هينة علي، لأنني قد فهمت

مؤخرا ما تحمله وتريده. وقلت : لو كان هنا، لكان السيد الأول للحي، لأنه يحس سيادته الضمنية في دنيا النهمين.

وفي قاعة الدرس استمر هذا الشعور، فتوهمت : لو كان أبي في هاته القاعة، لجندل كل هذا الحضور الانثوي كدفعة أولى، ولانطلق يبحث عن أخريات، بعد أن يطبع على بصره نظرته المقعرة التي ترسل شواظ اللهفة.

آنذاك، وأنا أتصور أبي، بصولاته في هذا المكان الذي هو ميدانه، هدر في كياني انفجار.. فحملقت في الرقاب الشابة أمامي، وقرأت على انتصابها المغري كل المغامرات التي تحتضن.. وتمنيت آنذاك، في حالة بين الوضوح والتخفي، لو طبعت على أية قفا أساطير امرأة.. فأينما يكون صاحبها يحمل ميسمى، ما سطرته من همهمات أو لظى، لتبقى برهة من حياته، خاضعة لحضوري كل عمره.

ولاحت لي هند، كذلك الجبار الذي لفح جباها وأعناقا وقفا، وأخضع أياما من عمر هذا الشباب المهتاج لمعطيات امرأة. ثم تنبهت بعد أن دبت في الصف حركة أعقبت الحصة المنتهية. فهرعت كأنني أفر من حُلمي، بل من تنفيذه، لأبحث عن سلمى. ولكن جوابا قصف مسمعي :

— لم يحضر الاستاذ، ولقد خرجت هي وسعد.

«هي وسعد ؟!».

كيف ! في اللحظة الحرجة هي وسعد. وأهرب. مجرد أنثى هي أيضا، أهرب، لكنني أنا ؟ أهرب. الرقاب تهددني وبعد سلمى وسيطرة فئة هند. أهرب. بسبب رجل تركتني. أهرب. أقذف هيكلي باهتياج وبولولة الأنثى الوحيدة.. وأنتفض :

— إلى أين ؟

فرفعت نظرة وجلة، وكررت استفهام محسن باضطراب فصيح :

ـــ إلى أين ؟ ... إلى أين .. إلى ....

فقبض على معصمي وأعاد :

ـــ مالك ؟ إلى أين ؟

ـــ إلى اللامكان...

فعرض :

ـــ أأرافقك.؟

فاعترى بصري ارتعاش، كانت سلمى فيه ولكنها لم تكن هنا.. وكان قد قرر.

رافقني.. سار مع خطوى والتقط اهتياجي وسيطر عليه، ثم قاده، حشره بين جدران أربعة، وتمكن مَن أن يكون من هو.. وحينما وعيت، هالني أن أكون من أنا.. ذليلة ملتهبة، في حلقي شحنات لذة مريرة، وفي نفسي استفهام :

هذا الالتهاب الذي أوقده في.. ماهو ؟.

* * *

(ـــ ويوم الاثنين، ألم ينسوا بطاقات الانتساب ؟

ـــ لم أثر الموضوع داخل الاسبوع لأرى فعالية الصلة الجديدة بينهم وبيني، هل علي أن أدق على أبواب صماء أم أخرى ذات رجع ورنين ؟. وبالفعل، لم تكن غير استثناءات قليلة هي التي لم تفعل، نتيجة أعذار مقبولة إلى حد ما. وفي ذات اليوم، خصصنا ساعة للمطالعة العامة.

فتابع سعد استفساره :

ـــ في ذات اليوم ! ثم هل لك الحق الآن لأن تتصرفي هكذا ؟

ــ لو أنك تجرب ذلك أنت أيضا، فبابتكاراتك المنهجة، ستخضع كل الضوابط القاتلة في الفصول إلى غيرها : إلى مرونة وحركية ومسعى. قد تلاحظ : ولو حضر المفتش ؟. نعم، هذا اعتراض وجيه، ولكن انتظر. فما فعلته آنذاك، هو الشروع بتلهف في لحظة البدء نفسها. وآنذاك، حينما كانوا منكبين على المطالعة، كنت أمر بين الصفوف، وكل كتاب وجدته من جملة الكتب التي تغرق السوق، لاستهلاك مراهقة الجيل، كنت آخذه بلا ضجة إلى المكتب، لأشير لصاحبه أن يلحق بي، فأثير معه حوارا واضحا يفهم من بعده، أن عليه أن يحسن الانتقاء.

ــ وهل كانوا يفعلون ؟

ــ لن أستطيع أن أعطيك الجو الذي بدأ يحبك خيوطه بيننا : هم كمسعى، وبين الهدف الذي تفاهمنا عليه. لقد أصبح كل شيء يسير بنفسه، اذ تكفي الالتفاتة أو طريقة قول الكلمة أو التغيير الخفيف في الحركة، ليتلقف النبهاء كل ذلك، ثم يشيع بين الجميع، فيتحقق الغرض ضد شيء أو معه.

* * *

وانتصبت سلمى وهي تسأل :

ــ أين أنت ؟ لقد سألت عني ؟.

فهمهمت بلا افصاح، وتشاغلت عنها لأخفي وجهي. وكررت :

ــ هل احتجت إلي ؟

فاستطعت أن أعيد بجهد جاف يفصح عن ازدراء :

ــ احتجت إليك.

ــ ماذا بك ؟

فلم أتكلم. لكنها ألحت :

ــ لماذا أنت هكذا !

فاهتاج ما أحمله : ذنبي أو خلاصي، ووجدتني أرعد : أريد أن أكون لوحدي. وبدعة اقترحت :

ــ ليكن.. لكن الأولى أن تدخلي من الشارع.

وتركتني. فبقي لي حنق : لماذا فعلت ؟. فأنا الآن أمام ما فعلته.

وذكرني سيرها بشيء : ألم تخرج هي أيضا مع رجل ؟! ولكنها مع ذلك لا تحمل ما أحمله، لا في صوتها أو وجهها أو خطوتها، حتى لكأنها براءة أصيلة.

لكن أية براءة وأية أصالة هي ! إن ما يهمني الآن هي أمنية طارئة : فبودي لو سألت سلمى وهندا عن مخلفات أول لقاء لهما برجل ؟.

وبقية ساعات النهار، كانت نمنمات هائلة تسرح في جسمي لتتفجر، وكان يلاحقها هدير ندم جعلني في حاجة إلى رفقة سلمى بالاخص، لأن كل شيء، قد بدأ يسقطني في الذنب.

ومع ذلك لاح اليوم.. هذا اليوم بالخصوص، مشحونا بالحياة إلى درجة التفجر.. ففيه انغرس في جسدي لغم وعاملت سلمى بما يشبه الاستقلال.

وتنبهت :

إنها نفس الطرقات على الباب.. البطيئة في الأول، والمتلاحقة بعد حين. وفكرت ألا أفتح. لكن صوتها ذكرني بألفة ما. وحركت المفتاح، فلاحت سلمى وهو.. وقدمتنا لبعض.

فخنقني غيظ أبعدني عن التصرف اللازم. فهو، بكل ما يوحيه من اعتداد، من سحبها مني في البرهة الحاسمة. وقالت سلمى :

ـــ كيف أنت ؟ هل ارتحت قليلا ؟.

فتلعثمت : تفضلا.

ـــ من الاحسن لو ترافقينا في جولة.

ـــ أود أن أستريح.

فتدخل سعد، بلهجة وقورة تبعث على الحسد :

ـــ لن نسير كثيرا.. نختار أي مقهى قريب لو تشائين. وأطبق على تأدب صوته، بحيث أدركت بجلاء صرامة صوتي :

ـــ إلى فرصة أخرى.

ـــ حاولي أن تبعدي عنك العياء.

ـــ فرفضت، ثم فكرت :

ـــ هذان، إلى أين ذهبا ؟ إن اليقين في صوتهما وحركتهما يجرحني، فبودي لو بلغت أي مكان يقصدانه، لأشهد كيف ينهار ذلك اليقين في حمأة ما.

وقمت إلى الباب أغلقه، لكن حركة لا إرادية دفعتني لأن افتحه قليلا.. ومددت رأسي خارجا كأنني أنكب على العالم الذي هما الآن يصنعانه.. ثم ضربت الباب فانسد، وانتفضت في أعقاب صوت الباب المغلق ذكرى باتمها : تلك الأيام الأولى ونحن في الصغر، نلتقي ببعضنا.. هي الطفلة الصبوح، وأنا القزمة المحتدة، حيث كان منذ البدء كل أحد يعاملها بما تستأهله : لايلعب أحد معها الا اللعب الذي تفضل، ولا يستغرق أحد معها في حديث أو مرح أكثر مما تتحمل، كأنها تملك سرا يجعلها تسجل استحواذها على كل من تصادفه.. فخلال سنوات الدراسة الابتدائية والثانوية، لم أعرف أن تكون بلا تأثير مسيطر على قاعة الدرس، وكل من درسنا ترك لها هاته الهالة اختيارا أو اضطرارا.. حتى أنا، لم أستطع رغم

الرفقة الطويلة والعلاقة المتميزة، أن أفرض عليها صداقة غير هاته. فبتصرفاتها الموفقة، حققت نوعا من الجلال لا أستطيع الا أن أقبله... وها هو الآن وحده يجعلني أرتعش حينما أفكر أن لا شيء في عالمي غير سلمى وخطيئتي، فبصوتها الهادىء المشحون بالتهيب، تملك أن تحملني وزر أجيال من الخاطئات. وبعد استغراق ممتد حزين تساءلت :

ــ لكن لم اتتنى هي بسعد ؟.. الا يوقظ وجودي في ضميرها أية رعشة ؟ فهل أنا عاجزة عن أن أجعل ندما ما يندلع ؟ وأحسست كم أنا رخيصة.. أعاني الهوان بسبب رجل، بينما سلمى تتعرف على آخر في نفس الوقت ولا تخضع لهوان.

وعالجت نفسي :

ــ أنا وهي سواء.. فكل منا قد رافق رجلا في الوقت نفسه. فهي كأنا، أنثى، فلم أرهب فيها ما لا يرهب ؟ بينما تحشرني هي في اللاهتمام. ثم شنقت في صدري موكبا من الزفرات : فسعد ؟ هذا الرجل، يشكل بما رأيته فيه، اقتدارا لأن يسحب سلمى.

وحينما انتهيت إلى هذا التعادل، خيل إلي أنني ارتحت. فحاولت أن أتهيأ لعمل : كأن أتناول بعض الحلويات اليابسة، كانت في درج مكتبي الصغير.. وسرت إليه وأنا ألمس طرفا من شعري، أبعده إلى الخلف بحركة أنثوية مدللة.. فقد كان يتفجر عندي وهم نشيط : كم هو لذيذ أن يحس المرء بأنه ليس وحده، في ذنب أو فرح. وعندما لامست أصابعي عروة الدرج الصغير فكرت : خصوصا إذا كانت سلمى هي من تنفي هذا التفرد. ثم أتممت لمس الدرج والحلوى وفمي. ولكن حلقي كان في البعيد.. لا يتذوق ولا يطلب، فعلى جوانبه طلعت أشواك مريرة، كانت تلدغني وترميني في الغصة.

ومن جديد، سقط كل شيء.. كل ما في الحجرة الصغيرة وكل ما التقطه بصري في الأول. كل ذلك قد عام في ظل غامض لم يفلح تمعني في استكناه سمكه. وظللت على ذلك وقتا برمته.. حتى اذا انتبهت تساءلت : ماذا في كفي ؟. آه انها قطعة الحلوى التي توقفت عن قضمها. وحاولت أن أستعيد الدور، لكن يدي كانت كفكري وحسي وندمي : كل ذلك قد ارتحل. وزفرت وأنا أرمي رأسي وظهري على صدر الحائط المثلج، ثم وقعت في الاستغراق نفسه، دون أن أدري أين كانت عيناي ويداي وفكري ؟.

وحينما صحوت، صادفت عيني على الساعة الصغيرة، وهي تتم رحلتها عبر الثانية والنصف بعد منتصف الليل.. وفكرت : هل نمت ؟ وكان ظهري يوجعني. ثم تحاملت وأتيت بحركات اعتباطية في جوف الحجرة حيث وقعت على سؤال :

ــ من المسؤول الآن، رأسي أو نفسي ؟

وأجبت :

ــ لعله الآن جسدي.

* * *

(وأتذكر، كيف أنهم احتضنوا التجربة باندفاع عمرهم، حتى أنهم قد بدأوا يلاحقون الحافلة التي أحضر فيها عادة، ليركبها أكثر عدد منهم، فيتابعوا ردود فعلي تجاه التصرفات والاحاديث والفهم العام لكل الظواهر، ومن ثم ليربطوا بين طريقتنا داخل الصف وأبعادها، وبين الخارج.

واندفعوا أكثر، حينما بدأت الاحاديث تتصل بيننا في الحافلة نفسها، فأخذوا يعرضون علي نقدهم السريع والجريء للمظاهر العامة التي بدأوا يستيقظون على غشها، ويربطون السبب

بالمسبب ويوجهون الاتهامات بشكل موفق، خصوصا وقد كنت قد طلبت منهم أن يطالعوا الجرائد ويستمعوا إلى الاذاعات ليروا ويسمعوا العالم كيف يحاور. ولأنهم في عمر التحدي، فقد أخذوا يثيرون المواضيع الحساسة التي أثارتها قراءاتهم للصحافة، وكم استاءوا حينما نبهتهم إلى أن الحكمة تقتضي السكوت هنا. فواجهني أحدهم :

ــ ألا تريدين أن تجعلي منا أناسا بألسنة ؟!.

ــ ولكن التهور لا يبنى، فمراقب الحافلة والجابي عميلان رسميان. كل هذا من أجل قطع الالسنة التي تحاول أن تنبت.

واعترض محمود :

ــ لكنهم يقولون : إنهم يخدمون الطلبة. وكما علمت يا أستاذة فانهم أقاموا حفلا خاصا بالطلبة في نادي الضباط وخصصوا منحة للمتفوقين منهم.

ملاحظة في محلها. ولكني كنت أريد ألا يقع حتى هذا الطالب نفسه في الانشوطة. لهذا تمتمت : «نعم !» بشكل له معنى. فجاء رد الفعل سريعا من الطالب عمر :

ــ ولكنهم بذلك، يريدون أن يقطعوا ألسنتهم أيضا بهاته الوسيلة.

فصرحت بالاستفهام نفسه :

ــ أليس كذلك يا محمود ؟.

ثم شرعنا في الدرس.

فاستفسر سعد :

ــ درس الطلبة أو درس الاستاذة ؟.

ـــ الطلبة.

ـــ وكيف ابتدأت ؟

كنت مسبقا قد وضعت الأمر للاختيار حيث سألت :

ـــ من يتكفل بالدروس أولا ؟

ولقد ارتفعت حوالي عشرة أصابع. ومن بينها اخترت إحداها. الثقة والبهجة والتحدي قد بدأت تطل من شقوق الجب. وكم هو مريح أن تضع قدمك على شيء صلب. والصغار كبار في عرف من يفهم. والذين يؤبدون الرجال في القماط لا يقتلون إلا أنفسهم، وهاته الهمم لن تموت).

* * *

وفي الصباح كان الليل قد استغرق هموم النهار. ووجدتني أفكر بخفة، كجذل أو نشوة :

ـــ كل ما حدث كان وليد نفسه : غابت سلمى، وضعت أنا، وتهيأ محسن، فسار كل شيء كأنه تخطيط محكم. لكن الآن سيكون ما سأختاره، ولن أنتظر مصادفة بعد.

وتعجبت سلمى : كيف أعقب هذا التدفق الحركي انهياري السابق ؟!. أما أنا، فقد كنت أجد نفسي فيها : فلن تستطيع قط أن تدينني، فنحن سواء، والبقية لا تهم.

وتابعت نهجي.. فأصبح بصر سلمى يتضخم بركام من الصمت القاسي، ولكني كنت أجيب على ما ألمحه فيها، بالصمت نفسه : أنا كأنت كالجميع، علينا أن نتصرف، أن نخوض المذلات واللاجدوى لنوزع الأنا.. نشتتها، فنخفف من حدة الاشكال ما دمنا لم نستطع أن نحقق أي تلاؤم.

ولعلها قد تجاهلت ما تفهمه، حينما عرضت علي، وبصرها لازال يحمل متاعبه :

ـــ قد نرحل من جديد يا هدى.

وكان بصري متماسكا هاته المرة وأنا أثبته فيها وأسحبه دون أن أجيب. فتابعت :

ـــ ستكون رحلتنا بلا تصميم.. إنها مجرد راحة ضائعة كما كنت تفضلين.

ولم أتحرك.

ـــ أنرحل غدا. ايه.. فهذا أحسن ؟.

غير أن صوتي صدمها :

ـــ إنني أفضل المكوث.

فاكتسى وجهها تعجب مباغث وهي تستفسر :

ـــ ولم ؟..

لكن الخوف من الجواب الذي تعرفه، جعلها تغيره لتعرض :

ـــ طيب.. قد تكون رفقتي غير مرغوب فيها الآن، فارحلي لوحدك.. عيشي الايام الحرة الضائعة التي تفضلين «ثم بعد صمت» وقد نرحل معا من بعد.

ولكن خوفها ولفها المكشوف، بعثا في نفسي الرغبة في الوضوح، من أجلها.. من أجل ألا تكون أبي، وقلت بلهجة عتاب :

ـــ انك تفهمين في كل تغيراتي الطفيفة، فبالاحرى غيرها !.

وداورت فهمها أيضا : لقد كانت تستصعب أن تتقبلني كما أصبحت.. فهي تريد في الاخرى.. تحن إليها وتود استرجاعها.. أما أنا، فلم يكن لي ما أتذكره أو أتحسر عليه : فليس هناك.. لي.. غير نظرات أبي وتحجر المدينة. وقالت :

ـــ كل شيء يمكن استدراكه.. المهم أن يسل الانسان نفسه مما يهدده، فلعله يسيطر أكثر.

فسرني أنها قد باشرت الموضوع، لذلك أفصحت :

ـــ كان ذلك من قبل.. أما الآن فلا.. انني أنفذ ما أختاره، وان لم أفعل، فلا أدري إلى أين سأمضي ؟.

ولم تهادني :

ـــ هناك غير هذا.. عهدي بك لا تقفين عند الاعتياد. فأكدت :

ـــ من طبيعتي أن أتجاوز غلاف الاشياء، وحتى الآن لن أقف عندها. فامتقع لونها : ولكن هناك أشياء أخرى.. ما هو أكثر راحة وجدوى.

في بصري ارتباك ولو أنه يتوغل في امتقاعها. وبينما كانت هي مأخوذة بهاته العروض، كنت أفكر : وهذا الفيض الجسماني كيف أستنفذه ؟! ثم تابعت بهدوء، محاولة أن تبعث رأس أي خيط :

ـــ ان سعدا يفكر كثيرا.. ترى لو أننا فعلنا شيئا هو ونحن : وتذكرت، فلم أملك الا أن رددت بانسحاق متألم :

ـــ سعدك !.. آه وزفرت.

فصدمتني نظرتها الجاحظة :

ـــ ماذا ؟ سعد، ولماذا ؟

وتعمق صوتي .. فلقد كنت أفكر فيها : فيما تمثله وما يعني أن أخسرها : أن يستلها ذلك «السعد» من لحظة هادرة في عمري.

ـــ هدى.. لماذا تحملين كل هذا الغيظ ولا أفهمه ؟. وتدهور صمتي :

ـــ لماذا ينبعث هذا «السعد» ليعطي لتلك اللحظة مستقبلها ؟!

ـــ لكن ما معنى هذا ؟

فأجبت كمن يهذر :

ـــ معناه إنه أسهم في أن يعطي لحياتي بعض الخطوط. بصراحة، إنني لم أكون عنها بعد وجهة نظر، ولكنك أنت تكرهينها، تنظرين إليها من عل.. وسعدك هذا هو من رماني في القعر، حتى اذا حاولت الاتصال بي انكببت علي.. أفهمت !.

سألتها بصراخ فدهشت :

ـــ لكن كيف يمكن أن يفعل هو ذاك ؟!

فأكدت لها :

ـــ لأنه قد سحبك في اللحظة الحرجة.

فردت بدفاع :

ـــ ولكنه لم يكن يعلم.

وبذات اللهجة قلت :

ـــ ولا أنا أيضا كنت أعلم.

وبعد صمت جد قصير، استفسرت بنبرة خافتة وبشكل شارد : ومن كان يعلم !.

ثم انتفضت وهي تتمعن في وأنا أرد بقسوة : وهل هناك من يعلم !.

وحينما ظلت في السكوت رميت غضبي، لأنه كان هامشيا فقط، ووددت لو ضممنا رأسينا لبعض، وتوحدنا في نوبة نحيب.. كغرباء، كيتامى، كمنفذين فحسب لأحكام مسبقة.. كعاجزين نهائيا : كالناس جميعا.

ونبهني صوتها :

ـــ يصعب على أن تكون بعض المصائر البشرية هكذا.. ضحية اللحظات العابرة فحسب، مع أن الاختيار هو الاساس.

وتابعت سلمى تعيش حياة صحيحة، وتغمر الاشياء بفيضها وتستثمر الوقت عوض أن تقتله : مثلي، خصوصا وأن حالاتي الساهمة، قابلة لأن تسحق الاشياء في بصري.. فأرتمي في نفي كبير، لا يبقى لي أي أحد سوى محسن، بوجهه الطفلي الصلد، الذي يشدني إلى موعده، إلى البسمة الكبيرة اللماعة التي تخصني : إلى الرعشة الخفيفة التي تطبق على جفنيه وهو يتمعن في حضوري، إلى الظواهر التي يحاول أن يربطني إليها متى حضر..

وكنت أستغرب

هل محسن.. ذلك الآدمي الذي هو نفسه في الجمود، يستطيع أن يوقظ في إدراكي كل الاشياء ؟ لألمح الشجرة والمدى الأخرس وحبات المطر المفاجىء، رغم أنني أظل قابعة في نفيي.

وأخيرا كنت أهرع إلى تبرير :

ــ أليس هذا الحدث، حلقة في سلسلة العمر الذي أمثله ؟.

وكان محسن.. بحمى الامتلاك في عروقه، وحاجته العاتية إلى امرأة، وحكايا هند وما تمثله.. يجعلني أقول :

ــ ما العالم ؟ أليس سوى اباحية بنقاب ؟.

وكان ذلك يوقظ في ألما : فهذا العالم، ما له ؟ لم يستتر ؟ حتى اذا انكشف كان وجها عاهرا..

وذلك ما كان يوقظ عندي عالم سلمى.. أتفحصه بشراهة، بوحشة أنثى يحاصرها شواظ. لكنني وبعد تهويمي النافر، أتمثلها : سلمى، بكل ما قد تكونه، تعيد النكتتة : نفس حياة الصالحين، فماذا فعلوا ؟!. إن ذلك هو المؤسف.. فتراكم الضغط الغيبي الغامض لا يزداد إلا رسوخا..

وحينما يلوح لي حتى هذا الجهد المبذول من أمثال سلمى بلا جدوى.. فهو لا يعالج المشكل في الصميم.. إنه ليس إلا تفجيرا للالم والبكاء في جهد،

أو احتراسه بجرعة لافحة كما أفعل حينما ألتجىء إلى محسن.. فإنني أزداد احتماء به، لأنه جرعتي الفظة القاسية التي لا أملك غيرها.

* * *

(وبالطبع، فلقد اخترت من رأيته أكثر قدرة من غيره على البدء.

فاستفسر سعد :

ـ وهل استطعت أن تختاري وأنت لست معهم غير شهر ؟!

ـ نسيت أن أخبرك أنني قد درست أغلبهم فيما سبق، ولهذا كنت أملك وجهة نظر ما، تجاه بعضهم.

ـ لو تسمحين فمنذ مدة وأنا أتساءل :

ـ لماذا لم تقومي بتحقيق هاته الطريقة معهم من قبل ؟.

ـ هناك أسباب شخصية وموضوعية : ذلك أنني كنت وقد لاأزال أبحث في جذور الاشياء والعلاقات والمفاهيم والاحداث. فكل ما هو كائن، كان في عالم آخر، وكنت بكل الوسائل أحاول أن ألتقي به، ولكن طبيعة البحث الشرس في عقلي، كان يمحق كل ذلك عندما يخضعه لمحك الشك. لكن الدوران الجنوني بعد الهزيمة، هزيمة يونيو، بحثا عن الذات والاخرين، جعلتني أفك القيود وأرمي بثقلي في ميدان غير سابح، وكانت علاقتي بالتدريس آنذاك غير متينة، إذ كنت أريد أن أحقق وجودي في غيره. وبطبيعتي الثائرة، رفضت أي جبر اداري في المصير، ولم يكن التدريس آنذاك عندي سوى الصورة التي بوشرت على : تضييق وخنق واجترار لكلمات ولحقائق عافها الزمن.

ثم السماسرة، الموظفون الكبار، أولئك الذين كانوا يبيعون المراكز والترسيم للاساتذة، أما الاستاذات فالثمن شيء آخر !

ويا ويل من اختاروه للاداء من جيبه أو كرامته أو شرفه، وكان محتاجا اليهم، ولم يدفع.

لقد كان كل ذلك يمثل عندي سقوطا أليما. وكان رجال التعليم، أو أغلبهم بالخصوص، يدخلون الاقسام، ليستطيعوا أن يقبضوا في آخر الشهر من أجل أن يستردوا الثمن الذي دفعوه. وقلة قليلة هي التي كانت لا تخضع لهذا النهج، حيث لا يمكن فتح باب المساومة معها. ولقد دفعني مثل هذا لأن أفكر مرة : لم هذا الهروب من التدريس ؟ فلم لا أحاول المساهمة في خلق جيل ينحي أمثال هؤلاء عن الطريق ؟.

غير أن التدريس، لم يستطع آنذاك أن يقنعني بجدارته، لقد كنت مملوءة بصراخ ضد العفونة التاريخية والسياسية والاجتماعية عموما، وكنت أريد أن أفجره فيما هو أعم.. لكن شيئا فشيئا، أخذت الوجوه على الكراسي تناديني خصوصا حينما تحررت من أية سيطرة خارجية : التفتيش والمادة وحتى طرق التدريس.

وبصراحة، فإن ما أقنعني بقدرتي على خلق جدوى في التدريس، هو احتكاكي المستمر بواقع الاحداث : فليس هناك من حياة ما : إن كل شيء يسقط في العدم، ليقوم الشبح يحاورنا، كأننا فقدنا كرامة أننا نوجد، وانما مجرد أخيلة عليها أن تتلقى، أن تمثل وتصفق وتضحك وتحنى الرقاب.

وحققت زيارتي للشرق العربي ثم للشرق الاقصى، التصاقي التام بهاته الوسيلة.. فتلك النكبة، هي نكبة الزيف، الذي لازال هو كل شيء.. نكبة الحركة المغشوشة التي لم تحقق بعث شريان الحياة الجماعي لتلك المنطقة ولهاته.

وإلام المفر ؟.. أليس علينا أن نصارع النكبة، كل بوسائله..

بهذا الجهاد الصغير الذي لو تكرر، فإن البذرة الواحدة تعطي مائة حبة وأكثر : فأن تكون «فتح» هناك.. فيجب أن تكون أيضا في ذهن ويد ويوم كل واحد يعي النكبة القائمة في كل مشروع واعلام وتخطيط وبيع لنا كقرود في سوق المساومات الدولية.

إكتسى وجهها غيظا وتابعت : فشخصيتنا.. ذلك الكيان الذي تنطلق أو تنمحي بسببه كل الاشياء، هو ما ينقصنا، وهو ما أحاول العثور عليه على الاقل مع الطلبة.. ومن بعد، فكل واحد من هؤلاء سوف يمد جذوره إلى الابعد، في تنظيم أجدى، خصوصا إذا تكونت لديه جذور نظرية منطلقة من واقعه واحتياجات هذا الواقع.

غيرت الاستاذة جلستها، وهي تضيف :

إنني أتذكر : فذات مساء فتحت حوارا مع طلبة أحد الاقسام، وكان يدور حول وداع كل واحد منا ليومه. فلاحظ أحد الطلبة، من الذين كانوا في اللائحة السوداء بالمؤسسة : أستطيع أن أؤكد يا أستاذة، أننا جميعا مجرد حيوانات. قال ذلك بلهجة نكدة إلى حد كبير، فحاولت معالجته : إن فهم الواقع هو بداية الطريق. ولقد تعقبته مرارا، حيث أصبح من الذين يجدون أكثر.

وفي غيرة، قال أحد الطلبة، وهو من نواحي بنى ملال : إن الرجال عندنا يظنون أن فلسطين امرأة قد اغتصبها اليهود. فأمسكت به : ومسؤوليتك أنت ؟ كيف أنك تبقي حقيقة ما، مع كل الحقائق الاخرى في قبر، لماذا لا ترد للقرية جميلها، في حين أنك تدرس وتتكون من عطائها : فأنت ممثلها.. ذهنها الذي

جاء للتعلم، ليرد لها الوجه الحقيقي للاشياء والمسميات، أما أن تكون من جملة من يدرس ليتكبر، ثم يستقر في المدن، فانه مجرد سارق.. وهاته السرقة هي ماأنتم وهم ونحن ضحية لها في كل المجالات، فكيف يكون أي أحد منكم يحاول أن يباشرها بشكل من الاشكال !.

وهمهم الطالب : سأحاول أن أشرح لهم أنها ليست امرأة.

فأضفت : إن ذلك لا يكفي.. فأن أدفعك بنفسي لأن تشرح شيئا تعرفه وتسمع غيره، معناه : أنك في حاجة إلى دافع.. إلى رأس آخر غير رأسك، ولسان وعينين وجهد ورفض وهدف أساسا يجب أن تكون لك. فكما قلت لكم وأقول : سوف أزول من حياتكم ككل.. ليطلع في كل واحد منكم آخر أكثر غضبا وفهما وعملا.

وشيئا فشيئا، أصبحت أتحسس صلة طلبة البادية بقراهم، لأن طالب بني ملال، فتح عيني على قضية أهملت الاهتمام بها من قبل. وبين الحين والحين، كنت أطرق الموضوع مباشرة، خصوصا بعد العطل داخل السنة. فمثلا :

— كيف قضوا العطلة ؟ بمن اتصلوا ؟ ما هو أهم موضوع يشغل القرية ؟ فيردون : ظلم الحاكم. الوسائل البدائية في الزراعة. الضرائب. قلة الشغل. الهجرة إلى المدن. استيلاء أثرياء المدن على الارض. قلة المدارس وهكذا..)

* * *

وسعت إلى رسالة من أبي.. كان فيها يلملم بقايا صولته ليأمر : أن تصرفك لا يليق بابنة لي.. فلا زلت أسأل : ما معنى ألا تحضري في العطلة،

فحتى لو كانت الدراسة مرهقة كما تقولين وكما قد تكون، فإن فضلة من الوقت تبقى لك لزيارتنا. ولو أنني لا أعاني هاته الأيام من توعك ملازم لكنت قد أقبلت بنفسي. غير أنني لن أفعل لأن بي غضبا على تصرفاتك.. يجب أن تحضري في العطلة المقبلة القريبة.. والا.. هذا ولا يفوتني أن أنبهك : يجب أن تكوني ابنة لأبيك.. لابد وأن تفهمي ما معنى ذلك.. اخرصي. أبوك.

وخامرني نوع من الاهتياج.. لكنّني ابتسمت : إنه يقوم بنوع من التحريض.. ألست ابنة أبيك.

لكن أيضا : ألست ابنة عصري...

وعثرت سلمى على ابتسامي فرأيت أن أشرح لها :

إن أبي كدأبه يتعهدني بانذاراته.

فاستفهمتني بلهجة معينة كأنها تنبذ ما قلته لها وتتقصد غيره :

ــ ماذا ؟.

ــ يلح علي أن أزورهم في العطلة المقبلة.

ــ ضروري

ــ ليس هناك الا ما نحتاجه.. ولست الان في حاجة لهاته الزيارة.

فقالت بلهجة نافرة.

ــ بأي منطق تتحدثين ؟!

فرددت :

ــ بمنطق العصر.

ــ قولي على الأقل : بمنطقي ، فالعصر لا يمثل منطقك.. ان فيه لو أنت تعلمين كثيرا غيره.

تقبلت هاته اللهجة فلقد أصبحت سلمى تقع فيها أحيانا. وأجبت :

ــ ولماذا ؟. أليس هذا ما أفضله الآن ؟

ــ والآخرون ؟.. إن هناك غيرنا. آباؤنا وبقية الناس.. ولايحق لنا أن نتلاعب بهذا الغير.

فانبريت باحتجاج :

ــ ولكني لا أمس أحدا، فأنا لا أتعدى شخصي.

ولم تتراجع :

ــ ولكن كل تصرف، يشكل مع غيره، التصرف العام.

فقلت باحتداد :

ــ ومالي أنا ولمفاهيم مجتمع يتبجح كثيرا، فهو يعيش عهارته وينادي بالطهارة.. يجب أن يدين نفسه أو يطهرها قبل أن يتكلم.. قبل أن يكون هناك رأي عام يستطيع أن يدين.

فجابهتني :

إنه لا يعطي أية ظاهرة من ذات نفسه، ولكنه فحسب، يعكس ما نحن عليه. فأجبت :

ــ أو بعضنا يعكس ما هو عليه : عيوبه المتسترة ومثالبه في الخفاء.

فتورطت في غضبها، وصاحت بي :

ــ مالك أنت.. ما كل هذا ؟

ووجدتني أتراجع، أن صيحتها تعريني وتكشف أعماقي :

ــ اسمعي يا سلمى، لا تنزعجي، فأنا لا أملك فكرة الشر تجاه أي أحد، إنني لن أفكر أبدا في أن أزيد في عذابات الانسان. فقط، إنني أعاني وذلك هو ما يخلق لي نوعا من الاخطاء.

وحينما لمحت الهدوء يلمس غضبها ازددت هدرا :

ـــ إنني أحمل عمري.. وكم تبدو لي الرحلة طويلة، على أن أقطعها بلا فهم نهائي أو يقين أو سكون. واحساسي بذلك... بهذا العمر الفارغ وهو يتمطط، يصعقني بفكرة أنني سأظل أحمله.. أوصله إلى محطة أخرى ليأخذه غيري.

واستعادت ملامحها طبيعتها وهي تقول :

ـــ كل يحمل عمره.. ينوء به ويعمل ليؤدي به دوره.. ولا مفر.. فلماذا تعيشين أنت المشاكل الحرجة برمتها ؟!.

فقلت :

ـــ ولكن كيف ؟! أنت مثلا، تتشبثين عن طريق النهج الذي تمثلينه، بما قد يجعل العيش بالنسبة اليك ممكنا.. لكني أنا، فبودي لو تخلصت منه.

وسربلتني باهتمام :

ـــ لكن هناك غير هاته الحلول.

فرفضت :

ـــ وهي أيضا، هذا الذي أنا فيه.. هو ما أعيشه.

فردت بتجاهل، كأنها تنفيه من أن يثبت.. تفرض عليه استحالة الالتصاق بي :

ـــ كيف ! ما هو ؟.

فاستقمت وباشرت الموضوع بوضوح أكثر.. فليس هناك ما يستحق القداسة. وإن لحظة الاختيار قد مضت. وما وقع هو واقع.. وقلت :

ـــ أليست كل منا تباشر الحب نفسه، باختلاف بسيط في النظرة ؟.

وباستغراب قربت صوتها الي :

ـــ الحب ! ما موضعه هنا ؟!

فأصررت :

ـــ لأننا نعيشه.

ـــ فامتقعت :

ـــ وهل تزعمين أنك تعيشين أي حب ؟!

ـــ ولم لا ؟..

فاستهزأت :

ـــ ليس هو ما تتوهمين.

وبين الحنق والارتباك، وجدتني أرد :

ـــ عهدي بك يا سلمى تتحصنين من كل وهم، فإذا بك بهذا الرأي تسقطين في واحد منه.

ـــ ليس هناك من سقوط. وإنما هناك مفارقات موضوعية.

ـــ بل ليس هناك غير الوجه البيولوجي للعلاقة، أما رأيك فهو مجرد تغليف لها، خصوصا وأن الانسان في بدئه حينما كان خارج الأوهام، كان يعيش واقع الدافع البيولوجي بوضوح.

واعتدلت :

ـــ لكن مرحلة البداوة في عمر الانسان انتهت، والتطور التدريجي أثمر في تكوينه عواطف معينة.

فرفضت :

ـــ بل أثمر تعقيدات أخرى، ذات طبيعة عاطفية لم يعد العصر يتحملها. ثم ما أدراك أن الانسان في هاته المسألة يسترد ماضيه.. يسير نحو توحشه الغابوي.. وهو لن يفعل أحسن من ذلك، حينما تموت كل الاستفهامات الساحقة التي أطمرتها مرحلة التوحش.

ـــ كأنك لا ترتبطين الا بما هو قاتل.

فصرخت :

ـــ انك تكادين تتشبهين بأبي، يعيش الجنس كضرورة دون أن يعترف، لأنه يريد أن يحتفظ له بلبوس السرية المجانية.

فلاينت :

ـــ هناك الرأي العام ياهدى كما سبق أن قلت.

ـــ وهنا أيضا ضرورة اللعب على النفس، وهذه أيضا احدى الوسائل كما قلت.

وبعد تفكير أضفت :

ـــ ولكن القضاء على كل شيء.. على هاته القيمة نفسها، يزيد في رمي الانسان في فراغ أوسع. وأنت نفسك تسهمين في جعل الحياة صحراء، حينما تقتلين كل شيء، حتى هذا المرهم اللذيذ، إنني لا أدافع عن شيء فبودي لو تأخذ الاشياء شخصيتها عندي، لأستطيع من بعد، أن أكون مع أوضد. إنما الان، أريد أن أقفز على الحلقات.. بأية وسيلة، دون أن تهمني المسميات.

أتت بحركة محتجة قبل أن تقول بانفعال : دائما إلى السجن والجهل واللامعنى !

* * *

زادني اعتراض سلمى حرصا على أن أعتقد رأيي : انها غير أنا.. ظروفها متميزة، وقد يكون ذلك قد خلق لها نوعا من الآراء كهاته، أو قد يكون جمالها يوهمها بأن تبرقش الحب بزخرفات من الكلمات الحلوة والتفسيرات الرومانسية وغير ذلك مما لاأحس به. ولو كانت تدري ما معنى أن تجد أنثى وجها قبيحا لا يستأنس به، ومع ذلك تجد رجلا.. لا، فقط تصادفه، تلمع في عينيه لها نفس ابتسامة لأية امرأة أخرى : وسيمة. كل هذا، جعلني أميل لهند.. فهي لا تسحقني بأفكارها أو اختياراتها.. ولكنها تتقبل الفرضيات بلا أذيال وتعيشها : فبيننا نوع من التوافق.

وفكرت في أنني لو تقربت إليها خطوة، لتناست ماتؤاخذني عليه من علاقتي بمحسن، ولجرت إليَّ : ففي طبيعتها سطحية محببة.

وكنت أعتقد : أنها وحدها من تدعم رأيي، ومن تمنحني حصانة ضد غطرسة آراء سلمى، فوددت لو مدحتها آذان نفسي لتخرس فيها اعتداد صوت سلمى، ولتغرقني بمعلوماتها الضاجة، فأنجو...

ونفيت حصانتي.. وكانت هي لا تحتاج إلا إلى لمس خفيف لتحيطني بكثير من التهريج :

ــ فلانة لها علاقة بفلان

ــ وذاك يتعقب هاته

ــ والاخرى تود لو كانت تتصل بذاك.

ثم سألتني :

ــ محسن.. كيف هو ؟

ــ فقلت بلا رضى :

ــ بخير، كما ترينه.

ثم سألتها بدوري بعد أن ترددت بخجل :

ــ ألا أسألك يا هند.. ايه.. اسمحي لي..

ــ عماذا ؟

وحينما ترددت، تفحصتني :

ــ مالك ؟ ماذا تريدين ؟

فقلت، وكانت نبرة ما، من صوت سلمى في استفهامي :

ــ أخبريني.. كل صديقاتك، ألا يسألن أنفسهن لماذا يربطن علاقات بزملائهن ؟ ما سبب ذلك وما دوافعه ؟

وتريثت قبل أن تندفع متعجبة :

ــ ما السبب ؟، لاشيء، فقط، لأنهن يردن.

فكررت : فقط ؟

ــ وماذا يكون أكثر من ذلك !

فألححت :

ــ أي شيء آخر ؟

فحركت حاجبيها إلى الاعلى، وتكلمت، كأنها تأتيني بهذا الشيء الاخر :

ــ ألسنا شابات ؟!

ــ آه !...

صحت ولم أصمت :

ــ فهل الشباب وحده، يعتبر مبررا لمثل هذا وكفى !.

ولم أكن لأقبل هذا التفسير : فمن يقبل شبابه يقبل حياته.. ومن يقبل حياته يتصرف بها بجدية.

ثم وجدتني أفكر في سلمى بوضوح : فهي مثلي، لاتتقبل الحياة بتسليم جاف.. ولكنها عكسي تماما، فهي تنهضها.. تلمس ثنايا أعطافها المستورة باهتمام هادف، وتفضل أن تتحاور معها من أجل البديل.. بينما هؤلاء ؟ فهن لا يتقبلن شيئا ولا يرفضنه ولا يشاركن فيه، وإنما ينغمس بلا اقتناع أو فهم، في قتله.

«وإذا فهل تكون سلمى بطلة ؟».

وكدت أقرر : نعم ــ اذ لاحكم آخر.. فأنا أرفض الحياة وأنشغل عنها.. وأولئك لا يوجدن فيها..وسلمى لعلها وجدت معناها.. وهي تحاول أن تتفاعل معه ؟.

وفي غمرة هاته الافكار .. فاتني ما كانت هند تقوله، وكان لابد أن أتكلم :

ـــ شخصيا لن أقبل الشباب كمبرر.

فضيقت علي :

ـــ واذن.. فماهو مبررك أنت ؟

هكذا وخزتني، فهي قد أضافتني للزمرة.. من يعيش الايام وكفى، دون تفكير أو فهم أو معاناة. كما أن صوتها يحمل اللاهتمام نفسه.. كعاهر.. تباشر عهارتها أو تتحدث عنها، لا بشجاعة من يسفه انطوائية مجتمع كاذب، ولكن، كمن لا يحكي أي ذنب أو يدافع عن وجهة نظر.

وأغاظني السؤال وطريقة عرضه، فحاولت أن أذيب الغيظ في حركات زائدة. ثم قلت :

ـــ القضية غير هاته.

فكادت تقول شيئا، ولكني أفهمتها :

ـــ من الاحسن أن تحكي لي.. لأن أسئلتك تطرحينها بشكل.. و لم أتم.

ففغرت فاها، بحيث جعلتني أبتسم. ففسرت هي بسمتي على غير حقيقتها، واستسلمت ترد على ابتسامتي بأخرى.

* * *

(وأضافت الاستاذة وهي تنغل بالحياة :

ـــ على ذكر القرية.. فلقد سبب لي حضور ذلك العالم المريض رجة، تسربت حتى إلى هذا الاختيار، رغم أنه كان مدعما برفض ايديولوجية المنهج التعليمي المتخلف، الا أن ما أقوم به مع هذه البواكير هل يغير البادية، هل يحمل لها شيئا ؟. لقد انطلق الاستفهام الشاك إلى ما هو أبعد : فهل ما أقوم به يحقق

تحولا أو تغيرا في الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ؟.

وسأل سعد : لماذا ؟

ـ لعدة أسباب، ذلك أن العمل الجماعي لا الفردي هو ما يغير، ثم لأن ابن البادية ماذا سيستفيد وأنا لا أحشر ذهنه سوى بالنظريات، إن مدرسته يجب أن تكون في المنطقة نفسها، وأن تكون مرتبطة بهمومها وحاجياتهاليتحقق النظر والتطبيق. ولم يكن هذا باستطاعتي، لهذا فعلى الأقل على أن أكسر الركود، وأهز الرؤوس وأخلخل الواقع، وأحقق فيهم وبهم منطلقهم الذي سيفجرون به الوضع العام وينجزون به التغير الأعم، وآنذاك في الزمن القادم، ستصبح المدارس مرتبطة بمناطقها : فلاحيا وصناعيا كالاسلوب الحقيقي لتغيير الواقع والانسان.)

* * *

أصبحت سلمى تصر على ملاقاتي.. وكنت أفكر : لعلها تحاول أن تعوض لي ما ضيعه لي غيابها ذات مرة ؟ فكنا نخرج معا، وكنت أتعجب : أين سعد ؟ مع علمي أن له أوقاته.. وجاهدت لئلا تلمس في ما يتفجر. بل إنها تحدثني كالسابق كما لو كنت أملك نظرا بكرا. وكان هذا التصرف يدهشني : فلماذا تصر سلمى على أن تخاطب في الأخرى، تلك التي تركتها حينما اندلقت حياتي على هذه التجارب، تعب منها بشراهة، لتغور في داخلي سيول النحيب الشوهاء.

وكان حديثها ساذجا أحيانا، ومركزا أخرى، ومع ذلك كانت تستأثر بي، كأنها تطرد عني بحضورها كلا من محسن وهند. وأما سعد فقد لاح لي أنه يريد العكس، خصوصا عندما صادفناه ونحن نتجول، حيث وجدتني

ألاحظ : لولا أمثال هؤلاء، سلمى وسعد، لكان شيء ما قد تقوض أكثر.

ــ ألا نجلس قليلا ؟ لقد بردنا.

وقادنا صوب مقهى. وحينما كان يتحدث، كان يلف سلمى بتعبير لذيذ، فأشعر كأن سلمى تدلف إلى نظرته، لتنكمش بين ألياف الحرير والالوان والربيع. وكان هذا التصور قد جعلني أستفهم : ألا يستطيع مثل هذا أن يعيد الانسان إلى طفولته ؟ غير أن هذا الاستفهام لم يعمر.

ــ كم هو مفرح أن يغامر الانسان.. أن يتناسى ما يتعلق به، وأن يملأ نفسه باعتقاد.

من يتكلم ؟ هي أو هو أو هما معا في صوته، لقد كنت أرقب نظرته، ولعل من تكلم فيهما قد قال الكثير ؟

ورفعت بصري، فاكتشفت أي اتفاق هذا : إنه من نوع آخر لا يفسر، ولكنه قابل لبعث ارهاصات متعددة غير قابلة للتشريح.

ورجعنا...

كان جو البهجة يوهمني بالرغبة في البحث عن فهم نوع العلاقة التي تقوم بينها وبين سعد.. ولكن ذلك لم يكن من العمق، بحيث يأخذني إلى نفس بعده، لأتوصل عن طريق التمعن، إلى استنكاه أي شيء، لأنني تصورت أن علاقتي بمحسن أكثر صميمية. وكنت أفكر أنني أصبحت خارجها ولو مؤقتا، أعيش تجربة اللعبة الخالدة، حينما أبطل كل الاعراف الجبانة، وأخضع التجربة من أجل فهم.

وسرت مع سبحاتي، أسترجع كل تلك التعابير التي ترتسم على كل مقطع في وجهه، وهو يؤكد رجولته.. وكان ما يهمني بالاخص، هو أن أتذكر كل تلك البسمة الهائلة التي تعيد إلى أنوثتي تامة.. حيث أرضخ وجهه لأن يتعلق على تلك البسمة، فتلوح لي وحدها،حيث تستغرق كل معالم وجهه لتؤكد،عبر سيطرتها، أنني أنثى.

وكنت أضيف في السر : أن وجه سعد، لا تذيبه بسمة كتلك.. فهو يظل على حقيقته، يمتلك كل معالمه، مع خطوط نشوة هادئة تتسرب بليونة جذلى تكاد تحيرني.

كل هاته السبحات الطارئة كانت تطلع في بضجة، لأنها تذيب عني بقية الشريط، بما يزرعني به من كآبة واستفهام وضجر وتوتر.

بسبب هذا السعي الذي يهمني، كانت مقارنة سعد بمحسن تنعقد في فكري ابتداء من تلك الجلسة، وكان سعد يلوح لي مهيأ لأن يباشر حياته كنصف نبي.. يبتسم باعتدال، ويهتم بالمشاريع والهداية وضروب المزايا، ويخطط لنوع من العلاقة بينه وبين سلمى، ثم يسكت عن بقية الاسطورة : الحياة.

أما محسن ؟ فقد كان يظل في الصمت، يرى الحياة في تناول الحياة.. في امتصاص أيامها بنهم، لأن ترميها أفواهنا تفالة منتهي، ثم يخرس بقية الآذان الاخرى لئلا يسمع بقية الشريط، فيضطر لأن يقول أي شيء ربما قد لا يسعده. وهو ؟ لم يكن يقول ذلك، ولكني كنت أفهمه من طريقته في عيشه ومن طبيعة العلاقة التي قوم بيننا.

وإذا.. هما معا، وحتى سلمى، كانوا ينهجون نهجا يخالفني.. ونهجهم لا يحمل لهم أي تهديد، فقد يستطيعون أن يحيوا معه إلى النهاية :

وأغراني عيشهم الهني، أن أفكر في هنائي.. وهنائي يرتبط بمعالجتي لما يعتريني، وبذلك أرجع منجرفة نحو آراء سلمى، فأود لو تمكنت من أن أعتنقها، فلعل هناك ما ينتظر.

وقررت بشجاعة غير شجاعة : سأحاول.

وبدأت...

استأنفت حضوري الدراسي المنتظم.. وبدأت أحاول أن أضبط تصرفاتي

وكلماتي، وأسير في الطريق بحركات طالبة جادة.. وأضغط بيدي على كتبي، وبين الحين تصدر عني حركة : فألمس تلك الكتب كأنني أتأكد منها.. وأنغمس في جوف القاعة البغيض، وأربط حضوري لذات المقعد والاستاذ وبقية الرؤوس وأصمم على أن أفهم، فألتقط مواضيع الاستاذ بجهد. وأريد أن أتمعن فيها لأخرج برأي، ثم أتشبث بأن أجادل.. ولكن كل شيء يضيع : فكل القاعة والسحنات في مهرجان النواح الاخرس، تندب جهدا عقيما ودورا متفسخا وايجابية سلبية واعتداد أجوف، ولا أصبح غير فلاة، بلا أي شيء، سوى همس الاسرار المجنون. واهرع أهرع.. فهناك ضحكة.. هناك الارتعاش الظامىء لامرأة : هناك محسن حيث ألتقط جسدي وأعيش به، فيعود إلي قليل من الاحساس بأناي.

* * *

كنت أنغمر بسعر في معطيات محسن.. وكان هذا الانغمار وأنا أباشره، ينقلني إلى حالة من الافراغ، كأنني أجرف به سيولا من الدموع كانت قد اختزنت في قبل أن أولد.. ومن بعد، يبقى لي إحساس بأنني قد تخففت من عبراتي، فتهيأت أجفاني لانتاج عبرات أكثر : إنها عملية الافراغ والهروب تعيد نفسها، والعالم حالة غير مجددة، وإنما هو صورة قد قتلها التكرار.

وبسبب هذا الاعتقاد المسبق، الذي يؤكده كل هذا الذي أتوصل إليه، ازداد إحساسي بالغربة في عالم كان قد تفسخ شيء فيه... فكل ما يصادفني في تجوالاتي ومكوثي وادراكي وبعثرة فكري، لم يكن ليأخذ حقيقته : شكله الذي هو عليه، وإنما يتحول إلى ما قد يعنيه عندي : فالوجه الضاحك يعني انسحاقه بألم.. وتجوال الامسيات يعكس محاولة الانسان الابدية في سعيه المستمر لأن يخترق بحركيته وتسكعه كل السدود والاسوار.. والركون إلى الجلسة في مقهى، إنما هو اجترار للهموم العميقة وتصوير متقن لانسحاق

الانسان أمام غربته.. والجهد المبذول داخل فصل إنما هو محاولة رزينة لاغراق حزن الانسان في وسيلة ما.

وبهذا وغيره، كان هو، هذا العالم، غير هو.. وكنت في بعد لا أملك أن أرى الاشياء أو أحاورها أو أعيش فيها أو معها، أتجاوز حتمية الاستكانة وانطلق بين البدء والنهاية، أخبش بمخالب الاحتياج عن ضرورة، عما هوغير منفلت. كما كنت من قبل، في صباي ويفاعتي، أستسلم لحالة من التوتر الأسود، فلا يبقى لا معي وأمامي أي شيء أو أحد.. ولا أنفرج الا حين اكتظ بدموع لا لون لها، أحس بعدها بأن قفلا في أعماقي قد انكسر، وأن آخر قد أخذ مكانه، وهكذا دون أن أستطيع أن أشرح ذلك أو أفهمه أو يحدثني أحد عنه. ومن ثم شببت في التيه وظللت فيه، بلا شيء أو أحد، سوى ذلك الخليط من الكتاب الذين ألتهمتهم، حيث سقطت فيهم، بعد أن كانوا قد بنوا لهم عشا مشوها في بقعة مني، حتى إذا انتبهت : أين وجهي ؟ ــ لقد أضاعوه.

وكان ذلك : فهمي الخاص وانفلات الاشياء مني، يصيبني بحنق على المتداول، فلماذا نستمر.. لماذا وليس لنا ما نعتقده، ما نباشر حقيقته بيقين.

وفي الغرفة، لا أملك إلا أن أفجر حالتي في حركة ساخطة، تنصب مني على اناء فتكسره، لأسمع حركة انتقام.. جلبة دمار.. ووجودا ما يتحطم، فيبلغ وعيي آنذاك بأن شيئا ما قد كان. لكن مع ذلك تبقى كل الفصول : الجالسين والسائرين، الضاحكين والصامتين، العاملين وسلمى ومحسن وسعد، يشكلون كل هذا العذاب ولا ينتفضون، بل يحتفظون بنفس السير البطيء المنتظم.

نعم أتذكر : لا.. انهم غيري ! حينذاك يخترقني ضغط قاس، فمن حكم ؟! وكان ذلك يدفعني إلى حركات أولى للشروع في سؤال :

«كيف أنت تعيش، وهل حياتك جحيم كأنا ؟» . ولكن الوجه الذي يكون سؤالي يتقصده، يكون قد تابع طريقه وانفلت.. فاتعقب غيره ببصري، وأجدد ذات الحركة وأكاد اعزم، حتى هذا يحقق انفلاته في اللحظة الحاسمة.. وأظل في الشارع لبعض الوقت، رهينة الحركات نفسها والاستفسار وهروب الآخرين. ثم أتنبه : فأية حالة هاته ؟.. إما أنا أو هذا العالم قد جن.

كل هذا يتم كحدث. أما أنا. فلوحدي مع السؤال. وبسببه أخترق بقية أنحاء المدينة.. وكانت كل المحلات تفاجئني بتكتمها ووحشتها وتطلعها للخلاص. وكنت ارد : لا أملك شيئا، فنحن سيان.. فلها، ولذلك الرجل الذي تم بيني وبينه لقاء صامت في الحافلة، كنت أقول هذا.. ففي غمرة ذلك البحث المتوتر، عثر على عيني وهما تتسكعان بلا هوادة على بقية الوجوه، كأن لي مع جميعها حكاية أزلية. فظل يلاحق بقية الحكاية ويستفسرني : أي نموذج أكون ؟ ــ «لا أملك شيئا، فكلنا سيان» أنت وأنا وهؤلاء والجميع : تيه بين أذرع الطلاسم، وهل تعرف أنت من أنت أو من أنا ؟.

وكان دبيب محتار يفاجىء نظرته، فأدرك أنه غير قابل لأن يعطي أي جواب، بخلاف محسن، فهو على الأقل يعرض علي رحلة قصيرة ليوم أو يومين في المدينة الكبيرة التي تسكنها أختي. اذن فهو يعرض فرصة.. والفرصة، أية فرصة، تمدد الدرب، وتتيح امكانية البحث أكثر، لاذابة السؤال الشرس.

.. ..

ــ كيف فكرت في أن نرحل ؟

ــ الأولى أن نعيش بعض الايام قبل أن نذهب عند الأهل.

ــ أليس هناك من سبب غير هذا ؟

فانشده، ثم قال بلهجة غارقة :

ــ هناك.. سنكون أنت وأنا مع بعض.

فألححت :

ــ وغيره ؟

ــ فتعجب :

ــ غيره ! كيف ؟

ــ فصارحته :

ــ لو رافقتك، فإنني أفكر في شيء آخر، في سبب بعينه.

فقاطعني، بلهجة مندفعة، لكن بها نوع من الارتياب :

ــ في السبب نفسه، ذلك أن نلتقي ؟

وظل بصره معلقا على وجهي، في انتظار أن أؤكد له رأيه ولكني داهمته بشكل عفوي :

ــ كيف ترى العالم ؟

فمضغ كلمة «العالم» مرات قبل أن يلتقط طبيعته، ليتخذ لهجة اللامبالاة

ــ العالم !.. العالم هكذا يحدث، لا يهمني منه نظامه أو فوضويته.. ألست أعيشه ؟..

ــ وهل ذلك يكفي !

ــ ولم لا ؟.

فقلت لنفسي : هذا وأمثاله يباشرون الجانب الحسي منه،.. أما ما عداه، فأين اعتباره ؟ إنهم سيظلون دولابا في الآلة الضخمة التي تستهلكهم فيما هم يلفون في حركيتها اللولبية، حتى اذا انتهى الشوط، لم يخسروا شيئا سوى

أن آلتهم الصغيرة في نطاق الآلة الكبيرة قد تلاشت، دون هموم متبقية أو فشل أو أي شعور ساحق بالعجز.

وبرضى عاجز قبلت :

ــ أليس الأولى أن نذهب إلى المدينة الصغيرة القريبة منها ؟

فاعترض :

ــ الأولى أن نعيش فيما توفره المدينة الكبيرة.. أم.. أنك.. أختك ؟.

وبلا تفكير تراجعت :

ــ لنذهب.

* * *

(ومما تقدم، أليس من واجبي البدء بشكل آخر، بطريقة اعتقدت أنها تخدم المنطلق الخام، دون أن أملأ رأسهم أو آذانهم بأسماء ومسميات تطيل فيهم اللسان فحسب، وإنما أسعى لأن أسهم في محاولة تفجير القمقم عن النمرود.. نمرود الوعي والبحث والخلق والتنظيم ومعانقة التربة والاديم.

قد تصفني بالاحلام والتخيل كما تفعل نظرتك. لكنك تعمل عملا حسنا لو تحضر إحدى الدروس لتحكم شخصيا على مستوى الاستجابة للدرس وطريقة تدريسه، ومحاولة زعزعة كل شيء فيه بشكل يبين لك مدى توفرهم على امكانية المواصلة والخلق والهدم والحركة.

الشك الآن غير شك الخلق. وأن نومن حتى بما لم يظهر بعد منا هو ضروري. والذات، الشخصية والجماعية أساسا هي الكنز. والخبراء يومنون بالكنوز قبل استثمارها. ونحن كنوز لم تجد بعد من يومن بها، فهل حتى أنت ؟.

ــ سوف أحضر.

وفعل.. مرارا فعل :

ــ لويس الرابع عشر للطالب محمد الشركي

ــ الثورة الصناعية للطالب عبد الرحمان الأزرق

ــ نمو الحكم المطلق في فرنسا في القرن السابع عشر للطالب أحمد الحريشي

ــ دولتا الجزائر وتونس للطالب عمر السراج.

ــ شركات التجارة والاستعمار للطالب محمود بناني.

اصطف الطلبة بحيوية. كان النظام يتزود من اعتزاز عميق تعلنه الحركة وسمات الوجه وحالة الترقب. الدخول. صباح الخير. الجلوس. بشكل مدرك لنفسه تنجز الحركة غايتها. أمام الطلبة كتب وأوراق التحضير. الاستاذة تمر بشكل مركز وسريع : تأخذ تهيء الطلبة لتقرأ منه : من هنا وهناك.

«أحمد عبد القادر» تحرك قلم أحد الطلبة سريعا، فاستفهم سعد : ماذا حدث ؟ إنه مكلف بتسجيل كل اسم تنطق به الاستاذة. وعلم منها من بعد أن ذلك الطالب سيعاقب لأنه نقل سطورا من المرجع الرئيسي، فهو بذلك قد خان احدى تعهداته : خلق الكلمات من جديد دون استهلاك كلمات الاخرين.

سريعا تتم هاته المرحلة دون أن تأكل أكثر من عشر دقائق. على الطاولات أوراق بيضاء وأقلام. السبورة قد أكمل تهييئها الطالب المكلف بالدرس. أسئلة المراجعة. أسئلة الربط. أسئلة عامة حول درس اليوم، ليعرف الطالب الأستاذ إلى أي حد

أتقنوا تحضيراتهم ثم : تقسيم الدرس إلى مراحل. استخراج كل مرحلة ثم كتابتها على السبورة. اظهار الخريطة المتعلقة بتلك المرحلة. رسم أخرى بشكل سريع على السبورة. أسئلة بعد كل مرحلة للاستفسار والربط. سؤال بعضهم البعض. اصلاحهم هم أنفسهم للأسئلة والاجوبة. الطالب الأستاذ يصبح هو نفسه في الظل. مرحلة أخرى نفس الشيء. أقلام بعض الطلبة تتحرك على الورق الأبيض. الاستاذة في آخر القاعة ترفع عينيها لماما وتسجل قليلا. خرجت من القاعة مرة. لاشيء تغير. أسئلة من الطالب الاستاذ لربط العناصر. في الاسئلة أسئلة تربط الحدث التاريخي بالحاضر. تعليقات ذكية خفيفة. أسئلة عامة. ربط جواب بجواب كملخص. خرائط فارغة يكتب الطلبة عليها بالتوالي أسماء بعض الأماكن وربط تلك الاماكن بالاحداث المذكورة سابقا.

أتى الطالب الاستاذ اشارة دلت على انتهاء الدرس. حركة منتظمة بين الصفوف. الاصابع ترتفع :

ــ لقد قسمت الدرس إلى عناصر متعددة، بحيث جزأته على مراحل جانبية، كان من الممكن أن تصهر في عناصر رئيسية ؟

ــ لم تكن تتلقى الأجوبة بشكل معتد، فأحيانا يداخلك الشك في دورك فلماذا ؟.

ــ بعض المواضيع حشرتها حشرا فحسب، وكان يمكن الاستغناء عنها ؟

ــ أكثرت من الحركات اللامجدية. يجب أن تتحرك في الوقت المناسب، وأن تقف باعتداد مؤدب لتسيطر على كل الصف.

ــ استعملت السبورة أكثر من الطلبة. ثم إنك لم تضبط الصف كما ينبغي عند قيام بعض الطلبة للسبورة.

ــ لم تحسن الربط بين التاريخ كبحث، وبين الحاضر كموضوع، مع أنك أتيت بمعلومات مهمة زيادة على ما في المرجع.

الطالب الأستاذ يبرر نفسه أو يعترف والاستاذة منكبة على أوراق تحضير الطالب «التاريخ والعنوان والطريقة والعناصر والاسئلة والمراجع» تتحرك الاستاذة بتوأدة رشيدة. الرشاد في خطواتها ونظراتهم إليها. نوع من الترقب الخصب اللذيذ يسود القاعة. الاستاذة والطالب إلى جانب وبسمة محبة على وجه الاستاذة.

ــ لعلكم تنبهتم إلى ملاحظات سابقة قد أعادت نفسها في هذا الدرس. نحن نريد ألا نعيد أخطاءنا.

ــ يجب أثناء إلقاء المعلومات أن نرمي نظرتنا في كل ركن، وأن نضبط كل مخالفة وأن نصلحها في ذات الحين، ونحن نتابع الدرس، دون أن يشعر بها أي أحد سوى الاستاذ والمخالف.

ــ وكيف نستطيع ذلك ؟

ــ بالصلة التي تربط بينك وبين اخوانك الطلبة، فنظرة أو حركة خفية أو تغيير في اللهجة بسيط، كل ذلك يعتبر تنبيها خصوصيا وعلاجا في نفس الوقت. ورفيقكم غفل عن بعض الطلبة حينما انكبوا يسجلون ملاحظاتهم، فاستغرقوا وقتا أكثر من اللازم.

ــ ربط الدرس بالواقع لم يكن كافيا. لقد كاد أن يجعل من درس التاريخ تاريخا فحسب.

ــ كاد أن يقع مرة في ترديد فقرة من تحضيره، لكنه استدرك ذلك، حينما أعاد سبك الحقائق التاريخية في أسلوب مرتجل.

ــ المراجع كافية إلى حد مهم.

الحوار مستمر. لاوقت يموت. الاستاذة والطالب والطلبة والحوار المتبادل. الوجوه مكسوة برضى مولود للحظته. والاستاذة تستفهم : من أستاذ الدرس المقبل ؟.)

* * *

وكانت هنالك عند ضلع المدينة.. ثغرة تنبض، لترمي الوجوه في النشوة، كأنها قد تحولت آليا لتصبح قلب المدينة المتخم بالدم والشهوة وحقائق الليل.

ــ هدى ؟

وبلذة انتبهت، وقد كنت أفكر في أن سلمى ستواجه هي أيضا عبثية مجدها الكبير.

ــ نعم.. كيف أنت ؟

وأجاب محسن :

ــ سعيد.

وضباب السجائر ومنطق الاموات خارج الكهف ورحيق الكؤوس ووصايا قابيل على لسان أبي وهدير الاطراف ودبيب المعنى الذي زرعته سلمى في أعماقي وما أفهمه وحتى أنت سعيد ؟!..

ــ لنرقص

فانسكبت بين ذراعيه.. ففيهما من الثبات ما يؤكد أن الابتعاد عن هذا الرسوخ ضرب من التسكع في الوهم، ووددت لو اعتصرتني كل الأيدي،

لو تذوقت طعم كل الكؤوس، لو جررت رقابا عدة، لنصنع الواقع.. الاستسلام.. الإنحدار النهائي فالموت..

.. ..،

وعند اليقظة، كانت بقايا التمني تحتضر، فهذا النهار ؟ إنه ضد الوضوح.. يخنق حقائق الليالي ليردنا إلى العراء. وحملقت في محسن بارتياب، وتساءلت : هذا الاتصال به، بالآخر.. إلى أي حد يعطي الاحساس بالاندماج ويديمه ؟ واستدركت : إن الحكم ينفذ، فالكل في تفرده. وقمت أتركه.. فلم يكن أي شيء قابلا لأن يحقق أي إلتحام بيننا.. حتى صوته وهو يتعقبني : إلى أين ؟ لم يكن يعنيني.

وانكمشت كفاي على خدي عند حافة النافذة، وانطلقت عيناي في غير اتجاه وتوزعت : فكم من المخلوقات أنا !.. جيل بأتمه، بوجوه مختلفة وأهواء وتناقض دون أية سمة بعينها. وفكرت :

إن مثل هاته التسليات ترضي واحدة مني.. أما الاخريات : فأين المفر ؟. ولاحت لي سلمى كحضور أكيد يملك نفسه بلا جهود اعتباطية. تخطو ضمن الاشياء، كأنها الجهد البشري الذي يخلق كل شيء ويسيطر عليه. وهمهمت :

ــ هاته الـ (سلمى)، هاته الدنيا بأكملها.. تحيرني ! فهي مثلي، لكنها تسير : أليست اذن، الانسان الذي تدهش بعض نماذجه.

وارتعشت قفاي بلمسة.. كنت قد سقطت في الحزن. فسللت نفسي من احاطته واستقمت بتخاذل وظل بصري في المدى، كأنني أتعقب شبحا هائلا للمرأة التي تتحمل عمرها.. تشحنه بأقدارها بشكل طيع، حتى لا يفيض لها أي وقت يمكن أن يكون للملل. ونبهني :

ــ أين أنت.. مالك هدى ؟

ـ فانطلق صوتي ملتهبا :

ـ مع الذين لا يستعينون بالنزوات على أعمارهم.

ثم صممت :

ـ لنرجع

ففوجىء : إلى أين ؟

ـ إلى الرباط

ـ ولكن لا يمكن.. لم نجيء منه الا بالامس.

ـ مع ذلك

وفي حيرته قررت : قد أرجع لوحدي.

فرد بصوت مزخوم باللذة، ووجهه يكاد يبتسم :

ـ والاشياء الأخرى، إن علينا أن نعيشها.

ـ لا شيء يهمني

ـ فزفر : كيف !.. انك لست أنت.

فصرحت :

ـ للأسف نعم، ودائما.

ـ فأعاد بصوت متواطىء :

ـ ولكن الجو سيكون هذا اليوم... ولم يتم.

فحنقت :

ـ أوف.. لاشيء من اليوم ووجوهه يعنيني.. ابق أنت.

ـ ولماذا هذا التحول ؟

ـ لأنه حتمي.

ـ العبارات الغامضة أيضا !

ثم انتقل إلى الدعابة، فسألني بابتهاج :

ــ ومن حتمه ؟

ــ وبحرقة غير خفية أجبت : ربما الذي جمعنا ببعض !.

وتجاهل قصدي، ثم أعاد :

ــ وماذا سنجد هنالك حتى تتعجلين هكذا ؟

ــ اللاشيء كما هو هنا.

فلم يوافق : على العكس، هنا نستطيع أن نعيش.

فجاريته :

ــ وهناك يمكننا أن نموت.

فرفض : يا حفيظ !

فتعقبته : ولم لا.. أليس أننا نحيا الموت، ما دمنا نعجز عن الالتحام بالحياة نهائيا.

فأنذرني :

ــ ألم أقل لك، إن لك كلمات أرفضها

فلم أتراجع :

ــ ولكني شخصيا، لا أرفض الموت كخلاص.

فامتعض :

ــ أنا لا أريد فيك هاته الاساليب والاختيارات، إنني أردت وأريد هدى الحقيقية.

فقاطعته بلهجة تكاد تدمع : وأين هي.. أين ؟؟.

فحملق في قبل أن يقول :

ــ أنت تريدين أن نعود، فلنعد.

كنت أستحث عجلات سيارة الركاب لأن تسرع.. فعالم من الدخان والجمرات والكؤوس ولهيب الحواس، سيقوضه حضور سلمى.. سأعترف لها : تلك حقيقة ليلية، وأنا أريد حقيقة في النهار، وسأخبرها : المعنى ؟ ذلك الذي تكررينه.. ليس في هذا العالم، وحينما أظل أبحث عنه فإنني لا ألتقي إلا بالمحال.

كانت الاشجار والهضاب وسطوح بعض البيوت تعبر أمامي كأخيلة، وفكرت : كل هاته الاشياء وجدت من أجل هم كهمة سلمى، فبينها وبين النماذج من أمثال سلمى تضامن.. إن كلا منهما في الاخرى : أما أنا ؟..

وخامرني شعور بالضآلة، وظللت أحاول أن أتعقب الاشباح الاشياء.. الغصن.. السيارة المترنحة على وجه الاسفلت.. الاخدود والجبل أو وهمهما. المبنى الأبيض في المدينة الصغيرة التي نمر بها.. قطيع الاغنام المنكسة الرؤوس.. مايلوح من مدينة الرباط.. بقية المدينة : غياب.. غياب وانفلات ولا شيء غير يد محسن تلمسني.

وبعد يوم مشحون على طريقة محسن، حيث عشنا المشهد وتجاوزناه بشكل عنيف لذيذ قاس دلفت الى حجرتي : «سلمى سألت عنك» تمددت على الفراش. فيه ثلج وفي البدن قشعريرة. (سوف أبحث عنها) لكأنها الوجه الوحيد الذي علي أن أحمل طابعه. في الطريق لعلع اضطراب بكر في أعماقي. سأواجهه مهما كان الأمر.

... حملقت سلمى في بذات النظرة التي كانت تغرسها في السطور، فلكأنني في اعتقادها في تلك اللحظة كتابا آخر تقرأه.

وأعدت : مساء الخير. فوضعت الكتاب وردت :

ــ أهلا. جئت في الوقت المناسب، لقد تعبت.

أخذت استعدادها وخرجنا.

ــ إلى أين ؟. كنت تعبة.

ــ نسير قليلا

غرسنا أعيننا في الواجهات بلا اهتمام. ثم تكلمت : سعد يشجعني على دراسة بعض المواضيع غير المتعلقة بالدراسة. وحينما تعبت بحثت عنك : أين كنت ؟

وانتفض قرار المواجهة في حلقي، فأعلنته :

ــ في الدار البيضاء

فتمعنت في : عند أختك ؟

ــ لا مع محسن.

فاعترت يدها حركة تقلص و لم تتكلم. انتظرت.. فهالني الصمت الضاج. كانت تسير باستقامة وفمها مطبق كعادته، لكن وجهها قد احتله تصميم متغطرس. فتمنيت لو غرست أظافري في الصمت والغطرسة، ليتفجرا تأنيبا أو ثورة أو لطمة أو هديرا.

رافقتني الملامح الخرساء بعد أن افترقنا. بقيت في الشارع يؤلمني الصمت الحرون : هذا الحبك المتقن من الادانة. وكدت أقرر مواجهتها : عدت، قطعت في الطريق مرحلة و لم أتم : لقد تراجعت.

وفي الأمام كان الطريق يمتد بي إلى هوة طالما قصدتها. سرت فيه، تلسع جبهتي حبيبات باردة، تتكاثف مع بعض لتسيل على خدي كانهمار بطيء متواصل. وبغتة انفلت من العرق والنقمة وسلمى، وامتلكت رغبة : إنه الشاطىء الذي يغور عند أقدام المدينة، أباغثه في جوهر الدمار الذي يداومه. ولكن على العكس فلم يكن ذلك يملأني بأي حنق : فهو على الاقل يباشر عملية بلا مواربة. ورميت قدمي في البلل الرطب، فهمد كل شيء : البحر والترحال والصمت وحقائق الليل وأنا. وجاءت ضحكة، في طيها ضحكات : هناك جمع. كم هو منشغل بفرحته اليائسة.. فذعرت.

ثم جريت، فقد كان السواد يكتسح البعد والقرب وأعماقي. كان كل شيء يغطس في ظلمته.. هذا في رذائله. وذلك في نفاقه. وأبي في نظرته. والبحر في حنقه. والاشياء في انفلاتها. والمفاهيم في غموضها. والشرف في أليافه. والعادات في أدوائها. والمشاريع في عجزها. وأنا في كبوتي. وسلمى لوحدها : خير واحد وسط الشرور، ولكنه خير متنطع جامح يريد أن يسيطر.

ورفضت :

ـــ لا، ليس لها أن تفعل، فالاغلبية مع الكثرة. ولسنا نحن الذين اخترناه، نحن فقط نباشره : فنحن مثلها أبرياء.

البراءة والادانة والغيظ والصمت فجر لا وعيي عن الرقم (86). فهو : الرقم وأنا، نسعى لأن نقطع عمرينا، مادمنا لا نملك حلا آخر رغم غطرسة صمت سلمى. فكما أنها تتعامل مع الدقائق بجهد أو فكرة أو طموح، فإنني أتخذ ذات النهج، أبذل للرقم 86 لأن يمنحني الانتصار على الآونة.

ودلفت، بخواص سيري وامتعاضه، أخطو لأن أطرح هموم وجودي عند الرقم.. أنتقم باستسلامي له من استقامة سلمى وأنوح بالفرحة، ومحسن ينفي من عمري بعض الدقائق.

ونبهني صوت فظ قاسي النبرات : إنه الحارس :

ـــ إلى أين ؟

ـــ إلى الرقم 86

ـــ الرقم 86 !.. ماذا ؟

ـــ فأعدت بصوت وجيه :

ـــ نعم إليه.

فقسا الصوت أكثر وهو يقول :

ـــ عند من ؟

ـــ عند الرقم ومحسن

ولربما لذله جوابي، فاقترب وهو يقول بلهجة متبرمة :

ـــ عندهما معا !.. الأولى أن تختاري ؟!.

فنقلني اقتراحه إلى ما أعاني، ووجدتني أجيبه :

ـــ وكيف العمل ؟

فاستغرب وقال بتجرد :

ـــ الأمر لك

فصارحته :

ـــ ولكنه ضاع مني

فارتد بصوته إلى الوراء :

ـــ ضاع منك ! ماذا ضاع منك ؟!

ـــ أمري

فأتى بحركة زرية ورمى في وجهي :

ـــ ايه.. اسمعي.. لا داعي لهذا الروغان. أنت تريدين أحد الطلبة ؟.. الدخول ممنوع.

فتلعثمت : ولكن لماذا ؟

ـــ ولماذا !. ألا تعرفين القوانين ؟

فاعترفت :

ـــ لا أعرفها، وحينما حاولت ذلك ضعت.

فتمرد :

ـــ قلت لك.. افهمي، أمسكي هذرك واذهبي من هنا.

وبينما أردت أن أعتصم به، أن أقول له : إلى أين ؟ كان يردد بصوت مسموع : ياله من زمن.. أعوذ بالله..

المرأة تبحث عن الرجل ! أيّة قزمة لعينة هاته !!.

فهرعت .. بالقزمة اللعينة هرعت، بي أنا : غرفتي ضاجة بالصمت. كل ما فيها يحملق بعينين غاضبتين. وجدرانها حدود ملساء لعالم مسدود. ووجهي يحمل اللعنة. وماذا افعل، كيف أحقق التيه فعلا بلا جبال أوحدود. وكيف أغرس أنياب الحنق في سلمى وأمزق كبرياءها الشريف لأمرغه في العهر. ثم لطمت الباب وقفزت.. كل ما أمامي دخان ولهيب ونشوة : حقيقة ليلية باتمها. ولكنني في النهار. فمتى يعود الليل بحقائقه لأملكها واركن إلى شيء.

وخرجت. في العقل والقلب احتراق، لكن في الخطوة أمل : سأتحسس القامة الهائلة لصومعة حسان، للشيء الكبير في هاته المدينة.. ألمسه كالانسان الكبير والمجتمع الكبير اللذين سيتفجران من صراعات عدة أجيال من أمثال سلمى، لأسمهما ببصمات امرأة ضالة لم تجد بعد أي كبير أو أي عالم يملك أي رسوخ : وبكيت.

... اليد تتحسس الحواف الجامدة للشيء الكبير : يا أيتها الصومعة ؟ يا كتل الجمادات وبصمات الحياة وعراقة الموت ؟ متى تتحقق سيادتنا على البدايات والنهايات، متى نغوص في المعرفة الحقيقية لنعب من يقينها فنطفىء جهل العصور، متى تنحل الطلاسم ويذوب الغيب : متى يطلع الواقع ؟؟.

الصمت الجهل هو كل الصمت. والاحكام الخرساء تحزّ رقابنا وكرامتنا ولا حماية. والعالم يعيش تمطيته الخرقاء وكل الراضين في الدفء، والرافضين مهملين بين أنياب الجهل ويأس المسيرة وسيطرة الصمت. وخبطت بكفي معا على أسفل الصومعة وأنا أصيح بصوت دامع :

ـ أي جهل كبير أنت !

* * *

(ـ الثورة الصناعية : للطالب عبد الرحمن برادة.

ـ الأراضي المنخفضة : للطالب محمد حرمات

ـ أزمات أنجلترا : للطالب بوشتى اجتيوي

ـ نمو الحكم المطلق في فرنسا في القرن السابع عشر للطالب أحمد بنيس.

ـ سعد : الحضور في درس دفعني لأن أكره. فأن تشهد مراهقين ينجزون ما يخلق منهم رجالا شيء يفرح.

الملاحظات تستحيي من نفسها وتتضاءل. كل شيء يمتلىء بنشاط عفوي مندفع القابلية تعلن عن نفسها في كل ما تراه أو تسمعه. الدروس أصبحت شيئا عاديا وتوجيه الطلبة لأنفسهم في سباق. «لقد أيقظت فينا شخصيتنا يا أستاذة».

فعلقت : إنه هو الطالب المعاقب إذا ما تذكرته، فكل شيء بيننا يسير في محله : العقاب يتقبلونه باستحياء، دون أن يمس الهدف أو الوسائل التي اتفقنا عليها.

الأستاذة أستاذتهم وهم أساتذتها. والمعدن الثري يخلق وسائل اكتشافه. وكثير من الثراء في هاته الربوع تحت سمك العفن. والمشكل هو كيف يلتقي الباحث بهذا الثراء الخام. والثراء يصبح نفسه هو البحث والباحث والمبحوث عنه في بعض الأحوال. والطلبة يتركون دروس الاساتذة الاخرين ليلاحقوا أستاذتهم تلك. وهي تعيدهم إلى دروسهم وتدربهم على الاحترام والبحث الشخصي واغناء التجربة والاعتماد على الانطلاق من اللاشيء لخلق كل شيء. وكيف تواصلين ؟)

خطوات.. خطوات قبل أن أنتفض :

لن أظل استسلاما حزينا وكفى، سأواجه سلمى على الأقل لأرميها بما أنغل به، فيتحطم صمتها الاضافي وتكف حتما عن الضغط.

وانسكبت مع تدرج الشارع. وقبل أن أعرج على نقطة تجمع بين طرق عدة، وقعت عيناي من جديد على المدى الأزرق، الناغل بحركات تمرد مقيدة، فأشحت عنه، وسرت مع الشارع العريض، حتى التقيت بصخب المدينة في الساحة التي تخاف على المدينة من الصمت، فتتحول إلى مصنع هادر للصخب، تصدره إلى بقية شرايين المدينة عن طريق خطوط الحافلات وتشعبات الطرق. وفكرت : هذا مهم، فالحافلة هي الصلة بين المدينة والصخب، فلولاها لكان الصمت سيخنق الحركة في عروق المدينة لتتجمد ؟.. وأذن هي أيضا تتعلق بما يشحنها بهدير نسيان، لتواصل ما يدعي وجودها. وتابعت، كالحافلة كقنطرة التواصل، كجسدي الذي أعبره لأصل إلى الطرف الآخر من حياتي.

دب في جسمي عياء فاتر.. كان يتسرب إليَّ كحلم.. كهمس حنون أو لمسة مدروسة. أهملته وواصلت طريقي.. ألست قد ملكت شبه تأكيد، فرحلة هذا النهار لم تبق لي غير شيء واحد : أن كل موجود لا يتحمل نفسه لوحده، حتى المدينة : فهناك الحافلة وهناك أنا، والعالم يواصل رحلته : وهذا نفسه سأقوله لسلمى.. إنني كالمدينة، أمتلك معبرا للنسيان، وماذا بعد !.

لكن الدبيب زفر، فزرع في كياني تعبا أكبر، شحنته في سيارة أجرة وسرت بتصميم إلى سلمى.

.. ..

ـــ ومتى خرجت ؟

ـــ منذ وقت طويل

غصة.. ذلك أن هروبها مني بقدر. فهاأنا، وبعد أن عشت هزات متضاربة تكون قد انفلتت.

ظللت على انحنائي المفكر، في هذا التركيب العنيد للحوادث، ونبهني الصوت نفسه : قد تعود.. ربما.

كدت أميل للانتظار، لكن بقية الارتخاء المريح الذي أعقب أحداث اليوم، جعلني أقرر لا اراديا :

ـــ لكن لم لا أكمل يومي مع محسن.

غير أن الوصف العجيب طن في أذني : القزمة اللعينة. فتوقفت خطواتي، ودلفت إلى شارع جانبي، ففي جوفي جوع ينتفض، هدأته عند بقال الحي. ثم فكرت : إلى أين ؟. فتذخل جسمي : لقد تعب. فجررت تعبه في اتجاه مأواي، وأنا أحس تخديرا يهيئني لنوم مؤكد.

ـــ محسن يبحث عنك طول اليوم. أين كنت ؟

لكن جسمي، قنطرتي إليه كان في العياء. فأجبت بخمول :

ـــ سأراه من بعد.

فظهرت على وجه هند خيبة مريرة، كأنها كانت تنتظر أن أجازيها بتعبير بهيج يطفح على وجهي ثمنا للنبأ. ولكنني قطعت الشريط :

ـــ إلى اللقاء.

أية لذة أن يحدث مثل هذا، أن يحس الانسان بأنه في غنى عن دغدغة الآخرين، ومباشرة عواطف صبيانية بأخبارهم أو حضورهم.. أي أن يبلغ بضجره وهوسه وتمرده وضيقه بالعالم والزمن، حالة من التعب النعسان الذي لابد أن يسلمه إلى مخدة لتمتص بقية يومه الثقيل. وتمنيت لو أن كل

أيامي امتلأت بالاستغناء، حينما تطلع في آخره، حالة من التعب الأجوف تملك حكمها : لقد انهد الجسد، وآنهدت معه الاستفسارات.

إلى هنا لاحت لي المخدة.. النوم، ذلك السبات الذي يلامس الاجفان كأنه التباشير الأولى للموت.. للرجاء الأخير. فأسرعت لأن أوقف نصف اليقظة هاته في السرير.

قفزت الدرجات بجهد. وتفحصت باب غرفتي غير المغلق دائما. ودفعته. إنها هي !.. وبعد أن أمعنا النظر في بعض :

ــ ما هذا الغياب يا هدى ؟

ــ بل ما هي المقاطعة بالاصح

كان القهر في الصوت والغرفة وداخلي. وأضفت :

ــ الحقيقة أنني لم أتحمل

ــ و لم لا.. فأنت تتحملين كل شيء، جميع أرزاء الوجود، وذلك من تلك وكفى.

ــ لا.. ذلك لو لم تكوني أنت

فردت برزانة :

ــ ماذا تريدين أن تقولي

وبلهفة أجبت :

ــ أريد أن أعرف

فأجابتني :

ــ يقول بعضهم بأن الصلة قد تكون بغير المعرفة. ألست تحيين.

أية معادلة مضبوطة هي. تنغمر في التمجيد المثالي للحياة مع أن خيرها لو انتصر = لا حياة.

وانفجرت :

ــ حينما أفكر يا سلمى، فإنني أصطدم بالجحافل البشرية التي ما تفتأ تتكرر، دون أن تمتلك القدرة على تفجير عناد العملية البليد.

وبورع أجابت سلمى :

ــ إن الانسان لا يخطو على بعضه باستسلام وكفى، فعبر تشنجات فكره وحركته، تتوالى مراحل التطور.

ــ إن الحياة لم تمكن الانسان من فرصة ليكون سيدها، إنما شغلته بانجازات ما، بما يحققه حسب حتميات التطور وجبرية التاريخ، لينسى أنه مغبون.

في الصوت نحيب من عهد قابيل. وبذخ الشعور بالذنب والقهر في توالد. وسلمى تكبت ضحكا. ولكنها تهاجم :

ــ كل هذا، لأنك لا تملكين الوجه الجدي لوجودك.

وتداعيت أنسل إلى الماضي، فلست غير غربة وسط الانقاض وأشباح البهجات. لكن من يحميني مما يعشش في رأسي ؟.. واسترد وجه سلمى جديته :

ــ إن البشر لا يلهون بما ينجزون، فهم يخططون لسيطرتهم على الفضاء. وهم حينما أخضعوا جبهة القمر تحت قداسة أقدامهم الفاعلة، فإنك لا تستطيعين أنت أن تغادري نفسك، في جولة داخلية لا تجدي.

وأجبتها بعد تفكير :

ــ إن مختبرات العلم لا تستطيع أن تستخلص حصيلة مطمئنة لأرواحنا. فقد يستطيع العلم أن يسيطر ماديا على الاجواء، أن يغزو كل المجموعات الشمسية، وأن يرسل رسله إلى فضاء أبعد، لينتظر إشارة تأتيه في مدى خمسمائة سنة ضوئية، وأن يعرف ملكات وامكانيات جهازنا العصبي

والنشاط البيوكيميائي للمخ وامكانيات المادة التي يتكون منها المخ، ويستقبل بأحدث مرصد صنعه (ايفلسبيرجر) موجات للراديو من كواكب تبعد عنا باثنتي عشرة مليون سنة ضوئية. لكن مع ذلك لن يستطيع أن يسكت أعماق الانسان باقناع ما وبشكل نهائي.

ــ كأنك تتكلمين عن المستقبل بترصد لعجز منتظر للعلم في هذا الميدان.

ــ إن الانسان رغم أنه وجد بقدرة مهدورة الكرامة، فإنه فوق العلم وفتوحاته. ولن يستطيع العلم أن ينتصر نهائيا الا إذا مسخه، بأن يخضع عملية تسلسله إلى المختبرات لتحدد صفاته وذهنيته وما يكون فيه أو لا يكون، فتجعل منه مجرد مسخ مستخرج من آلة واحدة. ولكن هذا لن يحدث، لأن الانسان أكبر من أن يسلم بألوهية العلم، وبذلك ستظل روابط استفهام قائمة بينه وبين ما لن يصله، لأن العلم لن يرضي فيه غير جوانبه المادية، بحيث تظل سعادته الحقيقية، سعادة روحه، متوقفة على أجوبة أخرى.

ــ كيف تسيرين بعيدا عن العالم في هذا الموقف ونحن أمة لا صلة لها به ؟!

ــ إنني لا أرفض العلم، أبدا، خصوصا لو كنت أماثلك أو أماثل أي أحد يتوهم أنه يضع قدمه على سطح صلب. لكن العلم في غطرسته الحالية والمنتظرة، يزيد في رمينا في عالم بلا حقائق. فهذا الكرسي الذي تجلسين عليه، هذا الجسم الصلب غير المتحرك، ما هو في نظر العلم غير ذرات متراقصة !. ثم المادة نفسها.. المادة إذا وصلت سرعتها إلى سرعة الضوء، فان حجمها يتضخم إلى ما لا نهاية، ويزداد وزنها بنفس الشكل. ولأن استمرارها حينئذ في الكون ذي الأبعاد الثلاثة مستحيل، فإن بعضهم، بعض العلماء يرون أن كل شيء يصل إلى هاته السرعة، فإنه يدخل في كيان لا

يعتبر ماديا، وهو الزمن حسب نظرية انشتين التي تجعل الحد الاقصى لسرعة المادة أقل من سرعة الضوء. فإذا كان الكرسي هو كذلك والمادة زمنا فكيف غيرها ؟.. ماهي الاشياء وكيف هي ومن نحن وما أهمية وصدق ما يكتشفه العلم، وما هو ما يدركه وما لا يدركه ؟؟.

فهجمت سلمى :

ــ اذا كنت تصرين على هذا الرفض، على انكار حتى ما يقف حاليا في المقدمة، ولا تقبلين خلق صلة غير تجريدية فأقلعي عن عادتك، عادة التأمل الخالص وعدم التدخل في تيارات الاحداث كآلهة ابيقورس أو مطلق الميتافيزقيين.

باستمرار تغرقني في الحزن. جلستها صاحية وجسدي قد أصبح هو العياء. وماذا يجب أن يموت ؟ ومع ذلك قلت :

ــ إنني لا أحتاج أن أكرر على مسمعك، أن ذلك ضروري كالتنفس، إنها (الميتافيزيقا) ليست مجرد وهم في عصر العلم، فالفلاسفة أنفسهم حينما تعبوا من لا معنى الحياة، فإنهم صرخوا عبر كتبهم في وجه العقم والغموض. وبذلك فهل ستكون تدخلاتي تغير أو تعطي أو توقف على شيء !.

تأوهت وقالت بارتجال، كأنني عشب جاف سيغير موضعه بريح أو تأوه :

ــ نعم فقد تكونين ضد الظلم مثلا.

ولكنني وجدت موقفي في صوتها فصحت :

ــ آه.. هو ما أفعله وما يفعله أيضا حتى أولئك الذين قد بدأوا يستقبلون فتوحات العلم بلا حماس.

ورجعت إلى الوراء :

ــ ليس ظلما يا هدى اذ لو كان الأمر عكس ذلك لصعقنا أمام جلال الكون.. أمام أسراره الهائلة : أمام مائة ألف مليون شمس.

قالت ذلك وكانت نظرتها في رحلة تعبدية في جلال الفضاء، فالتحقت بها زمجرتي :

ــ ولم لا تكون لنا أجهزة ذات قيمة في المستوى، لاتختل بسير العوالم الخفية. إن الاحتقار فظيع حينما تكون الاسرار هناك، والاجهزة عمدا دونها، ونحن نحترق بين التطلع والمحدود.

ــ لا ليس احتقارا، ولكن البشر بشر وليسوا آلهة، كما أنهم مازالوا يواصلون...

فصحت :

ــ وماذا تريدين لهم أنت.. أن يكونوا حشرات، ومن رفض عليه أن يحطم أضلاعه على حواف الجدران.

ــ عليه فحسب أن يحطم مشاغله التجريدية في قلب مشاغل موضوعية..

وزفرت : ــ يظهر أنك أكثر تواطؤا علي هاته الليلة.

ــ لا إنني أرغب فقط في أن لو كانت امكانياتك في خدمة ما : ضد الظلم كما قلت لك.

فأجبت كما اتفق :

ــ أنا مثلا يا سلمى، ألست نتيجة لما أعاني منه أقوم بالدور نفسه، أقتل كل ما يمكن أن ننجزه، حتى الشبه الذي من الممكن أن يكون لي بك أقتله. بل أكثر من هذا، فإنني أرى أن صبر الانسان لا يطول كثيرا مع أثقال هاته الطلاسم، فلابد أن يحطم نفسه لأنه لا يملك غير ذلك كاحتجاج،

وأنت تعرفين أنه يملك بالعلم ما يستطيع أن يغير به الأرض إلى اشتعال هيدروجيني صرف.

ــ معنى هذا أنك مع الدمار

ــ لا. فمع آرائي العامة، إلا أنني في التخصيص، ضد أية زيادة في الكأس المر الذي يتجرعه الانسان.

فمالت علي :

ــ لأن الظالمين ليسوا فلاسفة في الاساس، ولكنهم لصوص سياسة وقراصنة اقتصاد ومسمِّموا أفكار. فالقضية لها اعتبار آخر.

ــ نعم.

ولما رأت حالتي الحيادية ظلت في الصمت. الصمت يتكلم والعياء يتكلم والمقهورون هم الغاصب والمغصوب والسعيد والتائه وسلمى وكل راشد.

ــ كم الساعة ؟

* * *

وأجابت :

(ــ كيف سنواصل مرهون بما سنفعله. وما سنفعله خاضع للطاقة التي يجب أن تتفجر لتلد الغد. ونحن لا نفعل الان غير أن نجهز على الموت المستبد بالعقول والسواعد والهمم والاحكام والحركة. وما سيفعلونه هم بالخصوص هو غدهم وغد أمة. وذلك الغد هو ما سنظل نسعى للقياه.

لكن كيف سنواصل ؟

طالت ساعة المطالعة إلى ساعتين. كان لابد من مغالبة التلف في الشوارع والمقاهي وأماكن التسلية أكثر.

فالوقت الذي كان لهما أصبح يملأه الكتاب. والكتاب يعطيهم الوعي والنظرة الواقعية وحب التجربة والتطلع إلى التغيير.

مواهب تتفتق. والشيء بالشيء يحيا. وكتب القضية الفلسطينية ألزمت من باستطاعتهم أن يشتروها.

فلسطين ليست قضية قومية وتاريخية وكفى، إنها تعرية لانهيار كل ما هو قائم.

الكتب يتبادلها الطلبة، وقراءتهم لها في إقبال وبعضهم يعد دراسات. المواهب موجودة من قبل ومن بعد. والمسرح يريد أن يعكس الواقع وينتقده ويتجاوزه. أمهرجان هو ؟!. كنت أتساءل هكذا أحيانا. وكانت تغمرني فرحة عميقة طاغية بهذا فأتذكر رأي برغسون : «بأن الوجود يعني التغيير، والتغيير يعني النضج، والنضج يعني الاستمرار في تجديد الذات وخلقها إلى ما لا نهاية». ثم أتساءل : ترى أي شيء يستطيعه هؤلاء؟!.)

* * *

هاته المرة، وسلمى بكل تأكدها تجالسني، كنت على العكس : لا أرى في قاعة الاكل وفي الافواه والشره والبلبلة النشيطة ما طالما صفعني من البرهة الأولى فيجعلني أفر، أفر من كل هذا الذي أرى، والذي ما هو الا تعلق الانسان المقهور بما يمكن أن يكون له : التذوق وسحق اللقم.. فلكأن حركة أسنانه القاضمة انما هي زمجرة جوعه العتيق لشيء آخر.. لاشياء.. أو لما يدركه وما لايدركه.

كل هذا وغيره، من شريط البحث الشره في كل مظهر، التحم مع بعضه وتقعر في القرب والبعد، وجعلني في المواجهة : الملاعق وفتح الافواه وشره

الابتلاع ووجه سلمى. كان ذلك يحقق وجوده دون أن ألمسه أو أسأل كالسابق عما يعنيه كل هذا الاختلاط من الوجودات النهايات.

أكلت. لم أشرد. راقبت حركة ما بين صحن سلمى وفمها.. وماعدا هذا، فقد كان هناك، كأنه لا يعينني. ولو أن أحدا آنذاك سألني : والآن ؟، لما وجدت ما أرد به، فلا كلمات ولا تيارات تجوب أصقاع الفكر والشعور والجسد : لقد كنت في السلم. لكن حينما كانت سلمى ترد على تحية سعد ببسمة ندية، ومن بعد، حينما هتف محسن باسمي، بتعلق شبيه بالوجع : هدى ؟ انتفض جسدي وغادر منطقة السلم وأعلن عصيانه.. فتبعته : جسدي هذا، ومحسن يمسك بجزء منه عند المرفق، وأنا قد طاب لي أن أصفع كلا من دهشة سلمى ودهشتي.

ليل هذا اليوم المكتظ نمته.. فوق رأسي أنقاض علاقة فقدت طابعها، حينما أسلمت ساعدي لمحسن وحققت خلاصي من الحجر.. ثم باشرت الجانب الذي أدركه الآن مني، كوسيلة كمنطلق.. كحالة غارقة في بحار من اللامعنى. حشرت رأسي تحت المخدة وهجرت النظرات الغاضبة لسلمى القابعة في الزوايا ورفوف الكتب والكراسي وأرضية الغرفة.. وأسدلت على كل ما توقظه تلك النظرات أستار الغفوة فالنوم فالاستغراق التام فيه.

وقبل الشروق كان النوم لازال رفيقا لي وأنا أدب فيه لاتعقب صاحبة النظرة.. أريد أن أصفعها براحتي. بأنني نمت، رغم هدير الارتطام ونحيب التكسر لأعوام طويلة عرفت سلمى كيف تعلق عليها نظرتها. غير أنني وقعت على بشاعة نصف يقظتي، كيف أنها لم تجعلني أستطيع أن أملك كامل التحدي لأفرض على سلمى ما تكرهه. ولم يستمر نومي إلى الصباح. قمت وأسلمت كياني وخموله إلى حافة السرير بعد أن دعمته بيدي على جانبي وتأوهت. ولذ لي أن أكون في كل هذا الليل والسكون والوحدة.. دون الليلة في أن أكون معهم.. الطلبة، لتكون عنقي من أعناقهم الكسلى،

وهي مشرئبة إلى فم الاستاذ الذي نخرته كلمات ضاعت طراوتها. لكنني من هاته الوقفة، من فوضويتها أسيطر على كل ما أحققه، في الدوران الساخط للانسان الذي يملك أن يهدر.

سللت المخدة بعد أن تمددت، واتكأت عليها، أفرض اتكائي الباذخ على كل ما في الغرفة.. على مزهرية صغيرة غارقة في الغبار وراء الباب. تنبهت، ثم قمت أحملها وبين حاجبي نظرة مقطبة، أستنكر بها هذا السهو الذي أغرقها عني في العدم مدة أشهر. وتوجت بها وسط المكتب لتكتسب أهميتها، ثم أعدت جلوسي، فاتكائي، فاعتقادي بالسيطرة على المزهرية بالذات، بل على ما تعكسه بالاخص : انها ما استطعت أن أوجده.. لون من الحياة بلا رونق.. كمزهرية بلا زهر، أو كيان بلا روح، أو صراع بلا جدوى، أو محسن بلا لذة، أو كل شيء مما أنا أنغل في محيطه ولا أعيه.

استرخي تكبر تمددي. رميت رأسي إلى الخلف. أيها الارتماء لو أنك تفرغه. دعكت عيني ثم استلقيت على وجهي. كنت أقوم بحركة افراغ. ولكنني انتفضت فقمت مع تصميم : لعل أي كتاب قد ينجدني.

قرض الكتب كانتقام، كتعرية لكل أولئك الذين لم يبذروا في كتبهم غير زفراتهم، غير صراخ ونحيب. وماذا بعد ؟. نفضت البقية : المزهرية والغرفة والكتاب وسيطرتي وخرجت.. أنحشر بلا طابع في الهياكل التي تقبلت أوسمة غلبتها، وضعته على الاكتاف بشجاعة ذليلة، لتجعلني استفسر أخيرا :

— ترى أليس الشجاع هو من ينهزم !. فلو لم يكونوا شجعانا لما كانوا يملكون مرونة أن يتقبلوا الحتميات ويسلموا بالنهايات، وأن يتخلوا عن كل عزة ممكنة ليتحملوا سمة الخضوع، والقدرة على تحمل فرضيات الحياة ومسايرتها دون الوقوف عند الاحزان العريقة.

وكما أنهم تقبلوا ويتقبلون كل هذا، يبتلعونه في صبر أو مكابرة أو تسليم. فقد خامرتني رغبة : أن أبتلع أنا أيضا قطعة من الحياة.. أي شيء منها، أن أصهره.. أطحنه أو أدمره. وغابت نظرتي في بحث مستعجل حتى التقيت بدكان لبيع الحلويات. قصدته.. دعكت قطعة.. سحقتها بأضراس واعية.. انزلقت في حلقي ثم جوفي.. فتقلصت أمعائي كأنها تحكم عملية حصار قطعة الحياة، تهزمها في عملية جبروتية..

وأنجزت خطوات، ففاجأني تعجب : كيف أنني أرفض الحياة وأحشرها في أمعائي ! ثم تذكرت استغرابا لسلمى، فقد انتقدت مرة : كيف أنك ترفضين الحياة وهي أنت.. حركتك وتذمرك واسترسالك عبر اللحظات !.

وعادت سلمى بكل تلك النظرات الصقيعية المحمومة. فكنت بتذكرها كأنني أؤدي ضريبة موافقتي لأحد.. تلك الموافقة التي قد تفجر في خلوتي وتفردي دفقات حية من المشاركة والتكتل. وسرت.. سرت، فالوقت وقت انحشار الفيالق الشابة في عملية الابتلاع الساهي : الأكل. وهي لابد أن تكون ضمنهم. هي وأنا : لأنني ضمنها. وقد أقف أخيرا عندما يباشرونه : عملية القضم العاجز المتلذذ.

تابعت وفي الطريق كنت أحملق في القطاعات الحياتية.. كيف أنها صامدة كلعنة أو قدر، واضحة في غموض، وعجيبة في كآبة، وجاذبة في نفور. فوددت لو انحشرت في إحداها : في واجهة متجر، أو بلاطات جدار أو ترصيف شارع أو أي حضن من الاحضان.. فقطعة من الحياة في أحشائي : ابتلعتها مع أنني أرفض دلالتها.. لكن ذلك حملني إلى سلمى، إلى نظرة لها سابقة، قربت الآن ما بيننا عند حالة من الرغبة في التضامن أو المشاركة أو التلاشي.

.. انحشرت في الصف. تمسحت بكتف خشن. وقعت عليه حينما اصطدم حذائي بحذائه. أخذت صحني : وجبة الانسان الأعشى. تمهلت

وأنا أغطس عيني في الوجوه لعلي أنتشل منها وجها أفضله، وصاحت هند :

ــ هالوا .. هدى ؟

ــ هل انتهيت من طعامك ؟

ــ نعم، سأنتظرك في النادي، أسرعي.

اعتراني بطء قبل أن أتذكر ما جئت من أجله. آ.. نعم، إنني أبحث عن الالتحام، عن شارة الغلبة، عن القطيع الذي أكون فيه مجرد وحدة تساق.

أمهلني التذكر وتفسيره وقتا آخر. انسقت إلى الجانب وأعدت رمي بصري. كان زعيق المدى والصحون يحتد. أزعجني وذكرني بتصور قديم : هذا الكهف ؟ مذبحة بشرية تتبارى فيها الكواسر في الافتراس. فوددت لو أن صوتا آدميا أمر : كفى. فانكمشت اللعبة النهمة عند حدها، واستردت السحنات شكلا آخر غير أكول، مثلا : كأن تتجمع نظراتها علي، فتنمنم عروقي بالدفء الجماعي، لتهيئني لاحتضان سلمى، لاعلان أية نتيجة أو الشروع في تنفيذ.

انحزت إلى الجانب أكثر.. كان الضجيج يحز أعصابي.. يدمدم بغموض ثم يشحن عضلات يدي ورجلي بحركة. وحينما انتصب محسن متعجبا : (أنت !)، قذفت الصحن بهلع وجريت.. تطمرني الاصوات المستهزئة والضجيج المعدني في لعبة الشباب القطيع.. جريت جريت جريت.. أرفض أن أكون أية وحدة في أي قطيع مهيأ لقضم ما، من أسنان الشباب أو أسنان الحياة.. أفر أفر أفر... الحياة تلاحقني.. الأسنان تولد من كل شيء.. الضجيج والسكاكين.. القضم والنهم.. الحكم الابيد.. لتسقط الشارات والاوسمة وقاعة الاضراس المغلوبة وأنا.. الطنين.. العالم في الطنين والطنين في الاسفلت والحياة تفيض على المساحات والابعاد.. والمطعم في كل زاوية.. ومن الزوايا تطلع الاضراس.. وكل ضرس ينهش لحمي.. الاضراس والافواه

والقضم هي الحياة.. وكل فم ضدي : فم محسن وأفواه المارين.. فأية لعنة أن يكون للانسان فمه.

... لا مفر لا مفر يا أفواه الحياة ويا فمي. الطنين المعدني في قاعة الاكل يخفت ولكنه يخلف لي أسناني : تطاحنها، احتياجها لما تفرضه فتحقق في افتقارها انتصار شريعة الحياة. فأنا ذلك المطعم بأكمله.. بأصوات الدمار وسرمدية الافتقار.. بكل تلك الافواه المسلطة على الصحون والمدى والمخالب.. وكل تلك المفاهيم المجتمعة في مفهوم واحد : كل يأكل كله أو بعضه : فأولئك يأكلونني. وأنا آكلهم فيما هم يأكلونني ومن يحيا يجب أن يأكل : طبقه أو مرافقه أو عضوه. وفي الخطو الهارب غرست أضراسي في ظهر يدي. النصر. اضغطي يا أضراسي. هكذا صدر الأمر. الافواه هي فمي، وكلهم يأكلون من يدي وأنا آكل من أكلهم.. والدم يسيل.. ومن انتصر ؟

الالم بلا ألم والالم الحقيقي في العمق. والاضراس تقضم الرأس والروح من البدء. ومع ذلك هناك من يصيح : يحيا السلم !.

على كرسي في مقهى جانبي رميت جسدي بشكل تعب. الدم مهزلة والتجربة عقم. حملقت في العملية بلا معنى ثم انسكب رأسي المحموم على الطاولة بينما صوت النادل يتعجب :

ـــ ايه أنت.. ماذا تفعلين ؟ ليس هذا مكانا للنوم !.

هالني أن أكون في تلك المعاناة، أقبع أسفل صوته بينما ينتصب هو بعجرفة بلهاء. قمت بشكل محتد وغادرت صوته دون كلمة. وبعد خطو يسير اتكأت بشكل متخاذل على جدار تغطس محطة القطار في أسفله، وكدت أن أسند إليه رأسي لولا أن القطار زعق. حينذاك أدركت أن علي أن أذهب.

في الغرفة كان انهيار يترصدني. وفي الفراش استسلمت لشعور أسود وللدغات الحمى. وكان ألم يدي يتظافر هو ومرح الحرارة في عروقي حتى حملاني بعيدا في غيبوبة.

الغيبوبة لا وعي يتفجر. يكشف فضاء رحبا مرعبا تتراقص فيه الاشباح بغموض. ترقص حوالي وعلي وأنا أعدو. في الحلق صرخة قوية لا تنطلق. وفي العينين دموع متكبرة، وفي الرجلين طاقة خارقة على المواصلة وفي النفس احتراق. كنت أعدو.. الفضاء يزداد بعدا والظلمة أشد حلكة والحشرات السرية تتكوم علي وتتكاثر وأنا أخبط الخطو وأصر. الحلكة أشد حلكة والغموض في كل الفضاء وعلي أن أكتشف شيئا وما هو ؟ الحشرات تتكوم أكثر لتشغلني وأعدو.. أريد أن أصل.. أخبط الهوام والاسرار وأخترق ماأراه ومالا أراه والمسافة تزداد بعدا ومن سيصل بوصولي اذا وصلت ؟ الامام وراء والعدو في هاته الحالة لا يفيد. العينان تحملقان بلا رؤية والاصرار هو نفسه ولا علامة. ما هذا ؟ صراخ. ويعود الوعي. أين أنا ؟ قهقهات.

ــ إنني عطشى..

ــ ولكن لا أحد يجيب. الظلام وأشياء الغرفة قابعة فيه. أنرت الضوء. في الاوصال رعدة. صببت الماء في حلقي فسيطر علي ارتعاش مقرور. هرعت أحتمي بدفء الفراش، وفيه تلقفني احساس بالقهر : انني منبوذة مع القشعريرة في هذا العالم. غرفتي لا اعتبار لها بين الغرف. اسمي لوحة علقت علي دون اختيار. ما أمثله ؟ جنون يرفضه العقلاء أو تعقل لا يدركه المجانين.

أسدلت الغطاء على رأسي بوهن. وضغطت على أسناني لعل الاصطكاك يتوقف. وباغتني سؤال : من سقط ؟ الحياة أو أنا ؟.

في النوم الرحلة، وفي اليقظة الوحدة وما العمل ؟ نمت نوما نائما في نفسه، مسحوقا بالتيه والحمى وارتعاش الاطراف.

(ــ هناك دروس اخترنا أن تكون جماعية، بالاضافة إلى نشاطات أخرى، لذلك فلتسمح لي بأن أشغل قاعة المحاضرات بالمؤسسة كل أربعاء، من الثانية زوالا إلى السادسة ؟.

ووافق المدير على طلبي.

أخبرتهم. ثم اقترحت موضوعا ومحاضرين وبعض المراجع، وأعلمت بذلك كل الفصول. ويوم الاربعاء امتلأت القاعة. وكان أغلب الطلبة قد هيأوا الموضوع. أشرفت أولا على تسيير المحاضرة بين المكلفين بها وبين الجمهور. ومن بعد، تناولوا كل شيء : فهم الذين يختارون مواضيع المحاضرات والمحاضرين والمراجع والمشرف على تسييرها. مثلا :

ــ دور الادب في خدمة القضايا...
ــ مسؤولية الفكر في النكسات
ــ واقع الثقافة بالمغرب
ــ الشعر.. واقعه المحلي والعربي والعالمي
ــ نقد : ليسقط الصمت
ــ المسرح : تاريخه ــ مدارسه ــ وتطوراته
ــ المسرح المغربي ومتطلباته وأهدافه
ــ الواقع الاقتصادي وتأثيره على الفكر والسياسة والفنون.

كانت بعض المواضيع تقتضي اشرافا بسيطا. أما أغلبها، فقد كانت تحقق نفسها فيما هي تحقق اقتدارهم على الاجتهاد. ولم يكن وجودي يلمس تحققه الا من خلال ما ينجزونه، بل من خلال ما يعدون بانجازه : فموسم الحصاد هو ما ننتظره. وشيء ما فيهم وفي الخارج، لم يكن هنا. أين هو ؟ كنا نلاحقه باصرار.

ولكنه في الامام. والوسائل تلد بعضها. وما نحن الا جزء من تلك الوسائل.)

* * *

هل الوحدة نقمة أو نعمة أو هما معا : الوحدة والمرض ؟. الوحدة أساسية وغيرها عارض. ولو كنت أملك رجلي، لخرجت أنفي الاساسي بالعارض. وهتفت : سلمى ؟. كانت على العتبة.

ــ هل صرعت نفسك ؟!

كان على وجهها اهتمام غاضب : والان ؟

ولما لم أرد أضافت : أنذهب إلى طبيب ؟.

فتجرد صوتي من ذلك الاهتمام الذي نغل فيه عند دخولها، واتخذ وضعه المتعب، وأجبت : مجرد عياء خفيف.

فقالت بالاهتمام نفسه : بماذا تحسين ؟.

أغاظني السؤال، لا لأنه من سلمى، ولكن لأنه يسمرني في وضع عاجز، ينفي عني جميع الخصوصيات التي تمنحني طابعي الرافض. ولم أجب.

فألحت : أتحسين بوجع ؟

ثار السؤال في حقيقتي : فأنا أحس بأوجاع عدة... كل واحدة مني لها وجعها... فواحدة مني تريد الآن حضور سلمى، والأخرى ترفضه، وأخريات في التناقض. آه رأسي، ودعكته بكفي.

ــ الأحسن أن يراك طبيب.

ــ لا.

فناولتني حبوبا، وسوت الغطاء علي : قد ترشحين، فيكون مجرد توعك خفيف.

ورويدا رويدا، كانت الحمى تزمجر أكثر.. تطفح من صدغي وعيني وأطرافي لتتفجر في رشح خفيف : ورفعت الغطاء قليلا. ولكنها هدهدت حالتي : نامي.

وعلى التوالي، استراحت أطرافي على مرفاء منمنم. ثم تسربت التمنمة إلي فتصيدت يقظتي.. وغفوت.

.. ومن بعد، أمكنني أن أسترد الكثير. بعد أن أعطيت لعيائيّ مهلة لأن ينسحب. ثم تدحرجت عبر العافية والحيرة والجامعة والتهام الكتب والتشرد. فعلت كل هذا دفعة : التهمت وتأطرت بين الصفوف وتدحرجت عبر الازقة.

وخلال هاته الادوار، كان محسن هناك، بما يملكه : شبابه. وكان يناديني. ولكني كنت أخرس سمعي، لأن صوت بعض الاساتذة كان يطلبني : «درسي يحس بغيابك.. ان تدخلاتك تخلق مشاركة من نوع خاص، وتدفع الطلبة إلى استيعاب الابعاد الخفية للمعلومات».

وتحت مفعول هذا الرجاء، لذلي أن أنجده : أنجد الانسان لا الاستاذ، فلعله يعثر في هدير كلماتي على شريان ضاج، يرد إليه أيام النقمة والتوتر. وكانت تدخلاتي تبلغه مشحونة بغليان آدمي راعد، بحيث لم يكن صوتي وحده هو الذي يتكلم. كان وجهي وحركتي ونبرة محمومة تندلع في مسامي كرشح أليم.. يلفنا.. الاستاذ وهؤلاء وأنا، في نوبة حزن أبيد.

ومثل هذا، هو ما كان يؤكد لي أنني أنا هي.. لست غيري، بلا لمعان ولا افتعال ولا رضاء أبله. بل إنني أحمل مشاقهم ونواحهم، لأن اللعبة كما هي هي : أنا فيهم.. والسابقون فينا ونحن فيمن سيأتي...

ورغم تعانق الاعين والاهتمامات حولي، لأنهم يسمعون أصواتهم وهي تعوي بالفجيعة من صوتي.. فإن عملية التفريغ نفسها انتهت إلى عقم :

فنحن لا نفعل غير أن نغور في نفس هموم الآخرين عبر تصفيف الحروف والكلمات.. وأنا ؟ لا أفعل غير أن أسيل الصوت الذي ادخرت نواحه لبعض الحين قبل أن أعاود الانغماس في عالم الضباب، مع حقد اضافي : فهؤلاء.. كل من أطر حرقته أو احتجاجه أو دمعته في كلمة، أتراه قد أطر ذلك دون الفناء.. دوني أنا، حيث لا أحترق ولا تدفق قد أطرته.. سوى محسن، الذي أؤطره لاستهلكه : لأحوله إلى مباشرة ناقمة، إلى استنفاذ ساخط لكيان ما من كيانات العالم.

كانت سلمى تسير في القرب. لتسر. وراقبتها : إنها تسعى بوثوق، كأن في الطرف الآخر من سعيها هدفا وهي لابد أن تبلغه. ترى ما علي أنا أيضا أن أبلغه : أن أدمر ركاما من المنغلقات وأطلع فوقه، أتجرع اقتداري في غير الصلاح.. بل كبشر حقيقي : كنصف الاه، يسيطر على عالمه ويدركه ويبتذله.

وسرت بعد أن فارقتها، مهيأة لأي ارتطام، حتى وقعت عيناي على مدخل سينما.. حجزت مقعدا، ودخلت في منتصف فلم لم أبحث عن اسمه.. فتدفق في عيني ظلام كاسح ونور براق. وتنبهت : أنني في قلب القاعة أشاهد حربا.. حربا بشرية بلا نتيجة. لكن ما أريده هي الحرب التي نباشرها ضد الطلاسم بالبحث اليقيني وننتصر.

وخرجت.

ولأيام ظللت في التجوال والتوتر. أرفض الاتصال بمحسن فيزداد الحاحا :

ــ لكن ما معنى هذا التغير ؟

ــ لا، ليس تغيرا..

ــ ولماذا تعتكفين !

ـ لأنني أبحث عما لا يوجد.

ـ إنني لا أفهمك

ـ ولا أنا أفهم

ـ ألا نلتقي ؟

ـ قد نلتقي.

وهكذا يقف محسن عند حضوره الشخصي، بينما أسلم أنا كل شيء للتسكع في الفكر والخطو.. يشدهني الفراغ ويفلت مني الكيان.. أمزق الواقع في حالة ترصد لسر، دون أن أتساءل : هذا التطواف الفريد والمحتد إلى أين سينتهي ؟.

وفي تجوالي المكتظ بالانتظار والتمرد، قررت أن أرحل، فلن أستطيع أن أتحمل بعد، كل هذا التفسخ النفسي مع هذا الفراغ الاهوج للاشياء. بل وددت لو صرخ في أي شيء : أي جنون هذا ؟! فأرتبط بجنوني وتتوقف الادوار.

وهرعت، أسعى، إلى الصوت الذي يملك صولته.. يستطيع أن يتكلم كما يحلو له.. فيطلق الاعتبارات والتقييمات كما تتأتى له : أبي.

* * *

تركت الشارع الباهت وأبهة نظرة سلمى واحضان محسن والقفص: غرفتي، بلا وداع. فالعالم هنا يتقلص، واتخذت طريقي.. وجهني ماضي : أبي ودارنا، كأنني أفر من الاقفال إلى الخط المفتوح المستهلك، لئلا أفعل شيئا غير أن أجر حركيتي في لف مجاني.. وبذلك أسجل انهزامي عن تحمل تدفق اللحظات البكر، فهرعت إلى اللحظات الموؤودة، أحشر في موتها حياتي.

وظلت حركة القطار العجلى تتلاعب بالزمن.. تدخله في بعضه لتلده

بتقييم معايير، حيث يصبح الماضي مستقبلا و.. السنا المستقبل في الماضي، والماضي في المستقبل.. ونحن معا : المستقبل والماضي : أنا وأبي.. جدودنا والاحفاد : الانسان المنجرف بين تيار اللحظات الهادر.. كهدير العجلات وهدير أعماقي وهدير الغموض النشوان خلف الاسوار.

قمت. تطلعت. رميت طرفي على الاشياء السائرة نحو غايتها، نحو م أتركه : فالاشجار وأعمدة النور والهاتف تمنحها سرعة القطار تخطيطها الحتمي : التقدم.. الالتحاق باللحظات المتفجرة عبر الآتي.. عبر ما تلحق به في الطريق التي أؤوب منها : مستقبلها هي وماضي أنا في هاته الآونة، ذلك الذي خلفت فيه مخاضا معينا لالحق بالذي ولى.. بالحركات المتراكضة لإذابة الآتي في الذي مضى، من أجل اعطاء سمة ما لهذا النموذج الذي أمثله.

أحنيت رأسي أكثر أحاول أن أضبط لولبة الازمان وتداخلها عبر حركية العجلات.. أحاول أن أرى كيف يتفجر الزمن في فوضاه من جراء سبب آلي. كيف أننا نتجاوزه حينما نفقده خصوصية التقييم الذي يفيدنا به لئلا يصبح عندنا غير امتداد وتمطط.. غير خطوط سكة.. عليها أنا، كهذا القطار.. أزحف.. أسير وأتباطأ.. أكر وأؤوب.. أخلخل المتداول حيث يصبح السير رجوعا والرجوع تقدما.. وتنبهت : مالي بهذه الرؤية أفسر الزمن وفق المكان : خط الحديد هذا، مع أن بعض المفكرين قد جعلوا الزمانية هي جوهر الوجود.

وبلا توقع، كان يلوح لي أبي كذاك الوهم، كخلود صغير، كصولة المدى وأبدية الظاهرة.. كالزمن بفوضاه في شيبه وتشببه.. يطوي شبابه في هرمه ويختزن في شبابه نطفة بدئه، ويستعيد عبر الوقار والتلصص النهم جبروت الابد.. صمود التجدد وصولة الدوام.

وابتسمت بسذاجة، ثم رميت البسمة بعيدا، فهي كهاته الافكار التي

لا تخصني، فلست أريد الا ما هو حقيقي.. ما أبلغه في غير الوهم.. في تعرية ما أو فهم أو تجل.

لكن مع ذلك اكتسبت عبر الشطحات المتراكضة والمتناقضة للزمن. نوعا من الاطمئنان إلى رحلتي، فأن أتقدم أو أتراجع سواء، فحركتي من حركات الانسان عبر خطوط زمن مشوش، سائر عائد.. لا يهم.

خدي مقرور. لمسته. كانت التيارات الهوائية قد امتصت انتعاشه، فدلفت إلى جلوسي وتكومت، ثم رميت بصري على من معي : وجه مدفون خلف جريدة. امرأة تهدهد طفلا كما كانت حواء تفعل.. تدغدغ تمرده الفطري ليتقبل ضريبة وجوده : عقاب جنايتها ولذتها. بقي في صراخه، يهز طبلة أذنها لأن يسمعها أنه غير مؤهل لما ترصده له. ورفعت نظرتها المحتارة وشكت :

ــ إنه يتعبني.

وكدت أرد : كما أنت ترصدينه لأتعاب بلا نهاية.

أتت بحركة شك من وجهها، ثم جرت نحوها محفظة جلدية، وناولته لعبة.. سها عن صياحه، وانكب عليها كالآخر.. ككل آخر : كالكبير.. كسلمى وسعد، ككل انسان. فكل محتاج إلى لعبة أو ترصد معرفة أو ذوبان في مشروع أو ملاحقة الجنس بنظرة أو احتضان. وقالت بجذل :

ــ لقد سلا

فقلت بالصمت : ولكني أنا لم أسل. فبودي لو مد لي أبواي أي شيء.

وأطبق بصري على الانثى أمامي. ففي عرفهم أن هذه أنثى منتصرة. سارت في الخط وأنتجت الحياة. أما أنا، فقد منحت كل شيء للاشيء.

كانت بقايا أسرتي وبيئتها ومعيار الحي وأعراف زمان تنغل في جزء مني وتتكلم. تركتها ورشقت المرأة بنظرة أخرى. إن ملامحها في الارتياح.. تبيح

نفسها لعملية اخصاب، لتتربع في أعين المجتمع كامرأة حقيقية، بينما يهدر في رفض غابوي لئلا أستحيل إلى مصنع مشغل خارجيا، في حين أنني معطلة من الداخل، لا أستطيع أن أهزم غموضا أو أملك أي وضوح.

ـــ إلى أية مدينة ستذهبين ؟

ـــ إلى فاس.

العينان المغروستان في الحروف انحطتا علي، تبحثان عن سمات الانثى الفاسية.. عن امكان إلحاقي بزمرة نسائها. ولذ لي أن يصطدم صاحبها: فأنا أنثى بلا شارة، أنثى وكفى.

ـــ وأنا أيضا إلى فاس

فانكبت نظرة الجار عليها ثم على صبيها، وكان على وشك أن يتكلم، ولكنه أبدل كلامه بحركة، قام بها إلى الممر، حيث أشرف على الواقع الراكض المهزوز من نافذة القطار بينما استفهمت هي بصوته :

أأنت من فاس ؟!

في الصوت شك، وفي النظرة بحث عن الوجه التقليدي لاهل المدينة، وأجبت بشبه عياء :

ـــ نعم.

قلت هذا كحل، وزحلقت رأسي كمن يهدف لأن ينام، بينما دماغي يهذر.. فما ورائي وأمامي ويحيط بي قد دوخني.

وبعد حين، نمنمت أصابع رشيقة الحركة ركبتي، وقالت صاحبتها :

ـــ استقيمي.. تمددي.. لا تنامي منزعجة. إن المكان متسع.

فتنبهت بلا انتظار، وحملقت في المكان كأنني أصادفه لأول مرة : فماذا أفعل ؟ أتمدد، أستسلم ؟ لكن لماذا ؟ واكتست نظرتي باستغراب وأنا

أغرسها هنا وهناك.. في اللون الجلدي الاحمر.. والشبكة الحديدية فوق.. والمرآة المثبتة أسفلها.. والعمود المنفلت من حشوه ليتلقف الاذرع.. والنافذة المفتوحة كشاشة.. كحياة راكضة إلى غايتها : إلى نهاية ما. وقلت :

ــ ولكن إلى أين.. لماذا ؟!

وجاء صوتها ليردني شيئا إلى جلستي :

ــ استريحي.

فتمددت بطواعية بينما طيف يلوح في القرب في البعد كجواب. انشددت إلى صوته الذي لا يبلغني.. فقط لعلي أسمعه : أبي.

* * *

(كانت المواهب موجودة كما قلت لك. وقتل المواهب بالوحدة أو الاهمال أو التلف عن المسيرة أو المحاربة، يكون. وخطتنا هي أن ننفض الغبار عن كل شيء.. أن يوجد كما يوجد في انتظار أن يوجد في الأهم. ومع الأيام أخذت الندوات والمحاضرات تلقح بما ينعشها.. بشيء يقيم الجسر بين الجمهور والمحاضرات : فقبل فتح المناقشة بين المحاضر والمستمعين تقوم العناصر المسرحية التي تمتاز بفضيلة الموهبة والاخلاص بتقديم فصل من مسرحية أو مجرد لقطة تغير الجو، وتبذر فيه نفسا مغايرا فيتجدد الاتصال بمضمون ما نعمل.

بهذا الفتح الذي يتجمع ويعبر عن نفسه، كان لابد من تقديم شيء جماعي. استأذنا السيد المدير ثم قدمت العناصر المسرحية مسرحيتين على مستوى المؤسسة، حيث حضر جل الطلبة تقريبا في العرض، مما أتاح الفرصة لاستنتاج : هناك قابليات متعددة للتوحد، ولا ينقص غير العمل.)

أهل وجهه بغتة في يباب تشنجاتي كظل.. فانكببت على حنانه بجوع يتم السنين، وكرعت من احتجاج أمي وتمنيت لو انتصب أي حائل بيني وبين (الهدى) الأخرى، وتركني مجرد ابنتهم : الفتاة المشدودة إلى نفس المعايير والنظرة والتخطيط، لاحس ارتباطي بقاعدة.. بوجهة نظر، ينطلق احتضارها من ماض معين.

قال أبي بغيظ الكبار :

ــ وأين كان غيابك ؟!

فقلت باللسان الذي تمنيته قبل حين .. لسانهم :

ــ في الدراسة.

وحينما أخذ يحتج :

ــ الدراسة !.. أكل من يدرس يكون هكذا تصرفه !

انتفضت :

ــ من أنا ؟ تلكم أو هاته.. ابنة جيل أجداده أو التي يتمزق جيلها بين مكالب الطرق : فلم أكذب ؟ ألا يكفي.. أليس علي أن أخبره.. أن أبلغه باختياراتي ودوافعها.

وتنبهت : الحقيقة أنني لم أتعمد الكذب.. ولكنه هكذا كان.. إن ما أمثله يحير !.

كان هو لازال يتكلم، وكنت أنا ألحظ العياء في صوته وسحنته وتوترات حركته.. وسمعته :

ــ والكتابة ؟ حتى رسالة !

فأردفت أمي :

ــ كنا نخاف أن تكوني مريضة. وكان أبوك سيزورك مرتين، لولا أنه كان يمرض.

قالت ذلك وهي تنقل بصرها بينه وبيني، كأنها تستسمحه على هذا الاعتراف، ولكنه قال في شبه اعتراض :

ــ إنني لن أزور ابنة تنسانا..

فتدفق في أعماقي حنين لغير هذا المنطق المتعب.. لصوت أبي الحقيقي، ذلك هو الذي يلهو بكل شيء، يرضخه لشروحه الخاصة.. كأنه يرغم كل المفاهيم على التوقف إزاءه، ليلبسها نظرياته.

واستدرت نحو أمي، ثم نحوه باهتمام :

ــ سلامتك ياأبي.

فامتعض :

ــ سليم ولله الحمد

ثم أردف بعد صمت يسير : لكن أنت.. كيف هي الدراسة ؟.

فانتشلتني أمي :

يكفينا من الدراسة.. ألم تأخذها منا كل هذا الوقت، يجب أن نراها الآن.

وتعجبت أن أبي لم يعارض، بحيث أكد لي قبوله هذا، أي استسلام خلفه المرض فيه.. المرض نفسه الذي تقبع مخلفاته في أجزاء عدة من جسمه. ومثل هذا القبول والمخلفات، ضمني إليه في نوع من التضامن، كأننا جميعا : هو وأنا ضحية المرض نفسه.. مرضه أو آخر.

وحينما كان يتكلم أو يتحرك أو يدلي برأي.... كنت أسأل كل الكلام والحركة والرأي عن أبي.. أين هو؟ فمن أجل الآخر حضرت، لألمس اعتداده اليقيني كمرساة، توقفني على شط حقيقة أو خطأ.

وانطلقت أمي بسجيتها، تحمل إلي شريط الاخبار : «ابن خالتك ازداد

عنده طفل. لقد سماه أكرم» وتباطأت قليلا وهي تصب الشاي «أكرم ؟ ما الاكرم هذا ؟ أرأيت يا هدى الاسماء هاته.. إنها غير مقبولة، كأسمائنا..

ابتسم أبي وابتسمت، فتشجعت أمي :

ــ خطيب بنت عمتك، قرر التعجيل بالزفاف.. حاولوا معه أن يقبل التأجيل إلى عطلة الصيف، ولكنه امتنع. ولو ترين، فإن عمتك مجهدة، فالعرس في هاته العطلة.. ولولا مرض أبيك، لكنت أساعدها.

وحينما سرحت نظرة مجهدة لأبي على وجه أمي في قرف، كنت أتسلل إلى وجهه، أبحث فيه عن نظرة خاصة به، نظرة الرجل التي ضبطتها في المصيف.. ترى، ألم يجهش المرض عليها ؟!، وظللت أتعقب.. ولكن كيف لي بها ؟ فهو الآن يستخدمها ضد أمي.. يحاول أن يثنيها عن التعرض لمرضه، بينما كانت حالته تفضحه.

كل هذا أيقظ في شوقا للنظرة نفسها.. أليست تأكيدا لشباب أبي في شيخوخته، لأزلية آدم فيه، ولاستمرار خصوصياته، حينما لا يتناولها الزمن بمبضعه فيهدم جدتها.. أليست مرفأه في الخضم : سلوته أو لعبته !.

وتحول أبي إلي، ليقول بصوت جديد :

ــ هذه فرصة.. أن تنسى أتعاب الدراسة في هذا الحفل.

وأسرعت أمي : العقبى لها.

فتدخل أبي بصرامة متبقية :

ــ ليس الآن.

لقد كان كالسابق، يرهنني لدور، يؤخر كل شيء بسببه، لأعلق على صدره وسام النصر. لكن لو تراه الآن يدري ؟!. فما النصر وما الهزيمة ؟ ما الجهالة وما المعرفة، ما الاقتدار وما العجز، وما كل شيء. ؟!.

وفجأة وجدتني أنسل من الجلسة، أتيه في دروب مقطوعة، بلا أم أو أب أو أي أحد.. فليس هناك من يمسك بجرحي الحقيقي ويتناوله بأية طريقة.. فنحن جميعا تحت الوحل.

وعدت إلى الاغتراب نفسه.. أرمي عليه أردية الصمت وأعيشه.. هنا : في البيت أو خارجه.

ورويدا رويدا.. رغم حضور سلمى ومحسن.. كنت أحمل إليهما صمتي وبصري..ففيهما بكاء طفلة لم تجد حتى أباها.. لقد انهار، فصرح اعتداده البدائي قد عششت فيه حقبة زمنية فأتلفته. ومدينتها ؟ أحالتها المقبرة التي تقبع في طريق بيتها إلى صدى مخنوق بالردى.. إلى مجرد زمن مهترىء بلا جعجعة الدواليب والتبادل والحركة. بل، كم تحس أن كل شيء يتساقط مع أبيها.. الهياكل والاسوار والطرقات والمقبرة والالبسة وجلدها...

وكانت سلمى، ظلي الثاني تتدخل :

ــ وليكن.. فكلنا يحمل نعشه ويسير..

ــ لا. فنعوشنا، ذواتنا، من السهل علينا تحطيمها. وأمسكت بي :

ــ آه .. آنذاك يجب على المرء أن يتطابق مع آرائه من البدء، وأن يتخلى عن ادعاءاته الجبروتية.. وأن يكون الجبن عينه.

وبعد استغراق قلت :

ــ ولكن لم لا تكون بطولة ؟

ــ البطولة معاناة، والبطل الحقيقي هو من تقطر جراحاته ويسير.. ينحشر في المخاض العام، ولو أن المخاض يسقط أطرافه عضوا عضوا.

ــ وبجهد أضفت :

ــ كيف التحمل ؟.. إن هذا فوق البطولة.

ــ فقط، إن هذا هو الانسان الحقيقي.

وتمعنت فيها بغير عيني. إنها لا تنجدني، فهي بالمرصاد، لاتتركني وجها لوجه مع الدمار النهائي. وإنما تعرض علي واجهة عريضة صلبة من الآراء، لتثير في تيارات عاصفة من التناقض.

وتركت صوت سلمى والبطولة الواهمة وأنقاض أبي، واستسلمت للتلف نفسه في المدينة المقبرة. وفيه وفيها وفي، كان رجاء مكبوت يطلع :

ــ هذا التجوال النائح من يوقفه ؟ من يهدهد هذا النشيج المتواتر الذي يتعالى من أعصابي وألياقي ومهج الكثيرات في داخلي ؟.. أم أن علي أن أتحمل دوي النحيب بلا أنيس أو مهتم !.. أوف.. أتمنى لو نقلتني هاته الخطى صوب موقع لا عودة منه.. حيث يتفتت تسكعي بين أفواه الديدان ومتانة طبقات الصخر.

وكأن محسنا، كان يستجيب لندائي غير المسموع، فيحاصرني :

ــ ما هاته المقاطعة يا هدى ؟!

ــ كما في الاصل : فهي الصلة الحقيقية بين الجميع.

ــ معنى هذا أنك تنهين كل شيء ؟

ــ أتمنى لو استطعت أن أحقق نهاية واحدة، بلا جبن أو افتعال.

ــ إنني أرفض هذا المنطق كما تعرفين.. حدثيني بصراحة.

ــ ماذا تريد ؟

ــ أي شيء.

آي .. الوجع. وجع الاعتدال !. فهذا يكفيه القليل وبه يستطيع أن يلاحق عمره !..

ــ هدى خففي عن نفسك

ــ قد أفعل.

ثم لا أفعل.. فهنا، في الذرات الخفية من كياني، طاقة هائلة تلتهب بحطب بشرى عريق. أسير وأسير. وأندفع وأرتد. أضيع وأعود.. لا حدود لا اتجاه، غير الامتداد اللانهائي الضاج بالخفايا، وأنا فوق ركام المدينة المقبرة، أفجر في صوتي نواح الاهلين وأتقطع : يا سماء يا أرض يا من يفهم ومن لا يفهم، ما هذا ؟ اشهدوا... وداخل سيارة الركاب، تنبهت، بشكل غائب لكل الوجوه والقفا، حتى استقر بصري نهائيا على جليسي، وبغتة وقعت على عينيه : إن فيهما شخصا آخر، كان قد ارتبط لدي برغبة، لم يتهيأ لي أبدا أن أحققها، وظللت أصر على أن أغرس فيهما رغبتي. وكان بدوره يبادلني نفس البصر، بتعبير غير مفهوم. فاستيقظ في نهم قديم مجرد.

وكأن أخرى في غير أنا، قد نطقت بصدق :

ــ عيونك جميلة.

فغام وجهه تحت ظل حيي، سرعان ما انتشل نفسه منه وأجابني :

ــ لو انتظرت قليلا، لكنت قد قلتها لك !. فعيونك أجمل.

ولأن عنفا متوترا في كان يتطلب أن يذوب في تجربة أو معرفة أو نصر أو انهزام، فإنني لم أقبل أن أدخل معه في محاورة كهاته. وحملقت فيه أكثر : أليس هو فرصتي الآن ؟. غير أن وجهه كان ينزلق في البعيد لتتكسر ملامحه على انقباض حقيقي. صدمني. فلمحت للمرة الأولى شيب رأسه ووقار كتفيه بينما ظل لسانه تحت أطباق السكوت كأن لا كلمة مرت بيننا.

يا سر الاسرار.. أيها السر.. يا ما أرتبط به ولا أدركه ؟؟. أعدت نظرتي إليه فتشجع :

ــ يا ابنتي ؟...

ولم أكن في مستوى ابنته، كان أصغر من ذلك بقليل. وتابع :

ــ لماذا تتخذين هذا التصرف ؟...

وبحياد أجبت : هكذا.

ــ إذن اسمحي لي.. فأنا إمام مسجد.

ــ المسجد. التخذير. ياكل الصدور أين أي صدر ؟. وهذا إمام كبقية الائمة وماذا يعرف إمام مسجد أن يقول ؟. وتفحصته : لم يكن فيه ما يصلح للامامة غير شاربه، ومنه استخرجت شخصا آخر هو جليسي.. جليسي الذي كان يبدأ في اتخاذ دوره : الوعظ والارشاد بشكل محنط. ولكنني لم أكن مسجدا ولا مصلين. فقاطعته : ماذا تستطيع أن تقول لي عن الاديان.. عن الايمان بالغيب في عصر التحديات المادية ؟.

انظر : الائمة يصلون مع مصلين معينين. أما أن يحاوروا الفكر فغالبا لا. يا أصوات الذين انفضوا الغبار عن حناجركم.

ــ قل لي

ــ أعوذ بالله.

غرس في نظرته حقدا. هل الحقد يخلق بتولا أو قنوتا يا امام ؟!. في قلبي شوق وفي رأسي شك وكيف الجواب ؟.

ــ أجبني. ما رأيك في العلاقة بين الدين والحرية ؟

ــ اسكتي

ــ لا. أجبني، فماذا يستطيع الدين في عصر العلم ؟

ــ عليك اللعنة يا....

هو غاضب. وأنا من أكلمه ؟ والمدينة جاهلة. وأسرتي يشغلها اسم (أكرم). وهل اللعنة من الجهال لعنة ؟.

ــ جبان

ــ كافرة

الكفر، كفر الاتهام أو كفر الامام أو كفر موت الفهم. الصمت الجهل يحتل كل باب وكل فم، وفم الاستاذ يستنجد : درسي يشتكي من غيابك !. وإلى من أشتكي أنا ؟

ــ أليست فتوحات العلم، تحقق ما لم يهدف إليه العلم : تأكيد جلال ما... معنى المعاني الذي يحرقني الشوق للقياه ؟

ــ ....

ــ أتعرف كيف ؟

ــ ....

ــ أرجوك

لا صوت لا فهم لا شيء لا أئمة لا عقل في مدينتي. أشحت بوجهي، وقتلت كما قتل، اللحظات والحوار الذي كان من الممكن أن ينشأ بيننا.

ثم تنبهت : ماذا أفعل ؟. أرحل. لكن إلى أين ؟؟. وقريبا من مدخل قرية (البهاليل) نزلت.

اتخذت مجلسي على حافة الطريق، وملكت نفسي، وحاولت أن أتذكر كيف ابتدأ يومي (......) لكن أزيز عجلات السيارات قطع علي حبل التذكر. لا أحد يتكلم. وهل الائمة يحجبون الاسرار أو هم أيضا لا يعرفونها. قمت بسرعة وأشرت بيدي. صرت عجلات السيارة صريرا مزعجا. وأطل وجه غارق في الغضب :

ــ إن هذا وسط الطريق .. ألا تعرفينه !

فقلت :

ــ أريد وسط المدينة من فضلك.

فترك وجهه في اتجاه المقود، بينما استدارت يده، وفتحت لي الباب الخلفي. وحينما اتخذت مقعدي، تمنيت لو ظل يسير.. لو أتم لي حالة اليوم..

لو اخترق بي كل أرض لأجرب عيني : هل تريان بلا أئمة أو أستاذ أو محسن أو سلمى ؟.

وأخيرا رأتا.. عيناي رأتا قفاه. كانت مجعدة كسلحفاة. فاستفهمت : ترى أي أسرار مخبأة في منحدرات ومرتفعات هاته التجعدات ؟. وأحنيت رأسي أحملق أكثر في القفا السلحفية.. فبلغته لفحات أنفاسي وتحرك رأسه مائلا قليلا حيث عثر على وجهي.. ولكني خفت أن يفسد على عيني عملية الكشف عن شيء ما : هو في وخارج عني. فلمست قفاه سريعا بأصابع مقرورة. فقفز قفزة جرفت السيارة يمينا ويسارا في حركة دائرية أيضا.. بحيث فكرت سريعا والسيارة تصر بقوة وتنضبط بعنف وفمه يقول (بنت الكلب، عليك اللعنة) إن عملية اللولبة هاته أساسية. لكن اللولبة الاصل كيف يمكن ضبطها ؟. وصاح :

ــ اخرجي. المجنونة ماذا أردت أن تفعلي !

ــ أن أرى (يا إمام)

ــ أراك الله العمى.

ثم بصق.

ولكني لم أر شيئا. فلقد أخذ قفاه وذهب.

....

ــ أين كنت ؟

فتركت أمي وعمتي وأجبت سلمى :

ــ أحاول أن أرى

ــ ترين ! أين كنت ؟ تريدين أنت وأبوك قتلي ؟

صاحت أمي، وأضفت أنا :

ــ لكن لا حد يسمح برؤية. فواحد أخذ صوته وآخر قفاه..

. ــ ماذا تقول هاته ؟ إنني لا أتحمل.

تتحمل ؟!.. وهل نفعل شيئا غير أن نتحمل. سمعت سلمى :

ــ أعتذر. لقد نسيت : إن علينا أن نتصل بأحد الاساتذة هنا، وأن نرى عنده بعض المراجع، وهي كانت تقوم بهذا فاتركنها. إنها متعبة.

فردت أمي، بصوت بدأ يتراخى :

ــ كان عليها أن تخبرنا.

ــ نعم. ولكن البال مشغول.

ــ وهل تناولت طعام الغذاء ؟

تحركت خطوات، ثم استدركت : لقد حضرت السيدة خديجة، زارتنا هي ومحسن، كما أن ضيفه يريد أن يتصل بك.

لقد ضاعت فرصة. أبي وحضور السيدة خديجة !. أما أنا فلن أتصل الآن بغير أبي، فقد تحملنا الغرفة الغيمة إلى الابعد، فنفهم أو نغوص في جوف السقوط إلى ما لانهاية. ولكنه هو أيضا لا يحدثني كالسابق. إنه ينساب في تراجع مخذول. يتكلم هنا وهناك بلا ضبط أو يقين مسبق، كأنه يحاول أن يستهلك اللحظة أو أن يستغلها في ما هو اعباطي. لكن أين فيه السيدة خديجة التي كانت هنا قبل حين ؟.

.. وكم كنت أشرد عنه.. تتملكني حمية الاعماق، فأضيع في غير حدود صوته وحضوره.. بحيث أن هاته الحالة : حالتي، تؤكد لي في هاته الومضات الخاطفة، إنني أنفلت من ذلك التناقض : الوجود والعدم، حيث أرفض الوجود حقا، وذلك حينما أكف عن الشعور به، سواء بواسطتي، أو عبر كل ما هو خارج.

لكن الآن.. ذاك أبي، وتلك حفيدته.. وهذا فراش وتلك جلسة عمتي المتربعة. ومثل هذا الالتقاط يعتبر حدثا. فوقت مهم قد انقضى وأنا تحت

ضغط خلل، مع أن وجودي حتمية خارجية في حالةالصحو أو الغياب.. كالاشياء.. كأرضية بيتنا التي عثرت عليها اللحظة، وكذلكم الجدار الذي لم أغرس تنبهي فيه بعد.. وكبقية الموجودات التي توجد بوجودي وعدمي : كالعالم.

انما ما هي شارة هذا الوجود.. ماهي، وما هي شارتي بالضبط ؟ إنني أريدها كطلوع فريد، كتأكيد لاقتدار.. أو كلا شيء بالتمام.

* * *

(المواهب تفجر الوعي قبل أن تفجر الشهرة. وأي تفتح لا يخدم التعرية وبناء البديل يعتبر تهريجا. فمسرحية (ياهاجر الكنز ؟) للطالب محمد لكحل «!»، كانت تعالج قضية ملحة داخليا : هجرة البدو إلى المدن، مع عدم قيام صناعة حقيقية، تبتلع هاته الهجرة وتغطيها، بالاضافة إلى أنها عرت ذلك التناقض المفاجيء والقاسي الذي يصيب المهاجر، وهو يتنقل بين نمطين مغايرين للحياة. ففي الوقت الذي ينبهر فيه بالمدينة، فإنه يكون مطالبا باكتساب بعض العادات والصفات التي لا تقرها البداوة في نقاوتها، وعذريتها الشيء الذي يجعله أخيرا يقف على حقيقة : حينما تعطي المدينة شيئا فإنها تأخذ أشياء.

ومن تم تتوصل الاسرة الصغيرة المهاجرة إلى أن عملية الهجرة خطأ. عند هذا الحد تسقط المسرحية في خطأين.. الأول أنها تقع في مدح رخيص بشكل فلكلوري، كأي مداح لا يملك فكرا أو بعد نظر، والثاني أنها تقف عند خطأ الهجرة دون التعرض لاسبابها أو لوسائل أبعادها، كعودة الارض لاصحابها الفلاحين الحقيقيين، مع ادخال الاساليب العصرية في الفلاحة، خلاف ما هو حاصل، وذلك بتكوين مستعمرين جدد للأرض في عهد

الاستقلال، مع الاشارة إلى الشريط السياسي اللازم لمثل هذا التغيير حتى لا يكون التشبث بالارض، هو مجرد تشبث بالموت، حيث يعكس تشبث البدوي بالبقاء في البادية مجرد عملية انتحارية، أمام غطرسة المتملك الغريب عن القرية..

ـ أأنت راض عن هاته المسرحية ؟

ـ إلى حد ما.

ـ أقلت فيها ما يجب قوله ؟

ـ بعضه ؟

ـ ما ينقصها في نظرك ؟

ـ أن تكون متقنة أكثر.

ـ فقط ؟!

ـ ....

ـ ألم يسبق لك أن أدركت أن الفن، أو أي لون منه، قد يتحول في بعض المرات، إلى إجرام ؟.

ـ كيف ؟ اجرام !

ـ ضد المجتمعات وضد قضاياها.

ـ هل معنى هذا أن......

ـ نعم، وإلى حد كبير، فمن ناحية، يجب أن يستوفي كل موضوع عناصره، كل الحقائق الفرعية : أسبابه بالذات، خصوصا وأن هذا الموضوع ملح بشدة على واقعنا الاقتصادي والاجتماعي، فأن يعرض بشكل سطحي، فإنه يخون واجبا. فضح الجريمة يفتك بنا : بدوا وحضرا. بالاضافة إلى سقوطك في كيل المديح من أجل النجاح، دون احترام الحقيقة : فكنت كتلك

الانياب الضارية الاخرى، التي أضيفت لتلك العوامل الفتاكة بالناس والحقائق.

انكب رأس الطالب إلى الأسفل وتحلقت حوله أنظار بقية الطلبة في ادانة. فتابعت الاستاذة :

ـ أفهمت. وكانت اللهجة موحية ببقية الموضوع الذي لم تملك الالسن بعد القدرة على الجهر بها.

ـ نعم.

ـ واذن ألا ترى أن مباشرة أي لون من الفنون يعتبر مسؤولية. وأن الحقيقة نفسها هي التي تحكم : مع أو ضد : فاختر لنفسك..

ـ لقد كنت سليم النية.

ـ هذا لا يشفع لك، فأن تكون حتى الشبيبة تسقط من الأول في الغفلة والمغالطة فهذا جرم إضافي : إن ما وقع فيه جيلنا يجب أن يزول بالنسبة لجيلكم.. الحقيقة، الحقيقة وأنتم في خدمتها، والسلاح الذي لا يقطع الزيف سيقطع صاحبه : بيد الحقيقة أو بيد الشعوب..

ـ صحيح.

وابتسمت :

ـ وعليه فنحن مع المستقبل.

ـ وأنهيت الموضوع. ولكنه ابتدأ في ذهن الطالب.

وقطع دابر الزيف والزلفى يجب أن يكون بشكل بتار. وجروح الأوبئة عميقة، ومن يهادنها يعتبر سفاحا. ونحن كلنا كذلك مادمنا لا نوجد في الخط المقابل : بالفكر وبالفعل العاجل السليم.

سلمى .. تلك السلمى.. سلماي : كانت غالبا ما تغيب عني في الرباط : اشغالها وسعد وكثير من الانهاك. فدور القديسة الفاعلة فيها تتقنه، ولقد أصبح يستغرقها، وهي بذلك راضية كأنها ترهن حياتها لبطولات خارقة تدغدغ بها فشلها المتوقع في نطاق محدودية امكانات الانسان فيما هو أعظم من الدراسة والنشرة الطلابية ونشاط التعاضدية بالحي.

ولست أدري كيف أنني تذكرت سلمى أمام ذلك المبنى الذي ما فتىء ماضيا منطلقا إلى المستقبل (صومعة حسان).. كيف تذكرت في حضرته ماضي سلمى : فهي متأكدة من أن في الوراء ماضيا، ومن أن بالامكان الاستيعاب منه ثم تجاوزه. وبذلك كانت مجهدة، لأنها كانت تعتقد أيضا، أن في مسيرتها قدرا هاما من الظفر، الشيء الذي جعلها لا تنتظر من حياتها غير التوفيق، لانها لم تعود نفسها على أية خيبة، فمن قبل، كان كل من حولها لا يخاطبها بجفاء : أبوها، وأهلها وأشياء العالم. أما الآن، فهي تواصل بذلها وبطء البديل، الشيء الذي رماها في توتر خاص لم أكن أنا فيه، لأنني لم أعود نفسي على أن ألهو بها على هذا الشكل، فأعدها بأن هناك في الحياة ما يمكن أن يمنح.

ولكن أمي، كما هي أخيرا، حينما أصبحت تقذف بوقت وجهد أمام المرآة، من أجل أن تسترد وجها لعلها كانت تملكه، ذلك الوجه الذي أتاها بأبي، تقف وقد تمطط على شكلها اعجاب مغر لتقول لي :

— لو ترين ياهدى، أي بذخ هيأته عمتك لابنتها.. لقد فاقت كل ما هيأته العائلة لبناتها.

ثم اتجهت لأبي :

— كذلك سنفعل نحن لهدى.. لابد، الله سيرزقك العافية ونزيد..

فابتسم أبي. أي تنافر هو، هذا الذي بيني وبين هذا المجتمع.. أبدا فلا

توافق بيننا.. فكل أشيائهم ليست غير تشويش وتأخير كبير يقتلع الجذور والمفاهيم وكل مطية : يا للمهزلة !.

ـــ سيشغل ذلك الانجار المترف الوسط العائلي. ثم استدركت كمن يتذكر :

ـــ لابد أن الحاج محمد سيغار من ذلك.. حيث أنها دفعت زوجها إلى مضاهاته.

فلم تملك سلمى وقد كانت معي، أن تضبط نفسها، ودخلت في اللعبة :

ـــ ولكن ما معنى هاته الفروض البورجوازية !.

فتمعن أبي فيها وقال باهتمام :

ـــ إنها تمتع.

فاحتجت :

ـــ لا، ليست تمتعا، ولكنها البحث عن اعطاء معنى رخيص لوجود المترفين..

ـــ ما معنى هذا ياسلمى ؟

ـــ هو عجزهم عن أي شيء سوى النفخ في الحشية الجلدية لاعطائها مظهرا هائلا يفضح منطلقهم وهدفهم، ثم بعد صمت تابعت : لكنهم في الحقيقة متجانسون مع اهتماماتهم كطبقة.

ـــ ماذا تقولين : فكل منا يفضل أن يتمتع، خصوصا من أتاه الله بسطة في الرزق.

فابتسمت بهزء ـــ مثل هذا المفهوم بعيد عن القبول الآن.

ـــ بعيد عن القبول ممن ؟ ألسنا نعيشه !

ـــ لأننا في التناقض. لكنكم أنتم متجانسون مع أدوائكم، وكل داء مزمن لابد أن يهلك صاحبه.

لكن عودة أمي بهرجها من المطبخ لم يجعله يسمح، فاستغلت سلمى حضورها وغيرت : أخذت تحكي عن لص حيهم الذي استرد استقامته حينما بدأ يعمل، ومن ثم استرسلت بتحفظ كيس تحلل أسباب الصلاح والاجرام على المستوى الفردي والجماعي : الاجرام بنوعيه.. الاجتماعي والميتافيزيقي.

وفي هاته المرة، شكت أمي :

ـــ إنني لم أفهمك، الله يحفظك يا ابنتي.

بهاته الشكوى كانت أمي قد تراجعت قليلا عن رأيها في سلمى، لأنها كانت تعتبرها النموذج العالي للمثقفة التي تأخذ وتعطي ولا تتهرب. أما أبي، فقد فغر فاه، ونسي أثقاله وتحديها. لكن ماذا كانت تريد هي بالخصوص ؟ أذني ووعي ولا شك. ولكنها كانت عندي.. بمنطق عيشها وآرائها، تداري ما في أعماقها.. فمنه تفر إلى الغد.. إلى الامام، ليصبح كل ذلك هي : سلمى، شخصي الثاني، في تمثله الواقع ومتطلباته، وفي نفس الوقت الهروب بالاندماج فيه. لهذا كنت فظة من الاول :

ـــ لماذا تلتجئين لهذا الاحتيال يا سلمى.. فهذا نكوص منك، مجرد عودة للخوض فيما قد سبق. فمع كل طاعاتك وجدولك، فماذا تستطيعين ؟.

رمت بصرها على الجلسة، واستأذنت

* * *

ـــ هدى ؟

ـــ محسن ؟

كان مقبلا على البيت فتركنا سلمى.

أمسك بيدي ودفعني أمامه.. وبعد سير ما سألته :

ـــ إلى أين ؟

فرد علي بالاضطراب نفسه :

ـ لا أدري.

ـ لكن...

ولم أتابع. فلقد واصلت السير. لا اتجاه ولا تفكير. وفوق رأسينا صمت مريح كنت أدفن فيه ما كنت سأعود به من عند سلمى. أما هو فلم يكن هو. محسن حاضر غائب يسير. حضوره بهذا الشكل يثير : وعرضت :

ـ سأعود

ـ إلى أين

ـ إلى البيت.

ـ الاستاذ سلمان، أحد أصدقائي، يريد أن يتعرف عليك.

ولأنني كنت في السلم، سلم محسن، فقد أجبت :

ـ نعم. لكن ليس الآن. ثم عدت.

وفي البيت كان أبي قد استرد ملامح من ماضيه، فعلت حمرة منتشية وجهه، بينما اتخذت لهجة سمة الرطوبة :

ـ لقد طال اشتياقنا اليهم. فمناسبة حضور هدى ومحسن نستدعيهم.

وواجهته نظرتي القارصة، فاستفسرني :

ـ ما رأيك يا هدى، لقد زرناهم مرتين فيجب علينا أن نرد لهم جميلهم.

فاعترضت أمي :

ـ لا بشكل رسمي، ليزورونا نحن أيضا، فليس من الضروري أن تتخذ كل زيارة طابع حفل.

فأجاب بتخاذل.

ــ لكنهم لم يزورونا الا في المرض. ومن واجبنا أن نستدعيهم.

فاحتدت أمي :

ــ ولماذا ؟!.. إنهم لم يستدعونا قط.

أترى فهم أمي قد انفتح. والجدال مستمر. ولذا تدخلت :

ــ أنت الآن تعب يا أبي، واستدعاؤهم يستوجب زيادة تعبك، فلنؤجل ذلك حتى تشفى في المستقبل.

وكأن أمي كانت في حاجة لهذا التنبيه، فالتجأت إليه :

ــ هذا أحسن. بالاضافة إلى أنني لا زلت مطالبة ببعض ما يستلزمه حفل الزفاف، لي ولهدى.

فسكب أبي نظرته بيننا بمقت، وقال بتصميم :

ــ لا، سوف نستدعيهم، ولا يهمني تهيىء أو عرس.

يا عرس الصمود والاستمرار، يادوام الاقتدار على تجرع الزمن بلا تفسخ أو عفونة، يا أبي : تكلم.

ــ سوف يحضرون.

ولكن أمي كانت قد داومت على المرآة. والاصلاح لابد أن يعزز نفسية ما. وأمي قد أطلعت كل انتقاماتها من سابق قهرها :

ــ أبدا.. انك لا تريد الا إتعابي. وأنا لن أحضر... فاهتاج أبي.. ولكنه سرعان ما أخذ حسابه : ضرورتها لمرضه. ولولا ذلك، لكان قد اتخذ اجراء صاعقا. ولأجل أن أعبد أمامه خط الرجوع، ركعت عند سريره :

ــ لا تقلق يا أبي.. سوف تحقق ما تريد. إنما الوقت الآن ضيق. ولابد لاستدعائهم من تهيء أيام، حيث تتفرغ أمي لذلك.

فقال بجرح :

ــ ولكنها تعارضني

ــ فقط، إنها تريدك أن تفهمها.

هل النظرة تستحق كل هذا الثمن !. جيل يدفع الكثير للاشيء. ونحن نرتوي بلا مذاق.

* * *

(الخط يتابع سيره. والاربعاءات هي نفسها. وما يشابهها يتحرك إلى لا أبعد. وبعض طلبتنا يخلقون تكتلا من طلبة ثانويات أخرى. وحب الخلق والمغالبة تكسير الجمود يحركهم. وفي قلبي فرحة وفي تنبهي يقين.

فالطلبة : السراج والعراقي واعميمي والحريشي والاشهب «القديم» يجمعون عناصر من ثانويات أخرى ويكونون جمعية «وعي وثقافة».

ابتدأت الجمعية بما يجب أن تبتدأ به مصارعة السينما الرخيصة، وأماكن التسلية والتسكع والمقاهي والقراءات الضحلة : ثم انطلقوا.. وبجهد موفق استطاعوا أن يخلقوا جمهورهم، وأصبحوا يستدعون بعض الاساتذة ليلقحوا أعمالهم بطاقات أخرى.. وواصلوا : كونوا مكتبا لجمعيتهم يضم عناصر أخرى، ونسقوا أعمالهم ومسؤولياتهم أكثر. ثم تقدموا أكثر فأكثر : حتى لقد أصبحت الاذاعة المحلية تعلن أسبوعيا عن نشاط هاته الجمعية اليافعة، فكثر الجمهور ونضجت الاعمال وقوي الاحساس بالواجب.

وشيئا فشيئا كانوا ينطلقون. لم تعد المدينة وحدها كافية لمطمحهم. وعرضوا :

ـ سننظم مباراة في القصة والشعر والمسرحية على المستوى الوطني يا أستاذة ؟

ـ حسنا.

ـ لكن تنقصنا الجوائز.

ـ حاولوا أن تحلوا مشاكلكم وأنا معكم.

وبالفعل أعلنوا عن هاته المباراة. وجاءت مشاركات من مدن مغربية. وكونوا لجنة من الاساتذة ومن الشعراء للنظر في تلك المنتجات. ثم حددوا يوما لاعلان النتائج بعد أن استدعوا الفائزين. وقام تعاون بينهم وبين الفرقة المسرحية «براعم المسرح» لانجاح هذا التعاضد بين عمل وأذهان وانجاز شاب.. وكان البعيد ينادي..)

* * *

كان الصباح يستيقظ على شوقي للحضور الذي أهرب منه ثم أتعقبه. لكن أين هي.. ففي مكان ما من هذا المدى تلتقط وجوده دون أن تكون مثلي :

اكتهلت قبل أن أبدأ.

ولمت نفسي : دائما في التناقض.. أتشبث بصوتها كسيل من الدفقات المثلجة التي تحد من صلف اشتعالي، ثم أطلب منها أن تكف. وتمنيت لو استطاعت أن تملك زمام مدي وجزري..

وطلب أبي بصوت متعب :

ـ ناوليني تلك القارورة.

إن تحت صوته جرحا. نفذت أمره. فتمدد بشكل مخذول وظل مغمض

العينين يتجاهل قربي.. فتركته. وسرت في البيت بخطوات فارغة.. وكنت أتطلع إلى هنا وهناك، كأنني أبحث عما ألتقطه : حاجة أو ظاهرة أو فهما. وبقيت أسير.. والجدران تتمطط.. وأسير، في صحن الدار.. في دهليز الباب.. في الدرب الضيق والفسحة الخامدة.. ثم بعيدا بعيدا حيث لا شيء يتحرك. فكل مشنوق بحبله : في أعمدة النور وسير الناس ولولبة العجلات وتوقف الهواء. وأخبط رجلي.. ألعن توقفي.. ولكن العالم مات، والمدى قد اصطبغ بلون قان من سطح الحافلة، وغرق كل شيء في برك الدم، وأنت يا سلمى ألا تتكلمين ؟ فالعالم يموت من حولي وأنا أشهده.

وخبطت رجلي أكثر.. أكثر فأكثر.. فتحرك شرطي المرور وانطلقت صفارته : إنها تأمر بموت الموت.. بابتداء الدبيب.. بانتصاب الوجودات دون أن ألتقي بها.. بذلك الهمس الجذلان الذي لابد أن ذاك يصبه في أذن رفيقه.. وأينك أنت يا أنا.. يا ثرثرة الصمت وعجرفة الوضوح.

وسرت إليها وسط هذا البعث الرخيص والغامض للحياة.. أنقب عن صوتها في هدير القاطرة الذي يبلغني.. وبكاء الطفل وهو يشد أمه إلى بائع الحلوى.. وتبختر الحافلة في سيرها الطاووسي.. وصفوف الاشجار المنتشية بملامسة الرياح من أعلى. ووصلت : فضربت الباب.. إنني أبدد صمته وأستخرج منه الهرج وهو يغزو السكون في بقية الابواب المغلقة في الحي. لكنه ظل على صمته فظللت أضربه، إلى أن تدخل صوت جارة :

— ليسوا هنا.

وبفضل التقائي بما كان علي أن أتذكره، قلت :

— حتى أنا، لم أكن سأكون هنا.

فاستفهمتني : ماذا ؟

لم أرد. يجب أن يظل استفهامها معلقا كبحثي.. كهذا السهو الذي ابتلع ما أعرفه : أن سلمى في رحلة.

وفي عودتي.. بعثرت الخطو أكثر.. فليس لي ما أفعله بها، زرعتها على أفواه الدكاكين والمبيعات والجهد الشاب والمتخاذل في أصحابها. واستوقفني زخم الحياة المحصور بين اسوداد دكان وشرارات النار فيه.. إنه حداد شاب ينتقل اذابة عضلاته وجهده في هذا الكهف المظلم، متقبلا أوضاع قيوده في انشغالاته خاصة، دون أن يهتم.

وسيرا فسيرا. الدروب والمنعرجات. والهموم المخزونة تحت الجلود. وبائعي الحلوى !. ثم استفسار أبي :

ـ أين كنت ؟

ـ أبحث عن سلمى

ـ فتراجع غضبه ونبهني.

ـ كان يجب ألا تتأخري.

ومن غيوم وجهه أدركت ما يعانيه، خصوصا عندما لمست يده، وأنا أسند جلسته بالمخدات، ففاجأتني كبرياء حرارته.

ـ لقد كف عن طلب الخدمات مني.

شكت أمي ثم أضافت :

ـ سيزوره طبيبه اليوم.

ـ إن حرارته أكثر مما ينبغي.

النظرة المفقودة أشعلت في أبي نيرانه. وأمي التي اكتشفت ما ينقصها بامرأة تحرمه من تلك النظرة. ورجل من جيل أبي لا يقبل غلبته أمام امرأة. وكل منهما يؤدي الثمن. والبديل أين هو ؟.

ولكن لماذا لم تتركي أبي يتصل بنظرته ؟. يغرسها في امرأة بالخصوص. يلح كمحسن على أو تكون له.

ثم تركتهم..

لقد هالني هذا الثقل الذي يرزح تحته صدر الناس والارض والعالم. وشعرت بحزن لذيذ يتولد عن كل ظاهرة، وودت لو اكتسبت أحدا، لنرتمي على أكتاف بعض، ونسكب دموعا حزينة بلا ضجة، ثم نرفع رأسينا ونبتسم.

وبنفس هذا الالم المتزن قطعت من جديد الطريق التي تفصلني عن أعتاب سلمى. فوجدتها تتفرج على وعود تطفح من خطوط رسالة. وابتدرتني :

ـ إنها من سعد.

أي سعد هذا.. كيف يستطيع أن يوقظ فيها كل هذا الابتهاج !.

ـ لقد بحثت عنك في غيابك.

ـ ولكنك كنت تعرفين أنني غير موجودة.

ـ سهوت عن ذلك.

فارتسم تعجب قليل في نظرتها، ثم أعقبه ذلك الاهتمام الدفاق :

ـ حبذا لو كنت معنا، لقد كان ذلك سينفس عنك.

كان ضيق خفي يدب نحوي من صوتها، وأضافت :

ـ شيء رائع أن تمتص أعيننا شباب الحياة.

وانفلتت مني آهة. الضيق يمعن في السيطرة. وسلمى تخدم الحياة وتستخدمها. وتابعت بجذل :

ـ لقد شاهدنا مولد اليوم، بل ذلك المخاض الذي يسبق مولده، وأي مهرجان يقام لاستقباله : الزقزقة ورقة الفراشات ورقرقة الجدول وبسمة الصفاء على الوجوه البدوية.

الضيق في الصدر والحلق. وسلمى تضغط أكثر. وزفرة كبيرة توقف بهجتها :

ــ أية سلمى أنت !

ــ فتأثرت :

ــ إنني على كل حال، لست ظلاما مجسدا، إنني نفسي.. أنا سيري غدي مباهجي والتصاقي ولك ما قد أحمله وأتحمله بحس مسؤول.

وجاريتها :

ــ وما تراك قد تفعلين !

ــ أي شيء.. ما يجعلني ألتحم بشيء أو جماعة.. أذوب فيها أو أدفعها.

وكأنني أدركت : فالدموع دموعي، وهي تمسحها. إنني ضمن تخطيط تنجزه.. فملاحقتها لعذاباتي التزام فكري مختار.. فهل تحولت عندها إلى مشروع. وقلت :

ــ فهل أنا مشروعك الآخر ؟

فانطلقت أساريرها وقالت بتعاطف :

ــ وشيء آخر يا هدى.

ففهمت. أنها تؤكد المعاني الخيرة للانسان.. كالصداقة مثلا.

ولم تنته :

ــ واذن ؟

فاستفهمت

ــ ماذا ؟

ــ ما رأيك ؟

ــ في ماذا ؟

ـــ في نظري إلى نفسي ؟
غبر نفسها تريد أن تمسك بي. فقلت بتجرد :
ـــ ذاك أمرك.
فواجهتني :
ـــ وأنت ؟
ـــ أنا لا أستطيع
ـــ لا تستطيعين ماذا ؟
فغاب عني كل الحديث :
ـــ لا أدري.
فصالت على اضطرابي :
ـــ طبعا لا تستطيعين تحمل حاضرك، لكن سيكون عليك حتما أن تتحمليه في المستقبل : ككيان أو أنقاض.
ـــ وزدت ابتعادا، بينما هي في مهاجمتي دون ملل :
ـــ فأنت !.. من أنت الآن ياهدى ؟ أليس هذا الارتباك السلبي مع أن الاولى، لكل هدى، أن تجعل من نفسها شيئا غير الشطحات والنزق.
ابتسمت ببلاهة، وقلت بارتباك مستخف :
ـــ وحضرتك ؟!
فردت بسلاسة :
ـــ أنا كما قلت لك، تلك «الأنا» التي اخترت : تعلق بالآخرين وبقضاياهم وبالغد وبالفسحة وخدمة ما، وبالالتصاق بجيل بدأ يستيقظ على ما يفوته.
ولما ظللت على صمتي، أضافت :

ـ وبذا، فأنا من الأول، مستعدة لتحمل هاته الأنا.. لما تنجزه أو تهمله.. فلي ياهدى ما أستطيع أن أسأل وأسأل عنه.

وتمعنت في صوتها، ثم استمرت :

ـ وأنت لابد أن يستيقظ فيك ضمير هذا الجيل.. وإذا ما حاولت أن تكوني له فماذا تجدين ؟.. اذن فمن أجل تلك اليقظة المتوقعة، عليك أن تراجعي من أنت، وأن تبحثي عن طابع.

فخرج من منطقة غلبتي :

ـ كيف أملك أعينا مغمضة ولسانا أخرس وعقلا لا يتحرك ! إنني لا أستطيع.

فاهتاجت :

ـ طيب، إن كنت لا تستطيعين اقتدارا بشريا، ولا تقدرين أن تخنقي رجفة الانقاض في أعماقك، فجربي استطاعتك فيما تعكسينه : اخطفي نجما أو مزقي أديما.

ثم لم تكتف :

ـ الحقيقة أنك أنت والطابور الخامس والحكام والانظمة واليأس وقابيل : جرثومة الدمار ونطفته.

فانطبع على وجهي استخفاف ذاهل، وقلت :

ـ كالحياة.

فثارت كما لم يحدث من قبل، وصاحت :

ـ هي الدمار في اعتقادك، لكنها عندي، هي هاته «وأشارت إلى الرسالة قريبا منها» وهذه : (مجموعة أوراق عمل) ويوم أمس، وعنادك، ومارأهن أيامي له : إنها الدقائق بلا فراغ.. بلا تطاول كسيح، أو اهتياج أجوف.

تركت صوتها يصول. وقمت أتسمر عند النافذة. ثورة من هذا النوع

لا تهمني. سلمى أمام آخر والغضب يسكنهما معا. وأنا ما يهمني ؟

وانتبهت على صوت :

ـــ إن الوقت وقت الغذاء.

* * *

.................)

واستفسر سعد :

ـــ وهاته المسرحية من تأليف من ؟

ـــ من تأليف الطالب محمد الاكحل، واخراج محمد الاشهب، وعرض فرقة براعم المسرح.

ـــ الامام الحمداوي :

مسجد الحي يعرف في كل وقت صلاة امتلاء كبيرا، ذلك أن كل السكان، قد ارتبطوا بالمسجد وبما يمثله : بذلك الحنين القديم وبتلك العادة وبذلك التواصل الذي استطاع أن يجمع بين المكان كمسجد، وبين الناس كمصلين. لكن أحذيتهم : أين هي ؟ البحث هنا وهناك. من أخذها ؟.

الاستفهام على كل لسان وفي جميع الاعين. فمن تطاول على المتعبدين في بيت العبادة ؟! وسألوا الشيخ الحمداوي، إمام المسجد، أترى بركاته، واكثاره من الحمد، (حتى لقب بالحمداوي) يستطيع أن يتنبأ بشيء، وأن يفضح السارق.

وأشار هو بطرف خفي إلى كثيرين.. إلى كل من لم يدخل المسجد، بصفته قد امتنع عن أن يكون مع الآخرين : ثم إلى مقدم الحومة بصفته مسؤولا صغيرا من السهولة معاقبته، ثم إلى

عابر سبيل، كان قد مر صدفة على باب المسجد والناس يصلون..

وطال البحث في كل اتهام، إلى أن يصل إلى نهايته : البراءة. لكن أحداث افتقاد الاحذية تستمر.. أي تحد هذا !. وملكت المصلين غضبة كرامة وقرروا : سنقوم كلنا بالبحث..

وتكتلت جهود كثيرين.. كل أولئك الذين قد سرقت منهم وسيلة حركتهم، ليفجروا المسرحية عن ادانة : الامام.. الشيخ الحمداوي نفسه !

نظرت الاستاذة إلي، ثم قالت بدلالة :

ـ قم بنا يا أستاذ سعد.)

* * *

ولذ لي أن أتناول هذا الغذاء. ففي صوت أمها اعتداد طيب غمر أستاذية سلمى. وكانت أختها الصغرى تبرقش عمليتنا الآكلة بلون من الجذل. وبغتة.. ذكرتني بأولئك الذين التصقت بهم : اخوة محسن. فتمنيت لو رأيتهم الان. ولكنها كانت هنا.. هي، لا هم. فترصدت فيها كل واحد منهم.. أحملق، فيطلع وجه علي. وأرنو : فتفاجئني بسمة ليلى. وأتمعن : فيغمرني تضرع رجاء. ثم مددت يدي لأستجيب، فأتتني بالهام التي لم تكف بعد عن ابهاجنا. واعتراني احساس نشوان حار مفجوع. كنت مملوكة له آنذاك.. مع أنني مملوك آبق.. مل السيادة أو التملك فاشترى حريته بقدميه وبقي يفر.. يفر، يرفض القرارات وصك الاستعباد ولا قانونية القانون.. ويهدم.. يرفس بقدميه الطرق المسدودة ويفجر من ارتطام قدميه بالارض. النحيب والشهقات : لعله يبلغ. ولكن هاته تلوح.. طفلة في عمر السذاجة تلتف في هاته اللحظة.. كالآخرين.. ككل الصغار.. كالبراءة التي ضاعت مني.. لتوقف قدمي الهاربتين على حضورها.. عليها وهي بين يدي أتمعن

فيها كجزء من هذا العالم.. كيف أنه يتفاعل.. يوزع بسماته ويحاول أن ينفلت من قبضتي ليتصلق بموضعه من اللعب والارض.

واستدارت إلى والدة سلمى وهي تقول :

ــ إن اهتمامها باللعب مفرط كما كانت سلمى في عمرها. وتذكرت ما كانت تقوله أمي عن طفولتي :

ــ من صغرك كنت متعلقة أكثر من اللازم، بل كنت كأنك تحملين قنوط الكبار.

ورحل تفكيري بين طفولة سلمى والهام وطفولتي : فمن الأول يتحركان هما فوق عالم ويتناولانه، يباشران اجزاءه باللعب ويأخذان منه ابتساما. أما أنا.. فكابنة أختي نعيش في النفي الذي نحمله ليتفجر العالم فوق رأسينا من بعد كفقاعة.

وفاجأتني رغبة : لو أرى كل الاطفال.. طفولة كل النساء والرجال.. يفاعة الاشياء والعلاقات والاندماج. كيف يكون الاتصال انفصالا، والاقبال حدودا، والتكتل تفردا ؟. ولكن السيدة مريم تدخلت :

ــ لم يبق لكما إلا أن تذوقا هذه الحال.. أن تكون لكما ابنة.

فابتسمت سلمى، وانتفضت أعماقي : إن لي أبنائي.. ففي ذلك اليوم البعيد، حينما كان البحر يخبط السكون، ويتطلع إلي من خلف المرسى والشواطىء والدارات، كان الصغار يغنون لحياتهم فوق نحيبه، ويتعلقون بي، دون أن يدروا أنني جزء منه.. شهقة من صراخه.. عواء من رعونته.. لعنة من دمار يتطلع إلى لحظة الفناء : إلى أي خلاص.

وقمت كمد انفك من جزره، ليبلغ ساحلا عليه أطفال يلعبون.. أطياف الهام وقد طلعت فيهم، وهم فيها وفي غيرها : في أطفال العالم وهم باللعب ساهون : وقالت نظرة سلمى : الى أين ؟

ـــ إنني... أريد أن ألتقي. وأفصحت. سأذهب. وقالت أمها :

ـــ الامسية طويلة، فابقي معنا قليلا.

فتوجهت سلمى إلي :

ـــ هل ستذهبين إلى البيت ؟. إن علي هذا المساء، أن أنجز موضوعا واعدت سعدا باتمامه، ولقد سألني عنه في رسالته.

فتفرست في صوتها ووجهها وأنهيت : إلى اللقاء. وكان هناك.. خلف عتبة البيت الذي غادرته، هدير مكبل وأصوات جذلى : لقد طلع البحر والاطفال من أعماقي.. فهناك الضدان يستقران : قيوده قوة وطلاوة بهجة.. والعالم رغم ذلك يرحل كأنهما السلب والايجاب في رحلته، أما أنا ؟ فشاهدة الصراع دون أن أخوضه، بطفولة وادعة أو عنف مدمر. وسرت.. والعالم بعيدا يسير، في كتفه طفولة ورعد وحوالي الخواء.

الخواء !.. وأظل ألفه حول قدمي، كخطواتي.. وكهاته الدروب والأزقة وأنا.

.. لكن الطريق إليهم لا أعرفه. لم أسأل أحدا قط عنه.. وحتى اليوم، حينما فكرت أن أسأل، فإن العالم قد تكور على بعضه، وحمل طاقته : طفولته وزمجرة شبابه و لم يتراجع.. لم ينتظرني، لأبحث في كفة طفولته عن وجوه صبية أعرفهم.

وملأني احساس بالغيظ.. أين الصغار الذين من أجلهم أعدو ؟ ثم خامرني شعور بأنهم أضحو زادا للعالم لا أبلغه :
طاقة حرارة في ثلجية دوامته، لأظل أنا وشوقي نترنح.

حملت ظلال المساء وتعبي وفتحت باب بيتنا. كانت فيه ضجة مهمومة.. إن أبي سببها، فهو قد انجرف مع مرضه إلى حالة استدعت حضور الطبيب مرتين، وحضور عمتي ونحيب أمي : فضغط الدم وتوترات قلبه في صراع.

وتلقفتني أمي بتأنيب :

ــ أين كنت ؟ أبوك يعاني كل هذا وأين أنت !. سألنا عنك سلمى فقالت إنك خرجت.

تركتها، وانحنيت أحاول البحث وراء هذا الوجه المدعوك بالصراع والمغالبة عن وجه أبي. ولكن الطبيب ابتدرني :

ــ رجاء المحافظة على تركه في الهدوء.

فانغرس في عذاب من صوته : فلماذا يقيم بيني وبين أبي صوته الآمر !.. إن أبي يملك صوته، وهو يستطيع أن يدمر به هذا الصوت المثقل بالعقاقير والوصفات، ليطلع به لافحا ضاجا بالرأي الخاص : بلا وصفات محفوظة.

وغافلته لأبحث عن أبي وصوته، ولكن نظرة الطبيب ترصدتني، وقال بعتاب :

ــ أرجوك.

فأخذتني عمتي من يدي، ثم رميت نفسي على صدر باب ولم أتنبه أين كانت نظرتي، ولكنني سمعت صوتي يسأل :

ــ أين يسكن أهل محسن ؟

فامتعض وجه أمي، وقالت بنقمة :

ــ لا أراني الله وجههم، فكل هذا بسببهم.

وكدت أقول لها :

ــ لا، بل لأنك حرمت شيخوخة زوجك من سلوته.

ولكنها ابتدرتني بتجهم :

ــ ولماذا تسألين عنهم ؟

فقلت كما اتفق :

ـــ أسأل عنهم.. أليس علي أن أسأل عنهم ؟.

فاستغربت :

ـــ ماذا ؟!

فأفصحت :

ـــ أريد أن ألقى صغارهم.

فعاتبتني :

ـــ وهل في هذا تفكرين !. ألا ترين أباك ؟.

ـــ فقط لأتأكد من أن العالم لم يسرقهم.

ثم تنبهت فاستدركت :

ـــ لا، لا، أقصد، إنني اشتقت إليهم.

ثم انحرفت، وانكببت على وجه الطبيب أستوضحه بنظرتي، فقال عند خروجه :

ـــ يلزم الحرص على عدم تعرضه للتّوترات، فالهدوء ضروري مع العلاج.

أصبح الصباح، فكان كريها كيوم أمس. إنني لا أدري كيف سأتقبل هذا الوهن القاهر الذي يمرح على أبي ؟ وأدركت أن الصباح أكثر ثقلا علي من الليل، فالليل، كان يستهلكه القلق وسنات النوم، ولكن النهار والوضوح ووضع أبي وما علي : كل ذلك كابوس.

وحضرت عمتي وفمها لا يفتأ يردد خوفها على أخيها وعرس ابنتها، كأنها ترى في مرضه تهديدا قائما ضد العرس لا تقابله بغير قولها : سلامتك يا ربي...

وهذا الرجاء الأبله، كان يجرحني، بحيث يحولني إلى غيري، إلى خوف

كبير في صدر طفلة صغيرة أبوها مهدد. وجلست قربه، كأنني أحميه من خوفها وصوتها ومرضه.

.. وبلا ترقب، أخذ يغزو الراحة، فتسربت بهجة أنثوية إلى عيني أمي، واتخذ صوت عمتي لهجة اطمئنان، وهربت أنا من تراكم الوجوه التي تسأل عن أبي.

دلفت إلى الباب مع عمتي، ثم خرجت في أثرها. وهناك، خلف جدرانهم وداخل أدغالي تنفست. وسرت خطوات.. ولكن إلى أين ؟ فالعنوان لم آخذه من أمي. وتذكرت محسنا. إن الثواني والدقائق تتراكم عليه كجدران. وأين هو ؟ وتمنيت آنذاك لو صادفته.. لو زحلقت جدار الثواني بعيدا وأمسكته.. أتذكر به أياما عرفناها.

قلت هذا، وركضت إلى غيره : إلى بيتنا حيث أبي. إن نظراته التي غمرها همود مفاجىء تشدني. فبودي لو طردت منها الهمود وغرست عوضه ذلك اللواء الخفاق الذي كان يعلن من قبل، نصر صاحبه.

وقال بعتاب :

ــ أين كنت ؟

فخرج من فمي :

ــ رافقت عمتي قليلا.

وجلست : أرقب كيف يتمسك بأية بادرة من بوادر الاقتدار ليعلن عافيته، فيبدد من وجه الزائرين ما خلفه مرضه من أثر في أسرة تترصد فرحة زفاف.

كل هذا التواصل الصامت بين أبي وبيني، هيأني لأن أظفر بغيابي عن زفاف الأسرة ذاك. شاركت فيه أمي وأختي، وتربعت أنا قريبا من أبي.. أشهد مرضه ووحدتي كأننا معا.. هو وأنا.. مطرودان من عالم البهجة،

لأن أبي قوي، رضخت قوته أخيرا لضعف. ولأنني أنكر كل بهجة لا أصنعها بوعي.. عكس ما يصنعون.

* * *

(لم أرد في ختام العرض أن أفسد عليها صمتها. ولكنني سألتها من بعد :

ـــ ألم تتحدثي مع نفس الطالب حول هاته المسرحية يا أستاذة ؟

ـــ لا

ـــ لماذا ؟

ـــ لا داعي للنقاش الجانبي. فهو قد فهم مسؤوليته وباشرها، فلماذا نضيع التغيرات بكثرة الحديث فيها.

ثم أضافت : بل لقد اتخذ كل منا سبيله ولم أجد ما أقوله، فاستفسرت :

ـــ وما هو هذا السبيل ؟

ـــ هو تجربة كل السبل، وتوليدها من أجل البحث عن السبيل الاساسي بالاخص..

ـــ ماذا تقصدين ؟

ـــ لقد أصبح الفن موظفا لتغيير الواقع بعد فضحه، وكل ذلك هو مما سيجعلنا ننتصر على الدمار والغياب : سواء في الداخل أو الخارج.

كان وجهها جادا. لكن يظهر أن تشويشا يداهمه. انما كيف أفهم ؟).

* * *

حضرت سلمى.. كانت تحمل كتبا واهتماما.. وردت على فرحة لقائي بها باعتذار.

ــ كما تعلمين، كنت في شغل. ولقد حاولت أن ألتقي بك مساء أمس، ولكني تأخرت في الخزانة. وأضافت : كيف الوالد ؟.

سرت واياها وأخبرتها بغياب أمي وأختي هذا الغياب الذي ترك لي صفة الضرورة التي لم تكن لي. فأنا، وفي هاته الحالة بالذات، ضرورة لانفرادية أبي ومرضه.

استفسرته وجلست بعيدا بوقار، كأنها تلبس المرض جلالا يستحقه. فيبعث في وقارها ذاك، لمحة فرحة خاطفة : فأنا ضرورية أيضا لجلال المرض ووقار سلمى.

وظللت مع الومضة الفرحة، أنعشها بموقف سلمى ودعة أبي وصلف القنينات على الطاوولة عند رأسه. ثم اتخذت أخيرا شكل سلمى، لأنني سيدة الموقف والكآبة ووجع أبي.

وقالت سلمى بعد حين :

ــ حتى هذا المساء وغدا عندي أعمال لم أتمها. فمن الضروري أن أتم هذا (وأشارت إلى أوراق في كتاب) ثم علي أن أنجز لقاءات للغرض نفسه وأن أبلغ النتيجة للجماعة بواسطة سعد.

وودعتني، بينما الضرورة، ضرورتي أنا، لم تفعل. فقد كان أبي لا يزال ممددا يعاني وضعه لأباشر ضروريتي.. بحيث أن يدي ضرورية بين فمه والنقط العشر والحبات وكأس الماء واستقبال الممرض من أجل الحقنة.

وتعجبت بتلذذ وأنا أرنو إلى أبي بشبه اعتراف، كيف أنه هو نفسه، كان وسيلتي الوحيدة لهاته الفرصة، لأن أعثر على أهميتي بالنسبة لظاهرة وشخص. ولكني سرعان ما استدركت : ليس وحده، بل عرس ابنة أخته

أيضا، فهو الذي امتلك حضور أمي وأختي، ومنحني غيابهما ضرورتي.

وتململ أبي، فتحركت. ولكنه كان تململا غير ملح، فعدت لجلستي وأنا أفكر : هما معا، المرض والفرح خلقا ضرورتي !.. أية ضدية هاته : كيف يتواجد الالم والفرح من أجل اعطاء حاجة.. حاجتي بالذات، لأرتكز فيهاإلى أسّ متناقض، كتناقض جميع الاسس.. كتضارب جميع القواعد وكل ما يمكن أن يركن إليه.

هذا الادراك أفسد علي بهجتي. فأنا نفسي أتآمر ضدي، اذ كيف ركنت إلى تضاد لأوهم نفسي بأنني حاجة : ضرورة بعينها. وأعاد أبي تململه فلم أتحرك، فعن عمد رفضت مباشرة هذه الضرورة، لما اكتشفت أن قاعدتها في التناقض : الفرح والالم.

وزدت أفكر، وأنا في حالة تقبل للموقف الذي اتخذته من تململ أبي : فلو كانت هاته الضرورة منسجمة مع نفسها.. لو ارتكزت على حالة بمفردها.. لو كانت ألما أو ابتهاجا، لكنت قد توقفت عندها الآن، وباشرتها كحل للّحظة ذاتها. أما وأنها انعكاس للظاهرة الاصل.. لجمع التناقضات على بعض، ولخلط كل شيء لتفرض عبثيتها علينا، فذلك ما لا أقبله.

عند هذا الرفض، كنت مهيأة لاتخاذ ما يؤكده، ما يثبّت صلة واضحة بين أفكاري وتصرفاتي : قمت بهدوء من يملك يقينا طارئا وخرجت. في داخلي رضاء لأنني لا أرفض رعاية أبي، ولكنني أبحث عن سبب متطابق مع بعضه، لمباشرة هاته الرعاية باقتناع.

تفرست في الوجوه بدعة الواثق من الانسجام مع ما ينجزه. فهاته الخطوات.. هذا الانجاز، ينقلني بعيدا عن أبي.. عن التناقض الذي هدد حركة يدي وهي تمتد بشيء إلى فم أبي.. لأنني لست ضرورية لشيء أو أحد.. فكل يكتفي بمن هو، دون أن تترصد حياته حياتي ودون أن أشارك أبي فيما يعانيه : وحيد أبي.. مع ألمه وحيد.. معي وحيد، ومعنا.

وتسربت الوحدة بعيدا بعيدا في : فضعت عن الوجوه التي كنت أتفرس فيها من قبل.. بل ضاعت هي في حدودها.. وانتصبت الجدران وتحول السائرون والمسرعون والمتمهلون والراكبون إلى تمدد مريض.. كل يشكو من دائه .. ولا يد تمتد بدواء أو ملامسة أو ائتناس. فالجميع أبي.. وأبي أنا.. وأنا مريضة.. والجهل هو دائي : وأين أية معرفة تدخل حدودي بلا جمرك، تخترقها لتبلغ شفة روحي فتجرعها رسوخا أو اعتقادا أو أي سهو.

غياب.. السير الغائب أسيره.. أريد وأريد.. أريد جرعة لا عطش بعدها ولا نفي.. أريد عالما بدون زنزانات.. أريد منطلقات واضحة.. أريد أسسا بلا تناقض.. أريد اقتدارا يحفظ لبشريتي ماء وجهها.. أريد ياما أريد فيما أريد ومالا أريد.. وصاحت سلمى :

ــ مالك ؟

استيقظت :

ــ أنا !

ثم لمست جبهتي بأصابع ترتعش، وتنبهت : سلمى في وقوف مستفهم ملحاح، وعلى المكتب أمامها أوراق. وأضافت :

ــ أبوك بخير ؟

ــ لقد تركته.

ــ تركته، لماذا ؟

ــ لأنني تركته.

في شيء لا يقبل الحوار.

ــ وماذا فعلت ؟

ــ خرجت

ــ وكيف هو ؟

ـ كما هو... أوف.

لملمت أوراقها، ثم قالت لأمها :

ـ سأقضي الليلة مع هدى، فهي لوحدها مع أبيها المريض في البيت.

كانت كل منا تقطع المسافة في الصمت. وكانت خطواتي تبلغني كالعادة، ضاجة بالبحث الشرس والنحيب السحيق. وكان العالم تحت هاته الخطوات كما هو، مكوما على بعضه مبعدا في مجاهل لا أبلغها. وأضرب أضرب والايقاع الحزين يتفجر. والحزن في تلك المجاهل وأعماقي ورشد سلمى يؤلمني. وتذكرته :

ـ إنه مريض.

فاستقرت على عينان مضخمتان بتعبير متضامن، ثم جذبتني بعنف، فقد كانت سيارة تمرق بعنف وكنت في سهو عنها : كتلة الشدة والرقة والفهم والتجاهل وحمل الصخرة الأسطورية واللولبة بها حول المحور الجامد هي. حملقت فيها بما يشبه النفور ووددت لو نبتعد.. لو تتحرر خطواتنا من الايقاع المشترك. لو تذهب كل واحدة إلى منفى يخصها، لو..

... وحينما كنا، هي تسير وأنا أؤخر الخطو لأمزق الشيء المشترك بيننا، ثم كنا قريبا من عتبة غرفة أبي عرفت أن محسنا في البيت ينتظر.

فانطلقت وصحت برعب :

ـ محسن.. أنت ! أين كنت ؟ فماذا تقول ؟. إن الكل صامت وأنا من ذلك أكاد أجن.

فك يده من قبضتي. فيه هلع. حيا سلمى، وقال بلا فهم :

ـ سيشفى وسيتكلم.

وتولت سلمى البقية. أخذتني من يدي. في رأسي محيطات تتلاطم. وزاد يقول :

ــ لم أظن أنه مريض كل هذا المرض.

كلنا مريض كل ذلك المرض. لكني أنا غرقت فيه.

ــ تكلم.

فرمى نظرته بين سلمى، وبيني، بينما حاولت سلمى أن تجلسني، حيث تفجرت المحيطات وانهالت من عيني أنقاض يوم بأتمه وأيام سلفت وأخرى ستأتي : إن أحدا لن يستطيع أن يقول شيئا أو يفعله.. حتى هما أنفسهما : فهي تتقبل مفهوم اللامفهوم، وهو ؟ لن يرحل إليه أبدا.

حضرت أمي في الصباح. كانت في اشتياقها لأبي كصبية. ولكن الصبا والمرح سرعان ما اختفيا ليحل محلهما خوف امرأة. وذلك الخوف، دفع بها إلى اهتمام مبالغ فيه، وإلى حركات اعتباطية وإلى نوع من التصرفات الغامضة. لقد كانت حزينة.

لكن الحزن بجلاله وقداسته اندحر، فبعد أن امتنعت من جديد عن الذهاب إلى العرس تراجعت :

ــ لا يليق أن نغيب معا، سوف أذهب.

فابتسمت بأسى. فلا حزن ولا فرح بالتمام. فستحمل بين أجفانها تمدد أبي، لترى تلك الاجفان نفسها عروسين، فيكون في تلك الاجفان : البدء والنهاية.

وفي المساء، حضر محسن وأبوه. ولكن أبي أين كان ؟ لقد كان مريضا بالفعل، فلم تطلع في نظرته تلك الدعوة للبقاء، حينما كان والد محسن يذكره بوالدته، وإنما كان يجهد ليرد على استفساراتهما، حتى عندما قال والد محسن :

ــ كانت السيدة ستحضر، ولكن محسنا أخبرنا بغياب أهل الدار.

فإن أبي ظل في حالته، اذ لم ترتعش منه نظرة أو جارحة. فتأكتدت

بسبب هذا بالذات، أنه على أعتاب حالة أخرى غير التي تؤهله لها نظرته وصرامته.

في الاعصاب براكين، وأين أي دمار حقيقي أشهده. ولكني لا أملك وسيلة للفعل. بل انتفضت أعماقي عن رغبة ومحسن يقول :

ــ غدا، لابد أن تتغذي معنا لتتعرفي على صديقي الذي قلت لك عنه، قبل أن يعود إلى الرباط، في انتظار مغادرته المغرب نهائيا.

وقالت تلك الاعماق : و لم لا تأخذني الآن ؟ بينما أجاب صوتي بالقبول.

كان ضغط الانتظار يدفعني لأن أستعجله، خصوصاً وأن أمي وأختي قد حضرتا. فلم أتحمل.. بل ذوبت ذلك البطء الثعباني في ذهابي باكرا : لكني ذهبت بغير شوق للصغار، فلقد انبطح فوق شعوري ضيق مباغت، و لم أعد أجد شيئا غير براكيني المطفأة، وفتيلة أبي التي تعبث بها هبة ريح متقنة. أما هم فانهم هنا : يستعيدون جذلا كان لهم فوق شاطىء، بينما أبي هنا.. والموت والحياة يتصارعان : حياتهم وموته.

بين هاتين الحتميتين أضيع أنا، ولكن حينما تمدد علي بجانبي في حركة رضاء، تسللت نظرتي لتعبر تمدده.. طالت جولتي في التمدد الكبير : كان جسد أبي لا جسده.. عبرته : ففاجأتني الملامح الصبية والبسمة المطمئنة وانتصار الجنس : آدم بالاصول والفروع، يستهزىء في بسمة هذا الوجه الطري من جسد أبي المسجي تحت الأغطية.. ثم زدت فرأيت ؟ الموت والحياة.. جسد أبي بموته ووجهه الصغير بحياته : والعملية هي نفسها.. وهل هذا انتصار ؟...

رأيت كل هذا في لمحة، ثم ارتعشت أجفاني، فلم يكن غير الصغير وعيني مثبتتين عليه بلا نشوة. وتدخلت السيدة خديجة :

ــ انهم قد اشتاقوا إليك.

فانتشلني محسن :

ــ لقد حضر سلمان.

قدمنا لبعض. انسللت إلى جلستي وتكومت. كنت مبعدة بما فيه الكفاية، ولم يفلح في جذبي بين الحين والحين غير الرواء العجيب الذي اصطبغ به وجه محسن. غرست فيه نظرتي أكثر، وأخذ كل ما مر يعيد نفسه : أيامنا والليالي. وأوقفني صوت محسن :

ــ مالك ساكتة ؟

ثم أضاف بلهجة لا تخلو من أمر :

ــ تكلمي.

فانتفضت وتذكرت أن أحدا لم يملك أمس أمس ولا كل أمس أن يتكلم. ومن غرقي استخرجت جوابا حقيقيا :

ــ لم يعد الكلام يملك أن يتكلم.

لاحقتني نظرة الآخر، سلمان واستفهم بود :

ــ ولماذا ؟

فأجبت بذات الاستفهام :

ــ ألسنا قد استهلكناه دون أن نقول شيئا ؟!.

فانطرحت على وجهه ملامح بسمة :

ــ أهكذا تفكرين ؟

ــ وهكذا أتكلم.

ــ ولكنك ذات نظر في الكلام

ــ حينما أتكلم، وأنا بهذا الرأي، فإنني لا أقول شيئا ولو أنني أتكلم.

فانفلتت منه قهقهة لا تخلو من مبالغة، بينما تدخل محسن :

ـــ إنها ذات آراء خاصة، فهي تحير.

فتركه وترك ضحكه وتوجه إلي :

ـــ ولكن الكلمة حركة وفعل.

ـــ أيريد أن يعلمني. فهززت كتفي :

ـــ وما الكلمة وما الفعل !! أتريد أن تجعل من الفرضيات بديهيات ؟.

حملق في وقال :

ـــ لا. ولكني أريد أن أعرف : هل دعوتك هاته للصمت، لا تملأك بالرعب، كما ملأ الصمت اللانهائي للكون باسكال ؟!

ـــ ذلك الرعب، هو ما أوقف البشرية عن تفجير صمت الكون، لاستكناه أسراره.

حاول محسن أن يتدخل، ولكن «سلمان» أسكته، حينما ضرب بخفة على يده، واتجه إلي وعليه ملامح استغراق :

ـــ قد نكون متفقين.. إنما ألا ترين أن أبطال الكلام، أي أبطال اللغة هو ابطال انسانية الانسان.

فرددت له استفهامه :

ـــ وهلا ترى أنها واسطة عاجزة، تزيد في اثقال الانسان عن الاتيان بالحركة الاصل، والتعبير الاصل، من أجل الوصول الحقيقي إلى الفهم والمطلق الانسانيين ؟!

فكر قليلا قبل أن يستفهم أيضا :

ـــ معنى هذا، أنه يجب أن نتخذ موقفا من الحوار الداخلي... من التعبير (اللغة) الذي يوجد خلف الشفتين، خصوصا وأن اللغة في حد ذاتها غير مستطيعة أن تعبر عن حقيقة الاشياء والحالات ؟.

رميت يدي. كنت بتلك الحركة كمن يزفر، خصوصا عندما يطلب مني أن أتخذ موقفا، أدرك أنني لن أسير معه إلى النهاية، وقلت :

ــ اذا كنت أرى أن اللغة هي دون الافصاح الحقيقي عن متناهيات الادراك الانساني، فإنني في نفس الوقت أرى أن هذا الادراك نفسه، هذا الذي هو فوق الوسيلة المستعملة لتوضيحه : اللغة، أنه هو نفسه ينعكف على نفسه أمام جلال المجهول وانغلاقه، ليصبح هي وهو، قصورا عاما في الادراك والتعبير.

ذهبت نظرة سلمان خارج الجلسة، وكذلك فكره. ثم عاد :

ــ لقد جعلتني أتذكر إحدى الآراء الفرنسية التي قالها تاليراند : إن اللغة وسيلة لاخفاء آراء الفرد. غير أن آخر يرى أنه ما دمنا لانستطيع أن نصمت، فعلينا أن نصنع الصمت باللغة.

ــ وابتسم هو، فطلبت أنا :

ــ لكن ما هو رأيك أنت ؟

فاعترض محسن :

ــ لو دخلنا إلى الآراء، فلن نخرج منها، خصوصا آراء الدبلوماسي.

وأجاب سلمان :

ــ كما قلت لك، فنحن متفقان بشكل من الاشكال : فكلمة مستهلكة، عاجزة كما وكيفا، ماذا تستطيع أن تقول أو تفعل أو تؤبد ؟! إنها ليست غير تدمير لجوفائية الكيانات وغطرسة العالم وغموضه : إنها انتقامنا.

ــ اذن، فلا زلت بذلك، تتشبث بالصوت رغم صداه الاخرس، بينما لو استطعت أنا، لارتكنت إلى رفضه، لأن الصمت نمط للكلام الاصل كما يقول كيركغارد.

فاحتد محسن :

ــ إنها ترفض كل شيء.. فلماذا نتابع هذا، ان علينا أن نعيش فرحة زيارتك.

فاستدار سلمان نحوه، وسأله بلهجة غير واضحة :

ــ أهي صديقة من زمان ؟

فلم يفتعل محسن صفة المتعب حينما أجاب :

ــ من مدة.

فانطبع تفكير واضح على وجه الآخر، ثم أفصح :

ــ كيف.. هكذا !.. أنثى من العالم الثالث، نبتت جذورها في أعراف مدينة تقليدية، تنتصب في صلف، لتطلع على اللحظة : بالاوجاع العريقة للانسان.

ورددت بلا اهتمام :

ــ وما الفائدة !.

فقال محسن :

ــ الفائدة أن نخوض في غير هذا. ثم استدار نحو سلمان باهتمام انتزع الآخر من تهويماته :

ــ كيف حال الأسرة.. اتصلك أخبار عنها ؟.

فأجاب سلمان بعد لأي :

ــ نعم، هم بخير. لكن (المعز) كان مريضا، مجرد توعك. يهمني أن يشفى ليكون قوي البنية في روما.

فتذكرت المرض الذي بيبتنا. وتساءلت : ألا يكون هو أيضا مجرد توعك يزور قليلا ثم يرحل.

وقال محسن بمزاح :

ـــ ألم تشتق إليهم، لقد طالت الغيبة.

فتحرك الوجه الواثق ببسمة طفيفة وأجاب :

ـــ ما الشوق وما عدمه ؟!

وتدخل شوق ما، طارىء وداخلي، وأجاب بلا صوت : كاشتياقي الحالي لمحسن.

بينما أضاف سلمان :

ـــ أنا هنا، كأنني هناك أو في أي مكان..

فقلت بذات الصمت :

كنفس الشيء في العلاقة بيني وبين محسن، إن كل ذلك يبقى هو هو.. لا يؤخر ولا يقدم.

ولكن محسنا ألح :

ـــ ومع ذلك فهناك شيء آخر.

فرد سلمان بتجاهل عفوي :

ـــ سأرحل قريبا.

فقال محسن بصدق :

ـــ سنشتاق إليك.

كما أشتاق ولا أشتاق إليك أنت في ذات الحال يا محسن.

ـــ لكن أترى روما ستنسيك الرباط، حيث الاصدقاء ؟

وعوض أن يجيبه استدار سلمان إلي وابتسم :

ـــ أعدت إلى الصمت ؟!

ثم استمرا يصنعان غيره. الحديث. يتزحلق بين المواضيع واللقم. وكان سلمان لا يبخل بالضحك، إنما يظهر عليه نوع من التجاوز : تجاوز كل

شيء : الحديث والضحك والجلسة. وتفرست فيه، فوجدت أنه يملك كل وجهه... يسيطر على أنفه وذقنه والتوترات الخفيفة حول فمه. والبقية ؟ عيناه ونظرته.. إنها صاعقة، ذلك لأنه كما لاح لي، يعيش تجربة حياته بالوعي والتوغل، ومن ثم كان يتمزق.

سارت الجلسة إلى نهايتها.. وقال محسن :

ــ رافقينا.

كنت أعرف إلى أين.. إلى جولة في المناطق القريبة. وجاءتني رغبة : فلماذا لا أرافقه وحده ؟ إن بهاءه الحالي وهمومه يدعواني إليه.

وتدخل سلمان ووجه الحديث إلي :

ــ لنقل كلاما أكثر، وميتا أكثر.

ولكني اعتذرت، فقال :

ــ اذن، فأنت تصرين على السكوت : على الكلام بالصمت.
فابتسمت :

ــ ذلك الزام آخر.

وبعد خطوات، لحق بي محسن، وقال بعذرية :

ــ هدى، لماذا لا ترافقيننا.. إنها أمسية واحدة بعد أن ضاعت أماسي.

ولكن عيني وقعتا على الآخر. فأتاني جواب فظ سريع :

ــ لا يمكن.

كنت أريده لوحده. أما أن يجرجرني وراء حضورهما الضاج.. فما الفائدة ؟.

ووراء الباب تذكرت الاطفال وأمهم.. لكن كان هناك محسن برجائه الحي، فأين الآخر.. حتى هو أين هو ؟.

لم أعرج صوب الطريق التي تحملني إلى بيتنا. فكرامة الانثى في قد أهينت بشكل ما ؟ وظللت أتساءل : أهذا صحيح، أم أن ذلك الوجود العنيد الصلب غير المضبوط، يطلع في بين الحين والحين، لينشر تحليلاته الخاصة غير المتطابقة مع التصرفات العامة..

وفي غمرة هذا البحث الصغير تساءلت : وماذا بعد ؟ فبعد أمسية أنت ومحسن ماذا يبقى ؟ فمحسن هو محسن وأنت هي هي، والعالم يتقوض ويتشكل. وقفز إلى ذهني كل من علي وأبي.. نفس التواتر.. فالعامل يحقق نفسه من تناقض وحزن وجذل : سوف أذهب.

وأمامه : أبي، لم يكن إلا هو. ابتدرني وهو يراني قد اتخذت أمامه جلسة مضبوطة : وضعت وجهي بين كفي وسمرت عيني عليه فسألني :

ــ كيف هم ؟.

عينايَ مسمرتان، وفمي في الصمت. وهو يعيد :

ــ هم بخير ؟

فقلت بارتجال :

ــ بخير.

فطن الخير في أذني على غير حقيقته. فهو يحاول بهاته الكلمة أن يربط بين أبوي الاثنين : الذي كان وهذا الذي يكون.

ــ الصغار فرحوا لما رأوك ؟

كما قد تفرح أنت برؤية أمهم. قلها. إسألني.. وحينما تفعل، يكون خلود سخيف هو الذي يفعل.. الذي يهزأ في مغالبة، بعبث الرتابة والتكرار والموت وغدر الزمن.

وتذكرت بما يشبه الشعور بالذنب : كان الأولى لو اتصلت بها في الطابق الاسفل من البيت قبل مغادرته، واستفسرتها : هل ستزورنا ؟. ولذلك

فحينما وضعت عيني عليه هاته المرة، كنت مدينة له بهذا الخطأ. وقلت بما لم يسمعه : ذنبي الآن أكبر، لأنني أدركت أنك تعيش كل شيء في تأخير و لم أنجدك.

* * *

(الفهم : فهمها وفهمي وماذا نفعل ؟ فذلك السعد الذي كنته لم أعد هو. ولست الآن بالباحث عنه. إنما هذه الاستاذة ماذا يسكنها ؟. واستفسرتها ؟.

ــ يظهر أنك في حالة ما ؟

كنا قد خلقنا صلة تسع مثل هاته الاستفهامات، «نريد نريد ونفعل ولكن..» أما أنا فقد كان الحي الجامعي يسقط كله في مجانية تامة، وكنت أريد كيف أنقذه. ومن ثم شرعنا في الحركة، لعل تكتلا يتجاوز النشرة بالحي. وأجابتني باقتضاب :

ــ كل ممارسة هي تنفيذ لفكرة جديدة.

ــ لكن أنت لست على ما ينبغي.

لم تجبني الا بعد حين.

ــ كما نحن في الحقيقة.

واحتججت :

ــ وهاته الاعمال ؟!

فواجهتني :

ــ ألا تريد أن تتركني ؟

فألححت :

ــ أهناك مضايقات بسبب هاته الثورة في التعليم التي أنت تسلكينها ؟.

فردت :

ـ إلى الآن، لا.

قالتها بسرعة جعلتني أشك :

ـ حقا ؟. أزارك المفتش ولم يعترض ؟.

ـ كما قلت لك : لم أعد مرتبطة بالمتداول، قد يكون هناك اعتراض على طريقتي من ذوي النظر القصير، أو من الذين هم ضد قضايا أوطانهم، ولكني لم ولن أتراجع. إنما مسبقا، يظهر العكس، وذلك بفضل نموذج استثنائي في سلك التعليم. ذلك أنني رافقت المفتش في امتحان كفاءة لأحد الاساتذة، وكنا نتحدث عن الطرق، فحدثته عما أفعل وبررته ثم طلبت منه أن يحضر عندي في الفصل. أتصدق، لقد قال لي : لقد أحدثت في التعليم أكثر مما تحاول فرنسا مؤخرا أن تدخله من ثورة على طرقها التعليمية، وذلك بمحاولة جعل الاستاذ في الظل، ودفع الطالب إلى الادوار الاولى في الفصول : أنت قد حذفت الاستاذ نهائيا ؟).

* * *

ضجيج الوافدين والوافدات أقلق أبي وأقلقني، فأخذت قلقنا وهربت به. كان كل ما هو خلف عتبتنا لا يشبه ما هو داخلها.. فوددت لو جررت أبي من الاصوات والاهتمامات ونقمته، خصوصا وأنه لا يصطدم فيه شيء، لأنه لا يبحث عن غير ما ينفعه، بخلافي.

ولأنني عكسه، فإنني لا أرتاح في أي غياب. فهو : العالم، في كل ثنية أو بعد أو مدى: مشوش، معدوم ومهيأ لأن يوجد، واتخذت سلمى وجهتي، كأن اللقاء بهاأو الانفصال عنها ظاهرة للجبرية العامة التي لم أكسر قضبانها بعد.

توقفت يدها عن ادارة المنديل في جوف صحن، وقالت :

ـــ كيف الوالد ؟.

أوف ! فمن هذا هربت. كيف نحن جميعا ؟ ولا يهم.

ودارت يدها دورة أخرى. أما نحن فلم نتوقف.. فلا زلنا نكرر نفس الدورة من ملايين السنين، ولا يد كهاته اليد، تقتلع المحور فنسقط شظايا.

ـــ أتحسنت حاله ؟

وهل هناك من حالة تحسنت أبدا. فمادام اليوم هو نفس الايام من القرد إلى أبي، فلا تحسن أبدا.

وأتت بحركة استطلاع مصممة. فأجبتها :

ـــ يكفي يا سلمى.

وصمتت، بينما تابع أخوها الذي معها في المطبخ :

ـــ وهم، أغلبهم ، التلاميذ، يفعلون هذا.. ما يأمر به المعلم.

فأجابته :

ـــ ولو فعلوه، عليك أنت أن تفهم ساعة الدرس.

فقال بشكوى :

ـــ وماذا سأفهم، إنه لا يشرح لنا : يقول من أراد أن يفهم فعليه بأخذ هذه الدروس الخصوصية في منزله.

ثم أضاف بتودد مغر :

ـــ الثمن زهيد.. عشرة دراهم للساعة فحسب : أرجوك، كوني جنبي إنها مفيدة.

فتراجعت سلمى بالحديث، وقد وضعت الطبق ووقفت متكئة قريبا من صنبور الماء، وقالت بلهجة استفسار مجتر :

ــ المعلم لا يشرح لكم الدرس، ولا يكون الشرح الا في بيته، في الساعات الخصوصية ؟!. والذي لا يملك ما يدفع به ثمن هذا الفهم ماذا يفعل ؟.

فرد الأخ ببراءة :

الاكثرية تأخذ هذه الدروس.. أكثر من عشرين تلميذا.

فاستدارت نحو صنبور الماء، ثم تركته واتجهت إلي وأحاطتني بكل نظرتها، كأنها معي تتحدث :

ــ والباقون ؟. هناك من يشتري الفهم والآخرون لا يملكونه !.. ترى أي مواهب تكون بين أولئك المعوزين !؟.

وبلهجة خائفة أضاف :

ــ امتحان آخر السنة !. ثم بلع ريقه وأضاف : أخاف أن ينتقم مني.

فأتمت هي :

ــ هذه واحدة من كثير.. الغش والمساومة في التعليم، أي فساد هذا !.

فتدخلت الأعماق، أعماقي وأجبت : ذلك لأنه هو الاصل.

وحملقت في. أتريد أيضا أن تكون بالنسبة إلي أخلاقا ؟!.

ــ أترين يا هدى ؟!.

فقلت على سبيل القول :

ــ هناك مسؤولون : وزارة ونيابات ومفتشون.

فردت بتعريض، وهي تباشر عملية التحريك داخل قدر :

ــ بل هناك نحن ولا أحد آخر.

ثم لأخيها :

ــ عند استئناف الدراسة، سأزور معك المدرسة.

فحل محل رجائه اضطراب واضح :
ـــ لماذا ؟! هل ستقولينها للمدير ؟ لا.. لقد أوصانا المعلم ألا نفعل.
فداعبت رأسه :
ـــ لا، لا تخف، لن أخبره.
ثم اتجهت نحوي :
ـــ هذه ظاهرة لما يعاني منه الناس.
ـــ كما يعانون من كل شيء.
ـــ إن في مواجهتها مباشرة لاختياراتنا، لكن يجب أن يكون ذلك بشكل جماعي ومخطط.

الصمت. أحب الصمت أكره الكلام. أكره ما لم يفجر في الدماغ في اللسان لغة جديدة. أكره الحديث الذي تسجنني فيه أكره سلمى.

وفاجأ الأخ الصغير الكراهية وهو يصيح :
ـــ لا، لا، لن تذهبي معي إلى المدرسة..
وأجابتني عوضه :
ـــ هذه هي الهموم الأولى. أرأيت كيف يعاني منها ؟

* * *

فمن أنت ؟.. حتى أنت من أنت. فأبدا لم تتكلم بغير لهجة واحدة، كسلمى. أما أنا فمن البدء، باشرت علاقاتي بك كرفض للمتداول، لأباشر وباختيار، ما أوده، وذلك لأخدم اللحظة المنومة..هنيهة السهو المسروقة من حتمية الفراغ. لكن مع ذلك كنت تتركني ولو في تكوم اللحظة المشحونة بالنشوة، في المتاهة : تلك المنبوذة في أبعد الاصقاع، منفوشة الشعر، تائهة النظر، أمسك إلى فمي قارورة التخذير : أنت.. محسن نفسه، جهاز تأكيد الافتقار والعجز عن مواجهة صامدة للتزحلق حول الحلقة المفرغة الوجود.

ــ ولم هذا الاعتكاف داخل هاته الجدران ؟

في الصوت بلل، وهل أنت هو محسن، والا فمن أنت ؟.

ــ لقد علمت برجوعك فجأة إلى الرباط، فالتحقت بك. فما السبب حتى تركت أباك في المرض... و

أبي وأنت وسلمى وأين الحرية ؟ وانفجرت :

كانت تلك حالة من الرخاوة أوقعني فيها مرض أبي. ولم أدر كيف خدعت، كيف انجررت ببلاهة لأمثل دور الطفلة التي لابد لها من أحضان. لكن الان، أين كل ذلك ؟ إن على كل منا أن يتحمل غربته ويمضي.

ــ هدى.. أرجوك.

ــ يكفي.

ــ لا، لن أتركك.

رفعت عيني، أهذا هو محسن ؟.

ــ أرجوك، قومي لنغادر هاته الجدران.

الجدران في الغرفة في المغادرة في الداخل في التعبير في المدى.

ــ هدى ؟

ــ لنخرج.

وعند العتبة طلع استفهام :

ــ هل صديقك سلمان هنا ؟

ــ نعم. ولكن السفارة لا تشتغل في المساء.

ــ قد نعثر عليه بوسيلة ما.

محسن هذا، آخر طلع من الآخر، علي وأبي، التلقيح والتوالد. وسلمان في الغرفة بمنامته يدخن ويتعجب :

ـ كيف الزيارة ؟!..

كان يبتسم، وهو يتجه نحو مقعد، فأجبت :

ـ لأسألك..

ـ أنا ؟

القهقهة الدخان وهاته الجلسة وكل ما وراء ذلك الرأس وكل ذلك هو سلمان. وسلمان غير محسن.

أعاد بغير جدية : تسألينني ؟!.

ـ عن الغائية من وجودنا ؟

استفهام صبياني ولا شك. ماذا تشربان ؟. اعتكاف مجاني، أليس كذلك يامحسن ؟.

محسن قلق، لأن الآخر لم يجبني. لكن ودون أن ينسى، بل وبتمهل لا مبال استدار :

ـ نوجد لأننا نوجد

ـ وما معنى هذا

ـ لأنه المعنى وعدمه

باحتداد :

ـ لا، أجبني : لماذا نحيا ؟

ـ لأننا الحياة يا عزيزتي.

ـ لا. فمن نحن ؟

ـ نحن أنت

ـ ومن أنا ؟

ـ السلبية الرزينة.

ثم علت ضحكاته وملأ الكؤوس. إنه في جذل ضاج بالثرثرة والرفض. وألحت :

ـــ وما معنى أنا ؟

ـــ أنك لا شيء.

ـــ وما هو اللاشيء هذا ؟

ـــ هو الحياة.

ـــ ولماذا الحياة بالخصوص.

ـــ صب في حلقه كأسه ووضعه بتمهل.

ـــ لأنها اللاشيء بالضرورة.

ـــ ولماذا لا تكون بالاختيار ؟

ـــ موتي اذن.. فهو الاختيار الوحيد.

ـــ وكيف أتحمل ؟

ـــ الموت ؟

ـــ لا، الجبن.

ـــ وهل هناك من بطولة ؟!

ـــ وماذا إذن ؟

ـــ القفص.

ـــ فاندهشت :

ـــ إننا فيه

إنه يتكلم بلسانه وآخر : كأس زائد ولا شك. وخبط يده بطريقته الضاجة وسألني :

ـــ وإلى أين ستذهبين ؟

ـ الآن ؟

ـ لا، لو مت.

ـ إلى الموت.

ـ وما هو ؟

ـ لا تسألني.. هو الموت، خارج أضلاع القفص على أي حال.

ـ لا مفر

ـ مماذا ؟

ـ من القفص ذاته.. في الموت والحياة : إنه برهة الشروع في الوجود الذي علينا أن نظل نتحمله، فوق الأرض أو بين أضلعها.

ـ لم أفهم.

ـ ولا أحد يفهم. قومي بنا.

ترك منامته وقال لمحسن : هي اليوم تتكلم، فلنذهب في جولة قبل أن تصمت.

وسألت إلى أين ؟

ـ إلى الخارج، فقد نربح سلوة أو نعثر على بداية ما.

أيمزح ؟ سلمان هذا ما الفاصل بين جده وهزله.. بين عقله وتصرفه. إن همومنا توافقت، ولكنه بحر آخر.

وأضاف. وكان يصول باضافته :

ـ مامعنى الاستمرار الاعتباطي في الوحدة، رغم ضجة العالم وسخافاته.

الملابس تقع عليه، وهو يرمي صوته علي، وأنا أفكر : هذا الشخص الغامض الواضح في ضجة، أليس مجموعة من الحلول، موكبا من الفرحة،

وجرعات مدوخة لنسيان كاسح.. فمن هو ؟ لقد بدأ يدوخني. وأضاف :

ـــ لقد كنت مثلك، منفيا من قلب العالم، مرميا في رزانته القاسية من أجل البحث عن يقينياته، أشعل فيه لفائف الظلام ولا أعثر على بريقه.

أهذا هو أنت. من كنت أن من تكون ؟. أتريد أن تصول على حيرتي كيقين، كأي رسوخ.. إنني... وصاح :

ـــ تفضلي

* * *

(ـــ وقال سعد : وهذا انتصار.

ـــ فأجابت : انتصار ؟!

ـــ فأن يعمل المرء ويجد من ينصفه، ألا يعتبر ذلك انتصارا ؟.

فتمعنت قبل أن تقول :

ـــ إن الانتصار الحقيقي، هو ما نبحث عنه. فلو انتصرنا، لما كانت جهودنا ممزقة في تجارب فردية، اجتهادات شخصية قد تنجح وقد تفشل. بخلاف ما لو كان هناك تخطيط عام.. نهج تعليمي تخلق وسائله لتحقيق أهدافه.. أعني ثورة تعليمية على المستوى الوطني والقومي...

لم تتم. بل أخذت عني تمهلها، وقالت باعتذار :

ـــ آسفة إنني أحدثك، كما لو أن التعليم عندنا لا يحتاج إلا لهذا، فلكأنه يعرف ما يريد من نفسه دون السقوط المستمر في التجريب والارتجال، سواء في تخطيطاته أو تصاميمه أو أهدافه أو موارده أو وسائله أو تنوعه.

ـــ صحيح.

ـــ إنما هذا موضوع قد سقط في جب لا يبلغه صوت وذلك لغياب المؤسسات والقيادات الشعبية الحقيقية على كل مستوى وفي كل مجال.

وكأنني لم أجد ما أقوله :

ـــ وهلا يكفيك مؤقتا أنك قد حصلت على ثناء ذلك المفتش.

ـــ يا سيدي، ما أتعلق به ليس الثناء وليس التعليم للتعليم وليس التبرير الذاتي...

أنت يا أنت بماذا تتعلقين. ونحن الاساتذة والطلبة بماذا يجب أن نتعلق ؟.. وهل فكرة التعلق بعد سيطرتها تستعبد ؟. الاستاذة مستعبدة والطلبة موزعون مستعبدون. وقلق آخر لم تبرأ منه، وكيف أفهم ؟.

افترقنا.

حضر أحد الطلبة. أخذا يتحاوران. في الحوار استشارة. وفي الاستشارة بدء :

ـــ فقال الطلب : قررنا أن تشمل المحاضرات بعض مواضيع قسم البكالوريا.

ـــ هل اتفقتم ؟

ـــ نعم، لكن بعد موافقتك يا أستاذة، نظرا لأن بعض طلبة قسم البكالوريا سيرتاحون لهذا.

ـــ حسنا.)

* * *

كانت الدنيا في ذلك الدرب تفقد الكثير. فالعتمة تزداد انغراسا في الجدران، لتتخذ تلك الهياكل من الاسوار الصماء، شكلا جامدا مات من زمان. وسألت نفسي : ترى ألست أنا التي أفقد هذا الكثير ؟. ثم تدحرجت، فوجدت الدنيا خارج الدرب أكثر تألقا.. وسرت فيه وفي حالتي، ثم.. وبفعل الشرود الخفيف اللذيذ الذي يدغدغ ألمي وينميه، ركبت الحافلة القريبة وأنا أعرف قصدي. وبمجرد ركوبي فكرت أن أتملى في وجوه الراكبين الغاطسة في الضوء. «أما وجه سلمان، فلقد عثرت فيه على فتوة خاطفة». وبمجرد جلوسي سهوت. لكن من بعد، التقطت وجهي في المرآة هو وذلك الشيخ الذي يتسلل استجداؤه إلينا في المحطة الثانية. «ومحسن ما تراه قد أصبح يستجديه مؤخرا ؟» واستأنفت الحافلة السير. فغرق وجه السائل بين أغصان الاشجار المثقلة بالقنوط. هربت بوجهي إلى الداخل، فتراقص الركاب عليه وتساءلت : لم ركبت ؟. لأهرب منهما : من محسن وسلمان وأختصر الطريق.

وفاجأني إحساس : فوراء الباب سأدخله يوجد ما ينتظرني. وفعلا وجدته : الشريط الغنائي الأخير الذي سجلته وأنا بفاس. وأخذتني بهجة غامرة «لكن سلمان يملك أيضا حس الرهافة المعتدل، مع عدم رضاه عن حياته ذات العلاقات العادية» فشيء ما بغرفتي.. أسمعه.. أعيده وأنام «بصوت مجروح قلت : كيف نكون هكذا ؟ فأجاب سلمان : لأنه ليس لنا غيره» توقفت عند هذا الابتهاج بينما تغلغلت الحافلة في شارع محفوف بأشجار مقصوصة. فلاح ضوء القمر «لكن ضوء المعرفة أين هو ؟ سلمان قال بهزل : الصلة قد تكون بغير المعرفة.. بالحياة مثلا» الضوء أعطى للأشجار أشكالها، ولكنها لم تكن منمقة بحيث تغري : إنها أشجار وكفى، هياكل مجدوعة الرؤوس والانوف.. وأهملتها.

وغالبت العجلات لأسبقها. صر أسفل الحافلة وواصلت.. «أما محسن،

فقد توقف عما مضى، وبدأت تنبع من عينيه قيمة جديدة» إن علي أن أتم برجلي ما لم تبلغني الحافلة إياه. وبسهولة أتممته، ثم بنفس الحركات المتحمسة أنجزت ما وعدتني الغرفة به في الحافلة : فانبعث من المسجلة، كل ذلك الذي كنت قد كبلته... ووراء اللحن والنبرة، كنت أبحث عن قدرة : لو ملكت أن أقول لنفسي : وجدت فقط، لأغرق في انتشائي في لحظة السماع، في هنيهة مترفة بالتخذير : ولكن كان ذاك التيقظ لا يتلاشى مع تدحرج الصوت الهامس وانسكاب اللحن الرقراق، ففي داخلي تيقظ حزن لا تغيبه هاته الالحان التي لا مفر من أن أقول : إنني في وقت ما قد اخترتها «لكن الآن ماذا أختار ؟ أما سلمان، هل أظن أنه قد اختار، بفكره أو بلسانه فحسب، حينما هدر : يجب أن نبحث عن الشيء أيضا لا عن معناه فحسب؟» واخترت : خبطت المسجلة والصوت والالحان، فتفجر صرير حاد متقطع. أوقفته، وبدأت من جديد، فانهال نفس الصرير، كأن سليمان قد اتخذ من الجهاز قمقما لأبالسته، ولكني لم أقر هذا السطو، حيث تلاعبت بالمفاتيح لعل منها ما ينجد، ولكنه باستمرار : الصرير المبحوح القوي المتباعد.. «سليمان وأبالسته في الجهاز، وسلمان أين هو ؟» واتخذ الصرير نفسه، وفجر في تذمرا بلا لون. ومنه أو لأنه هو، قصدت النافذة التي كثيرا ما أنساها. وبلا تماسك باشرت انغلاقها، وتجرعت من انفتاحها شهيقا طويلا كأنه خوف من سلاطين الجنون : سليمان أو سلمان. لكن مع ذلك، تركت صوتهم يأتيني بذات الهدير من جهازي القمقم، في شكل عواء مجنون لأبالسة مكبلين.

وظل يضج، وظللت في الوقوف والجهاز قمقم والغرفة قمقم وخارج النافذة قمقم والآخرون قمقم وأنا إبليس آخر في وأشهده.

ـــ ما هذا ؟. لقد أزعجتنا.

قالت الجارة هذا، ثم ضغطت على المفتاح، فعم صمت جنائزي بدأ يخلف حضورا آدميا تركته.

* * *

الصباح مساء والغد هو ما مضى وسلمان هو سليمان لكن من سيوضع في القمقم ؟.

ــ ما المسؤولية وما اللامبالاة ؟!.. التجاء إلى بعضهما من الاخرى والثرثرة والاشداق المكشرة ورزانة الدبلوماسي أتمة ما هو أدهى. لكن كيف السبيل ؟.

الصوت متناقض والفكرة والتصرف وسلمان. وأجبت سلمان :

ــ الرفض بالتمام.

ــ بأي شيء.

الموت جبن. والشيء أين هو قبل التطاول إلى معناه، وبماذا أجيبه ؟. امتص شحنات وقذفها كنهاية ما وأين مرحك يا أنت ؟.

وعاد يسأل :

ــ ألم تفكري أبدا في أن ترفضي رفضك نفسه ؟.

أيكون أبعد مني ؟.

ــ أرفضه !

ــ تجربة وكفى.

ــ وهل أستطيع ؟!

ــ بوسيلة ما. فكرك مثلا ؟.

اللوعة في الداخل في الخارج في الجلسة في الصوت في الفكر في الحوار، وبها أجبت :

ـــ الفكر لا يمنح الحلول الأخيرة.

«لكن أين الشيء أين معناه ؟ أين الفكر أين صداه ؟». وأضفت :

ـــ بالنسبة إلي لا. لأن لا كلمة نهائية للفكر يدلي بها.

وبعد لأي، غرس نظره في المارة، ثم تحرك كمن يتنفس بحركته وقال :

ـــ لكن مع ذلك، أشعر بأنني أحيا.

التناقض في الثرثرة في الحياة في القمقم، وماذا تريد يا سلمان ؟

ـــ أنت ؟

ـــ نعم.

ـــ و متى ؟

ـــ حينما أقتله.

ـــ من ؟

ـــ العالم

ـــ وكيف ؟

ـــ بتجاوزه.

التناقض توافق والقمقم دنيا وسلمان من هو ؟ وأنت ماذا تريد بي ؟.

ـــ بتجاوزه ؟!

ـــ نعم :

ارتعشت. أين القمقم ؟.

من سيدخل القمقم ؟ أجب يا سلمان يا أنا ؟.

ـــ وكيف لي بذلك ؟.

ـــ بإخضاعه للفعل والارادة

* * *

«الجد جد لكن أين الجد فيه ؟ الطلبة جادون لكن ما هو الجد في جدهم ؟. شيء ما لا يتوافق مع بعضه في. أنسل أنسل ومع ذلك أعرف :

فالجمعية الثقافية، تحقق ملتقى كل سبت. والفرقة المسرحية : براعم المسرح، يكفي أن تعلم أنها قدمت حوالي أربعين عرضا خلال سنة : «متى يموت الموت ــ لن تنحدر السماء ــ حكاية كرسي ــ عندما يرتفع الستار» الخ. لكن مع ذلك ؟...

نحن مرضى والعالم مريض، والطلبة مرضى وأنا مريضة والمرض هو فلسطين وفلسطين هي كل الداء، والداء هو الفكر هو الفعل هو الجيش هو الاقتصاد هو الفن هو السياسة هو الحياة. وعملنا الصغير هل يرفع الداء ؟ الداء قائم مادام كل شيء لم يتغير : لهجة الحوار مع الاشياء والعالم والواقع والاعماق.

وتدخل سعد :

ــ اذن هل توقفت ؟.

ــ أبدا. كل شيء يواصل نفسه. لكن احساسا ما يداهمني : ألست أخدعهم ؟

ــ من ؟

ــ الطلبة

ــ أنت !

ــ ولم لا. يجب أن يحدث شيء. فالمحاضرات والعروض وطرق التدريس لا تطعم الجياع. الجوع في الابدان والادمغة والارواح وكل ما يلزم. وأنا من أعلى، أشهد المحاضرات و... أوف. أرجوك اتركني.

انكب رأس سعد على العنق. في الرأس ارتداد وهل حتى أنت تتراجعين واستفسر :

ــ إنني .. إنني أريد أن أفهم.. هل هذا راجع لعدم رضاك ؟.

الرضى موت. والالم نفسه بلا طاقة أو اقتدار منهجي موت.. وأين الحياة ؟.

وأضاف :

ــ ولكنك بذلت جهدا. فكيف لا ترضين عنه ؟.

كان الغضب، غضبها يتمطط فوق الاشياء.. فوق جدواها.. فوق الاقتناع وأجابت :

ــ بذلت جهدا ثقافيا، لكن مالثقافة ؟! ما جدواها في ظروف كهاته، أليست ترفا في دنيا الخصاصة.

ــ أتريدين أن تسقطي كل الاعتبارات في...

ــ لا إن ما أريده، هو ربط الثقافة بالواقع الاجتماعي أكثر، وصراعاته حتى لا تكون ثقافة هؤلاء ستارا يحميهم من المسؤولية الفعلية، بل أن يكونوا في الصفوف الأولى، يضربون بالسلاح والقلم، حتى لا تحدث الفجوة بين الفكر والممارسة بل يتلاحقان من بعض، فيكون التنظير من بعضهم وليد الممارسة لا وليد التخيلات العاجزة أو المريضة.)

* * *

كنت أحتسي مشروبي على مهل. أتمعن في الكوب الرشيق الذي يستسلم لقبضتي بلا تنبه. أما أنت يا سلمى، فلن أستهلك الاستهلاك بعد معك.

الصمت رفض واللغة عند سلمان رفض، وأنت يا سلمى ما هو رفضك ؟. تمعنت في كل من في المقهى. المقاهي سجون وتبذير للعمر : هكذا قالت سلمى وقالت أيضا : كيف تتركين أباك في تلك الحالة ؟ كيف لا تكتبين لهم ؟ كيف لا تجيبينهم ؟ كيف لا تذهبين عندهم ؟ كيف تنتحرين ولا تنتحرين ؟ كيف كيف يا كم كيف وكيف ؟؟. في نظرة محسن حياء ومعنى ذلك لا يهمني. لاحظت شابين : رجل وامرأة، دخلا كما العادة، وتذكرت : كثيرا ما حاولت أن أنطق باستفهام كلما جئت المقهى ورأيتهما : ألست أعرفهما ؟ وأجبت :

لعلهما من مدينتي، من مدينة مترفة بالزخرفة والتحذلق. أما أنت يا سلمان فلست من مدينتي. أنت من المدن.. من مدينة المدن.. مدنية الضجر والتلف والبحث والجدوى واللااقتناع. ورافقتهما : حركاتهما تنتسب لمجتمعات القرن الثامن والتاسع عشر بفرنسا. لكن أنت يا سلمان ألست قمقما يريد أن يبلعني. يا سلمان يا سلمان أن أكون إبليسا فلست أقبل قمقما غير... لكن من بعد، تحولا عندي إلى قطعة أثرية مركزة على مجلس بمقهى في هذا العصر، غير أن التاريخ لم يكن ليشغل بالي. وماذا يشغله ؟ يا بالي أي قمقم يريد أن يشغلك. ماهو ماهو ؟

ــ آلو، الاستاذ سلمان من فضلك.

ــ يمكنك الاتصال به بعد قليل، إنه في مكتب السفير، من أقول له اذا حضر ؟.

ــ هدى، فليتصل بي في الرقم 111.11

أين القطعة الاثرية ؟. لقد خرجت. القرن الثامن عشر يتسكع في القرن العشرين قبل الميلاد بعده سواء. وأين أريد أنا أن أتسكع. القمقم فسحة وهل الفسح تغري وهو الآن ماذا يفعل ؟ في مكتب السفير يثرثر، يقذف

عمره في كلمات ويتفرج على نهايتها. نهايته : نهايته : إنه يصنع من الموت لعبته. وماذا تريد أن تصنع بي أو ما أصنع بنفسي يا سلمان ؟.

ــ 11 ــ 111 ؟

ــ نعم

ــ هدى من فضلك

ــ الآنسة هدى ؟.. التليفون.

ــ سلمان ؟

الصوت عرى. وأين أنا من هذا العرى ؟.

ــ أين أنت ؟

ــ التحق بي في مقهى الاطلس.

ماهذا ؟. أي تغير وأي تذبذب يتلصص شيئا فشيئا إلي كحنين.. كلهيب رقيق معقد.

... وها هو، سلمان.. يزداد شبها بمن سيكونه : تتحلل ملامحه وتتخذ طابع اهتراء ذابل، بينما صوته يقاوم، كأنه يرفض أن ينبعث من بين أطلال تجاوزها الزمن. لكن زمنا أنت ساكنه يا سلمان لن يشيخ.

ــ أبلغني السفير بضرورة التحاقي عاجلا بالعاصمة. لقد بث وزارة الخارجية في أمري نهائيا. إنها تبقي على تعييني في روما.

كيف ؟ الخارجية وسلمان والقمقم وهذا الشيء اللذيذ الذي يسكنني ما هو ؟.

ــ كنت أفضل لو ألحقوني بوزارة الخارجية مدة ما، قبل ارسالي إلى الخارج من جديد. أهذا ألم ؟.

ــ أنت في الداخل في الخارج سواء.

ـــ أرسلت العائلة منذ أشهر، وبقيت أنتظر أمر الوزارة.. أين محسن ؟.

ـــ لم أراه.

ـــ لن يفرح بهذا الخبر.

كنت أريدكم أن تضعوني أنا وما تفعلون في قفص، وماذا يفرح ياسلمان ؟!. الفرح مشروع للبدء والبؤس هو الأساس، وقمقم تعشقناه كيف نرحل عنه ؟.

صفق بجذل وطلب كأسا. كيف يكون أي حوار حقيقي غير مستحيل ؟.

مر بصره علي بشكل عابر :

ـــ مالك عابسة ؟. كم أود لو رأيتك مرة تفرحين...

الصمت نفسه، وقابلية الفرح مشروع، وأنا أترقبه :

ـــ لقد ذكرني مجلسك هذا بحدث مضى، وهو إلى حد ما، قد أسهم في شق هذا المسلك الذي أتزحلق عبره : كان لي صديق له اهتمامات أدبية، كنا نجتمع كثيرا، وكان يلتصق بحروفه كخلاص، ولكن تشويشا ذهنيا انتصب بينه وبين وسيلته، فدق باب المكتب علي ذات مرة، في غير وقته، ثم حملق في وخاطبني :

ـــ لقد فكرت في رحلة.

وبسبب انشغالاتي الصباحية، رهنت كلامه إلى لقاء المساء، فلابد أن نثير مسألة هاته الرحلة. وعمق نظرته في وقال :

ـــ مع السلامة.

ترصدته في المساء، ثم بحثت عنه، ولكنني لم أعثر الا على نبئه : لقد رحل بمن هو ومن سيكون رحلة نهائية.. لقد انتحر.

«انتحر» ! ومن ذلك الحين ظل الانتحار عندي غدرا لا أقبله. فهو اختيار الموت على الحياة ولا شك، ولكن كيف أفضله على موت غيره : ذلك أن أذيب قدر الموت في وجودي، باتلافه عبر صوتي وجهدي ومغالباتي وبعض انتصاراتي.

ملامحه بين الاهتمام وعدمه. والانتحار غدر وأنا لن أفعله. والرحلة غدر أيضا يا قمقم. يا سليمان أي نفوذ تراك تبسطه على شياطينك. الشيطان شيطان الا في حضرة سيده، وأي ارهاص لذيذ هذا الذي يتفجر في ؟.

ــ ما رأيك ؟

ــ لا رأي لي

ابتسم واستفهم بتعجب :

ــ أنت !

ــ نعم

ــ عجيب

ليتكلم ليصمت، ففي حالاته نوع من التفجير. تفجير الآتي لتجاوز ما سيأتي من بعده، مما لا يزال حلما وكفى.

ــ أعدت إلى الصمت. ياحفيظ. أين أنت ؟

ــ أتعبد.

صاح من وجهه وعينيه قبل فمه فرح طفولي :

ــ أي محراب دخلته، أرشدينا لعلنا نكون معك أيضا من المصلين.

مسني الفرح وأجبت :

ــ لن أرشدك إلا إذا تعهدت بأن تكون إماما.

ــ أنا ؟

ــ نعم، أنت، صاحب القمقم.

قهقه بلا تحفظ وأفصح :

ــ هكذا يلزم أن تكوني، ذات نبرات جذلى. لكن أي قمقم تعنين ؟

ــ ألست سليمان أو سلمان ؟

قهقه من جديد واستمر.

ــ وأين الأبالسة ؟

ــ أنا

ــ أنت عجيبة.

ما نعيش ؟ : خيالا أو حقيقة ؟ ما يفرح : الوهم أو اليقين ؟ ما يعجب : الاساسي أو العابر ؟ ماهو : ذلك الذي يكسب العبارات جذلا ؟؟.

وتراجع :

ــ ولكن أين العبادة ؟

ــ كل يتعبد على شاكلته.

ــ ازداد ضحكه، ولاحظ :

ــ عبادة العفاريت والأبالسة ولا شك ؟.

فخرج من فمي :

ــ في حضرة الملك سليمان أو سلمان ولا بد.

* * *

(ــ جمع عام.

الحديث يسير من ذاته، وفي وجه الاستاذة غضب. لم هي هكذا ؟. الطلبة يتساءلون ؟ عيناها غير وديعتين كالعادة، وهما تتفحصان بلا رحمة السحنات الشابة. أين أية سحنة غاضبة يا شباب ؟. وتساءلت :

ــ هل كل الاعمال تسير ؟
أين أي اعتراض، أي سخط، أي رفض، أي تجاوز ؟؟.
ــ محمد الاشهب يعد مسرحية، إنه يطالع كتبا في السياسة والاقتصاد.
ثم تكلم ممثل الجمعية الثقافية، فأخبر :
ــ لقد رفض الاستاذ عبد الله العلوي، أن يتفضل بمحاضرة.. وقد عوضناه بالطالب عبد العالي بن جلون، وهو في السنة الثانية من كلية الآداب.
أستاذ. آداب. محاضرات. وأين الغضب ؟.
ــ هل كلكم راضون ؟
الفرح في الاعين، والالسنة تنطق :
ــ نعم
ــ تماما ؟
في هذا الاستفهام إدانة، وبعضهم يستدرك :
ــ نسبيا.
ــ هذا هو الخيط :
ــ ألم يستفهم أحدكم نفسه عن جدوى ما يفعل ؟ ما تفعلون ؟
ــ نعم تساءلنا، ونحن مقتنعون بالجدوى.
فأمسكت :
لا جواب، فأوضحت :
ــ على الصعيد الشخصي، أو صعيد طبقة معينة أو قضية أو مستوى ؟

ـــ على صعيد الذين نشتغل وإياهم أو معهم.

ـــ وهل هذا يكفي ؟

النبهاء منهم وجدوا الجواب : بسبب هذا فهي غاضبة.

وأسرعوا :

ـــ لا

ـــ لماذا

ـــ لكي لا نقنع

ـــ ولماذا لا تقنعون ؟

ـــ لنعمل أكثر.

ـــ ولماذا ؟

ـــ لنستفيد أكثر.

الرأس، رأس الاستاذة يهدر. واستفسار مهاجم يخرج منه :

ـــ أريد أن أعرف : هل جهودكم توغلت في القطاعات السفلى من المجتمع لتهز في عقله وسواعده ركودا. هل كنتم في مستوى الابن الشرعي للفقر والبؤس والمرض والموت والجهل، أم أنتم أنفسكم، تطاولتم عليه، وتخاطبتم فوق جهالته بلغة لا يفهمها. اذا كان الامر كما هو : محاضرات ومسرحيات والواقع الداخلي يتماسك بتناقضاته وزيفه وقيوده فما الفائدة ؟ أيكفيكم أنكم جمعتم فئة معينة ممن تملك أن تفهم وتتفاهم، وأطبقتم آذانكم وأعينكم عن الاخرين.. عن المسحوقين والساحقين. إن كان ذلك، فلقد سرقتكم المحاضرات والمسرحيات ووضعتكم في قيود لم تروها، لتحتكركم وتقتل فيكم حتمية المعاناة والتصادم والمغالبة والصراع. وقد كنت أنتظر بشوق أن يأتيني أحد وعلى وجهه

غضب من أدرك أنه مخدوع ويحتج :

ـــ ما جدوى ما نفعل ؟

لتتجاوزوا ذلك الفعل وأنا ومن أنتم، لتحقيق الآتي فيكم وفي الآخرين. ولكن أحدا لم يحضر.. أحدا لم يحتج.. أحدا لم يدن.. أحدا لم يغضب. وأدركت : لقد سجنتم أنفسكم في السجن الذي صنعته لكم.

ـــ أستاذة...

ـــ نعم، أنتم...

ـــ ليس هكذا اتفقنا

ـــ ولكن ذلك الاتفاق مرحلة. جمعتكم بها. ثم انتظرت أن تفجروا فيكم ما تريدونه أنتم. ولكنكم، بذلك الاخلاص الابله، بنيتم حولكم جدرانا أخرى.. وبقي ماعدا ما يهم الاتفاق خارجكم.. إذن فسيستمر المستقبل يجندل تحت أظلاف الحاضر وأنتم في القلعة.. أنتم مستقبل لا يريد أن يكون مستقبلا، لأنه مستقبل محاصر في القلعة : في الماضي.. في الاتفاق.

الصوت قاس، والاتهام واضح والعقول تتضارب مع نفسها.

ـــ ولكننا لم نكن نعرف غرضك هذا.

ازداد الغضب :

ـــ أعليكم باستمرار أن تحققوا غرضي. وما هي أغراضكم أنتم ؟ إلى متى وأنتم لا تخلقون ما ستنفذون.. أن يكون ذلك الخلق ذا بعد جماعي يمس كل الاوضاع : فلسطين.. تعملون لها وبها وبسببها ومن أجلها انطلاقا من الذات إلى الكيان المادي والمعنوي لأمة بأسرها.

في عينيها ترقب ومن سيتكلم ؟ :

ــ طيب. وماذا سنفعل بعد الآن ؟

ــ ما تريدونه أنتم. فمسبقا لقد خرجت من حياتكم ولن أعود.

حيرة قوية تسيطر على التجمع. ما العمل ؟ الاستاذة تذكرت أن أحدهم، وهو طالب ساذج من قبيلة الحياينة بناحية فاس، كان قد طلب منها في حرب الستة أيام : أرسلينا إلى فلسطين، ان أكتافنا تستحق القبر ان هي لم تحمل الرشاش في المعركة. فرح. وزادت تتذكر : وحينما قهرتني الهزيمة ورمتني في الفراش، قرأت في الجرائد : الطلبة فلان وفلان و.. من ثانوية.. يطلبون التجنيد للحرب في فلسطين وكانوا كلهم طلبتها. أيها الابطال الابكار ما لكم الآن صامتون ؟ هل أسأت تخطيط بدئكم في العمل ؟. هل رميتكم في معركة غير المعركة الاصل ؟ هل.. وانطلق صوت :

ــ لنبدأ بشيء آخر.. أن نخرج بالمسرحيات والمحاضرات إلى العموم.. في الاسواق الشعبية والاحياء الجانبية بباب الفتوح وجامع الفناء وباب الاحد ودوار الدبغ وغير ذلك..

ــ وأضاف آخر :

ــ سنجعل المواضيع تهمهم عن قرب، وباللغة التي يفهمونها، وضمن ذلك نوعز لهم بما تريدين.

فاجتمعت :

ــ لا، بل بما تريدون أنتم وما يريدونه هم أنفسهم.

فاستدرك الطالب :

ـــ نعم.

أهناك من سيتكلم ؟ إنها ترمي نظرها بسرعة. ثم تخرج ومعها سعد. الاستاذة هي نفسها وسعد هل يتوافق مع ما يقنع : اتحاد الطلبة والنشرة وبعض الندوات ؟..)

* * *

سلمى سألت عنك..

* * *

ومحسن أيضا..

* * *

ماهذا الحنين الهفهاف الكاوي الذي قد تفجر في. أيكاد سلمان يدمر في وحدتي ويحيلني إلى التصاق ما، بلا وصايا أو رصد كما تفعل سلمى، إنما هو تفجر مباغت دفاق لشريان ظل معطلا في أعماقي حتى الآن.

كنت أسير في الشارع الرئيسي بالمدينة، وكان يبدو لي هاته المرة أنه قابل لأن يكون أشد التماعا، شيء فيه قابل لأن يفرح : هو أو أنا، ودفعني ذلك لأن أخبط صفحة وجهه بجذل، كأنني مسرة عتيقة سالت من كهوف العصور، فسبحت على الشارع والاكتاف بلذة فصل ربيعي لم يأت من عهود، ولما سرت أطول، تبينت أنني ألاحق بلا غليان ظاهرة للتناقض : امرأة قميئة ورجلا باهرا.

غيرت الاتجاه. سوف أذهب إلى الكلية. دخلت القاعة، جلست خلف الرؤوس والمعلومات، وأنا فارغة بالتمام : لم يستيقظ في أي تشرد أو فوضى، لقد كنت في الارهاق اللذيذ.

خرجت. لكن ما معنى هذا ؟ كل شيء يكاد يأخذ موضعه، ألتقط الشجرة والجدول ووجه الرفاق وصوت محسن :

ـــ أأنت في هاته الدنيا ؟

ـــ أكاد أكون.

ـــ سيسافر سلمان، وهو قد سأل عنك

أتكون أنت نفسك قد وقعت في القمقم يا محسن ؟ أيهاجمك ارهاص لذيذ غامض ؟ عيناك غير عينيك. وكذلك صوتك ووقوفك وتصرفاتك.. أجبني ؟.

ـــ أترين سلمى، إنها مع سعد في النادي

ـــ لا. ثم أضفت :

ـــ في أية ساعة سيسافر سلمان ؟

ـــ لا أدري

ـــ أنذهب عنده ؟

الذهاب مشروع. والرحلة مشروع. وحالة ما لا تتحدد بالحضور والغياب. ووجهك يا محسن لماذا يسقط في العذرية عندما يواجهني ؟

الشارع يستعيد حياته. ومحسن يطأ عليه ولا يمسه. ولا شيء فيه مما عرفته. وأي مصير في هذا السير ؟..

فسلمى تجهد بغطرسة مهذبة، من أجل اعطاء اللحظة بما فيها من شارع ومدن وأقطار ومحسن وسعد وسلمان وكل الضحايا، شحنة مثقلة بالجهد البشري لإثرائها وركم خوائها بمشروع : ذلك مصيرها. أما سلمان، فرغم جدواه فهو يحكم : اللحظة في مستواه الاعلى خواء أبيد، فلا جهد أو معاناة أو مغالبة تملأه : إنه اقتناعه. ومصيري ما هو ؟.

المصير ماهو ؟ حتى هوَ ماهو ؟ أليس هروبا في هروب ؟! والحياة تقفز من ذلك الهروب لتحقق غلبتها. وهل أنت يا سلمان تستطيع أن تنتصر، بمصيرك ولا معنى ترثرتك واستمرارك عبر الرحلة الرابحة الفاشلة ؟.

ـ هدى، ألا تقولين شيئا ؟

نعم يامحسن، إنني أقول فهلا تسمعني وهلا أفهم الجديد فيك ؟ إن جدل سلمان حزين وجذلك رزين لكني أنا بلا جذل وهل هذا انتصار ؟! الانسان يرتمي بين حالاته وهل حتى ذلك ضرورة، ليعيش فيها ولها من أجل أن يقاومها : أن يبدد طاقة ما : نصف حياته أو جزءا منها، ليكون ذلك هو عمره، وانجازات ذلك العمر.

ـ هدى ؟!

هي هاته هي غير هاته يامحسن. أما أنت، فهل علاقتك السابقة بي، استطاعت أن تحقق شيئا ؟ لقد لعبنا بأجسادنا مع بعض، وأنا الآن أسير وأنت أين ؟.

ـ أنت يا هدى، كم تكونين قاسية.

وهل علي أن أكون حنانك. طيب. لقد فهمت : فهل سقطت في القمقم.. وبعد ؟.

ـ إنك تسدين كل المنافذ التي قد تخبرك بمحسن الجديد هذا.

لكن ما الجديد وما عدمه. أن تكون في القمقم فأنا نفسي عند حافته، ولكن لا شيء يحدث. والعالم فقد مفاتيح أقفاله ونحن في زنزانته نصنع القمقم، نعيش القمقم، نتذوقه نفهم مجانيته ونتابع : فحتى هذا كأس، جرعة وكفى. إنما أين المفاتيح الحقيقية ؟؟.

ـ بماذا أستطيع أن أقنعك.. فأنت شديدة المراس، وأي شيء لا يقنعك.

نعم يامحسن، وجودي بالخصوص، فهو الخطأ الكبير الذي لم أعرف بعد كيف أبرره أو أتجاوزه أو أهمله أو أقتنع به. الانتحار جبن والجنس لعبة والعواطف ترف وأين الحقيقي ؟ أهو سليمان وقمقمه ؟؟.

ـــ ألا تسمعينني ... هدى ؟

لكن هل هناك من يفهم ؟. لقد حاولت بالحاح أن أفهم العالم لأتوافق معه، فإذا بي لم أنجح إلى الحد اللازم في التوافق معه كوجود، فبالاحرى أن أعثر عليه كمعنى. لكن القمقم أفهمه وأعرفه، ولكن هل لاشيء لنا في أي شيء غير أن نقفز على الحالات، كبهلوانات تمثل، التفرج وتتفرج على نفسها ؟.

ـــ هدى ؟

الغيظ في الفرحة في القمقم وكل شيء مجاني.

ـــ نعم

ـــ أتفهمينني ؟

ـــ نعم يا محسن

ـــ وماذا ؟..

إذا ماذا ؟ الاستفهام والاعتراض دائما له بالمرصاد، وذلك الاعتراض، ذلك العدو، وهو ما جعلني أنثى تحمل شارات التهاب ضار. لكن هل يصمد القمقم نفسه ؟.

... القمقم هو سلمان، وسلمان قمقمي وهو كمن، ويقول :

ـــ أهلا أهلا

واحتج محسن : لكن لم هذا الاسراع في الرحلة :

فأجاب سلمان، بطريقته الخاصة :

ـــ ياأخي، ألا تعلم أن السرعة هي سبة العصر ووسامه.

وأوقعه صوته على فرحه. الفرح بلا فرح هو سلمان. كم هو غير من هو.

واستدار نحوي :

ـــ وأنت يا سلبية الابد، ألا تفتحين فمك ؟.

لو ترى ما ينفتح في. القمقم مفتاح.. ولكن.

ـــ دائما تعودين لمن أنت.. أين محرابك يا إبليس ؟

ـــ في القمقم

القمقم دنيا.. ولولا أن الكون رهيب غامض أكثر، لولا أنه يشتتها لكان هناك أي حل. الحلول. أية حلول نسبية. وضحكك لا يكتنف كونك، لأنك ضائع بالاشياء وفي الاشياء وخارج الاشياء.

ـــ ألا تأخذينا معك إلى هذا القمقم.

ـــ ألست سليمانه ؟!

ضرب يده بمتكأ مقعده، وبحث بعينيه ثم عثر :

ـــ ايه.. أين أنت يا شارد ؟

محسن، حينما سقط في القمقم كان ذلك بعده، آخر ما رحل إليه، شوطه الذي أوصله إلى الشرود.

محسن وقد تلعثم :

ـــ هنا.

واكتشفه سلمان :

ـــ لكن أمرك متغير بوضوح.. فبه كثير من ظواهر المراهقة.

فتعجب محسن : المراهقة !

ـــ ياأخي لاتتعب نفسك وترحل، ان كل شيء عند الاصابع.

حملق محسن فيه قليلا، بينما تابع هو :

ـــ الناس حذفوا كل احتيال على العقل، ونفوا الوجه الرومانتيكي للعلاقة، وحققوا للجسد بغيته، دون أن يحملوه صراعا لا طائل تحته.

كان ذلك رأي ... إنما...

وأدرك محسن أنه وقمقمه مرمي، فرد :

ــ ولكن هل جعلهم ذلك يكتفون. لقد جعلهم فقط يغرقون إلى قمة رؤوسهم في التجربة.

فقاطعه سلمان بجدية غريبة :

ــ لقد وجدوا الجنس غايتهم، فحققوا الغاية وأبعدوا الاسرار، لأنهم بدون عقد اتجاه رغباتهم، كما أنهم يتعاملون مع ما يخصهم بوضوح.

ــ إنهم يعرون الحياة حينما يقتلعون منها ظلال العواطف. كذلك كانت سلمى تقول، وكنت أرفض.

محسن يدافع عن قمقمه، عن قمة ما بلغه، عن جهده النهائي :

ــ لا، بل إنهم، يعيشون الحياة بلا ظلال.. يعيشونها كما هي، ويحققون فيها ما يهمهم وكفى. أليس كذلك يا هدى ؟

وأجبت :

ــ القمقم وعدمه وماذا بعد ؟

ــ ماذا تقولين ؟

ورد محسن بشجاعة أكثر :

ــ إن الضرورة الجنسية ليست كل الضروريات.

ــ ولكنهم استغنوا عن اللف، فحلوا العقد وعاشوا.

ــ نعم إنهم اسقطوا كل ما كان يشكل ماضيهم : المفاهيم والعواطف والمعتقدات والاوهام، والاساطير، وعاشوا آليا في الباطن والظاهر. والجنس نفسه دخل في الحلقة وفقد كل تلوين، الشيء الذي يهدده بالاحتقار أو النفور، مما يجعل ذلك قد يؤثر على مستوى الانجاب في تلك المجتمعات.

فضحك سلمان كعادته :

ــ اطمئن يا أخي، فالعلم سيتكفل بالأمر دونك، حيث ستتدخل القنينات والمختبرات في الأمر.

ــ ولكنهم شربوا حتى الثمالة و لم يرتووا.

ــ لكنهم واضحون يا أخي، يعيشون منطق اللحظة بلا غموض كما قلت لك.

اذن فمنطق اللحظة، سيكون انطلاقا من ذلك الوضوح من استهلاكهم التام له، من بحثهم عن مرهم آخر كما هم الآن يفعلون : المخدرات ورفض أي ما يربطهم بالاواصر الاجتماعية. ألا ترى بذلك، أن في جنتهم جحيمهم.

ــ ليكن، فالجنة جحيم في الاساس.

نظر محسن إلى هدى، وأجاب :

ــ ليست كل الجنات كجنتك. هناك جنة ما، تنبعث في كيان الفرد أو كيان الجماعة. وهم أنفسهم، الذين استهلكوا كل المذاقات، قد بدأت مطالبهم تكشف عنها.

ــ ماذا تريد أن تقول ؟

ــ بل لعلك سمعت قولهم في أحداث ماي 68 بفرنسا وهم يطالبون بإقامة دولة للخيال.. فحياة مكتملة قائمة بحدودها، بغير بعد عاطفي أو روحي قد رمتهم في القحولة، الشيء الذي جعلهم ينفجرون.

محسن يتكلم، كأنه لم يملك لسانا الا الآن. اللسان من القلب الآن يتحرك. وهل اللسان اذا استمد منطقه من القلب لا يكون الا صادقا ؟. وأضاف :

ــ أليس في ذلك الانفجار ما يؤدي إلى بحثهم عن ايمان ما، عن نوع أو أنواع منه. لهم أن الذين تنصب حياتهم كنموذج، فقدوا الخاصية الذاتية

للعصر، وهم يعيشون مرحلة من التقويض، من أجل الطلوع بالمعتقد : دينيا أو عاطفيا أو أي شعور.

ــ شرقي أنت يامسكين !.

ــ وتلك فضيلة الشرق الاساسية، أن يكون واحة في الهجير الانساني، بل وفي هجيره العلمي أيضا.

فعلق سلمان بنفس النبرة

ــ متعنا الله وإياك بنعيمها.

وأضفت، أنا، أو اللاوعي، أو استهزائي :

ــ آمين.

* * *

(الاستاذة غير من هي يا سلمي. لقد قضت على رضائي بما نعمل. ذلك أن طبيعتها لا تتوقف عند أي رضى. وفقد الرضى هذا قد مستتى عدواه. وأنا لا أدري ما العمل. فصلة ما، بطابع خصوصي، قد أصبحت تشدني إلى تلك الاستاذة.. بل إلى ما يمكن أن يتفجر فيها. ثم...

ولم يتم، أخذت سلمى الكلمة :

ــ ثم ماذا ؟! : ألسنا نعمل، إن جهودك بالخصوص، قد استطاعت أن تطرد الموت عن كثير من الانجازات التي تبلورت في الاتحاد والنشرة والاجتماعات الاسبوعية، وكثير من المطالب التي تقبلتها ادارة الكلية لصالح الطلبة، فلماذا تسقط يا سعد في انكار هاته الجهود ؟!.

ــ أبدا أبدا، فما نعمل، ألا يعتبر نوعا خاصا من الهروب

عن المتطلبات الملحاحة في العمل.. عن معانقة الواقع بجذرية صميمة. فعمى نفسه ألم يكن مثقفا «عالما» ولكنه حينما أراد أن يعمل، فإنه ذهب إلى العمل مباشرة، دون أن يجعل قطاعه هو جماعة العلماء.

ــ نضال عمك كان ذا سمة شخصية. (وابتسمت باعجاب) أتتذكر، حينما كان يحكي لنا عن أيام سجن (علي ومومن)، وهم محاصرون بالجوع والمشاق. فالسكان، مع أنهم مهددون بستة أشهر من السجن ان هم اقتربوا من نواحي السجن، الا أنهم كانوا يأخذون احتياطاتهم، ويوزعون في الطرق الجانبية أرغفة الخبز، حتى اذا كان السجناء الوطنيون في ذهابهم أو رجوعهم من العمل، عثروا عليه.

انتشر في عيني سعد وميض وأجاب :

ــ إنه التوحد يا سلمى.. ذوبان الفرد في الجماعة والجماعة من أجل الفرد، والجماعة في نفس الجماعة إنه الكل للكل، أليس كذلك ؟.

ــ نعم.

ــ واذن، ما يجب، هو كيف يمكن احياء عزم المواصلة عند شعب بدأ يمل كل شيء، إن طاقته التي استيقظت لتحقيق الاستقلال، قد ذوبت على حافة منجزات منحرفة ضد المصالح العامة للشعب !.

ذهب نظر سلمى بعيدا، ثم عاد :

ــ ذلك موضوع آخر يا سعد.

فشكا :

ـ إنه هو الموضوع الاهم، وأخبرك أنني لم أنم منذ جلسة حضرتها في جمع عام عقدته تلك الاستاذة مع طلبتها. فمواضيع جديدة تضرب رأسي كمطرقة. والامان لم يعد يرافقني وأنا أحاول أن أواصل نفس ما نعمل. فالاستاذة قد تحولت إلى قلق كبير قد سكن عقلي.

ـ وهل الاستاذة لا تتكلم. فماذا تريد هي نفسها ؟.

ـ لا، انها تتكلم، ولكن بطريقة يجب أن تكون هي الطريقة العامة في الكلام.

ـ وكيف ؟

ـ تتكلم لتدين ما لم تستنبطه أنت وتحققه، مما تريده هي أن يتفجر منك.. أي من طلبتها هي ومن غيرهم.

وبعد لأي، عرضت سلمى :

ـ ألا يمكن أن أتصل بها معك ؟

ـ يمكن. إنما هي الآن، خارج أوقات الدراسة تلاحق طلبتها فيما يفعلون، حيث تتنقل بين عدة أمكنة، في المدينة لتشهد كأي شخص لا معرفة لهم به ما هم يفعلون.

ـ عجيب. وما هم يفعلون ؟

ـ لقد غادروا بأنشطتهم الثقافة والمسرحية جدران مكان معين وفئة معينة، ونزلوا إلى الشارع.. إلى الأماكن الشعبية، ليخاطبوا الناس فيما يهم الناس : ما للناس وما عليهم، بينما نحن يا سلمى سجناء بين أضلاع هذا القفص الاناني : الجامعة، وتقولين : نحن نعمل !!.

سلمى لم تجب. وأين ما يمكن أن يكون جوابا. والظواهر

المزيفة تستمر في السيطرة، والحركات البطيئة هي ما يولد بغتة ثم كيف تراها تستمر. والتطور حتمي وأين الذهنيات، أين طاقات الفعل ؟.

الطاقات تحت سمك الغفلة أو الجهل أو التنويم أو الاتلاف أو الاحتجاج. والاحتقار القائم في المؤتمرات الكبرى والصغرى كاف لاختراق السمك. وشعوب لا ترفض الاحتقار ميتة في الاساس. وهل نحن لا نحتقرهم أيضا بهاته الاعمال الجانبية يا سلمى ؟.

رأس سعد، رأس سلمى، رأس الاستاذة، رأس أو رؤوس أخرى تعمل، لكن متى يتحول العمل من الرؤوس إلى الاعضاء : ياأمة نامت على احتقارها ألا تستيقظين ؟.

وضعت سلمى يدها على كتبها بشجاعة، فوقف سعد : لنبحث عن محسن وهدى وبقية الطلبة.)

* * *

كان سلمانْ مذعنا لذهول.. ثم صب في كأسه جرعة وفاجأني، وقد أطبقت يده على حافة الطاولة :

ـــ ما الذي يجمع بيننا في هاته الجلسة يا هدى ؟.

انفعلت بالسؤال و لم أجبه. فما يجمع بيننا أعرفه. لكن ما لا أعرفه أو ما أشك فيه هو : هل كل شيء ممكن مادام الحب، الارتباط، ممكنا ؟ وأضاف :

ـــ إن مثل هذه الجلسات قد أوقفتني على حقيقة.

وتريث قبل أن يضيف باهتمام مشدوه :

ــ جلسات مثل هاته، على طاولات المقاهي، مع هاته الاجساد والقارورات، أقنعتني بأن ما يجمع بيننا.. أنت وأنا هو الشعور بالموت.

وأين الشعور بالحياة يا سلمان ؟. القمقم مشروع، وأنا قد أعيشه في حضورك أو غيابك. وهل الموت هو الاساس. أبي يغالبه وأنت تهزأ به ونحن ماذا سنمسك ؟.. الموت والحياة انفلاتان، ونحن إلى الآن رفض مجاني.. تلف مجاني.. قمقم مجاني.

الموت أساسي والحياة عبور. وهل من الضروري أن يملأ العبور بصراخ لا معنى له. إن الاستجابة لما لا معنى له لا معنى له.

وردد لساني :

ــ ولكن..

ــ ولكن ماذا ؟

ــ هل نظل نصرخ وصراخنا لا معنى له، والاستجابة إليه لا معنى لها ؟.

وكأنه يسمعني، بل من قمة تناقضه تكلم :

ــ لنميت العيش أكثر، يجب أن نعيده في غير الصمت في الثرثرة الجوفاء.

ــ لكأنك أنت تحمل عطش الانسان إلى صوته، عطش أجيال ما قبل التاريخ.. أجيال عصور الاشارات والصمت.

ــ أنا أعشق الهدر في الصمت، وأتعلق بالصمت في الهدر، أنا صورة العصور بعد قرون وقرون، حينما يعود الانسان إلى تخيله عن ثرثرته، يمل عجزها فيصمت، ثم يحن إليها من جديد، ليصيح ويملأ الفراغ بالهراء.

وضع الكأس، وكان الألم في عينيه قبل لسانه : آه.

ــ ما معنى كل هذا ؟

ــ إننا لا شيء

ـــ سلمى ومحسن وسعد سألوا عنك.

* * *

(ـــ الشرطة تضايقنا.

ـــ لا سهل غير النوم.

هكذا أجابت الاستاذة على شكوى الطلبة، ولكن لماذا سكن الغضب وجهها ولم يرحل. وأضاف أحد الطلبة :

ـــ سوف نسافر في العطلة الاسبوعية إلى مراكش للقيام بعرضين في «جامع الفنا».

فأجابته :

ـــ طيب.

وكان سعد في انتظارها وهو يفكر : هل أصبحت الاستاذة بالنسبة لي تلقيحا أو معنى أو تخطيطا : ان ارتجاج الدماغ والواقع كان موجودا في، لكن هي من فجرته. وحينما أراها متحدثة أو صامتة أو متحركة تضرب في كل اتجاه، أقتنع بأن عددا منها ومن أمثالها هن الضروريات وهم الضروريون لتحريك الجماهير لذلك الغد. لذلك كنت قد اتفقت معها على خلق تنسيق بين طلبتها وبين مجموعة من الاتحاد في الجامعة.

وانتبه سعد على صوت الاستاذة يخاطبه :

ـــ هيا بنا

وعند مدخل الحي الجامعي التقيا بسلمى ومحسن :

ـــ كنا نبحث عن هدى. ولقد تركنا لها كلمة.

الرفقة كانت بالامس ضرورة، لكنها اليوم حتمية. وغضب

الاستاذة على نفسها وعلى الواقع قد عم. أما نحن فمن غضبها ومن غضب المسحوقين والهامشيين سيكون.)

* * *

وهل أنا شيء ؟ واللاشيء في الاصل أمن المعقول أن يطالب بالشيء. أنا شيء أو لا شيء ولكن القمقم ترف أو مفتاح ؟. المحور هو الثابت. وأنا أنت نحن بالبصر أو بالبصيرة في دورة الازل، ومع ذلك أفكر في رحلتك ! هل الرحلة شيء ؟. الحدث ليس ثباتا ولكنه رقص عشوائي لحركة ما أنتجت حدثا. الثبات.. الدوام.. آلأزل، أليس وجودا لكن أنت بالتأكيد موجود، بشكل غير عقلي أمسكت بوجودك وأدركته، إنما هل رحلتك سترحل بالادراك نفسه؟.

الادراك، أي ادراك، نسبي. وهل عنده أي جواب. وأين أي جواب الآن ؟. في الجسد في القمقم عند سلمى عند اخوة محسن عند سعد عند الاستاذة عند الطلبة عند، عند، عند الامام عند الرفض ؟ الرفض رفض الرغبة رفض الرفض رفض التناقض.

الجسد وسلمان والرفض وجمعية سعد وسلمى والمدينة وهذا الشارع يسكنني. أي جحيم أنت يا عمقا لا نهاية له بين أضلعي. الجحيم أنا والرحلة وكل مرفإ، إنما سلمان ؟..

ــ أين أنت ؟ كنت أريدك أن تكوني معي في وداع سلمان، لقد سافر.

المطرقة نزلت علي أم الرأس أم الاعصاب أم الشعور. سافر !!. فصحت في محسن :

ــ ولكن لماذا لم تبحث عني ؟

ــ لم يخبرني الا وهو في المطار.. إن له تصرفات خاصة !. وتلك مزيته، أن يكون بتصرفات خاصة، فهو قد غير مكان ثرثرته ليكون استهلاكا مجانيا

بطريقة شخصية، كالترحال كالاستقرار كأي حال. لكن بماذا أنا ؟ بودي لو أسلت هذا الحنق بطريقة ما، لو قذفت هامة محسن بحمم من الصمت لو أنه يفهم. أما أنت يا سلمان، فلقد رحلت بثرثرتك وفهمك وحركتك في السلب، غير أن شيئا ما لم يرحل. أتفهمه أنت يا محسن ؟

ـــ ماذا تقولين ؟

ـــ أريد أن أصرخ.

ـــ ثم أضاف محسن : ثم إن الجماعة تريدك.

* * *

برقية : مات الاب

* * *

الموت والحياة سيان في العمق. لكن الاستاذة تصارع الموت بالحياة. والذهنيات لم تكن هي نفسها إلا لأنها مختلفة. وفي خلود الاب خلود العبث. وأنت يا سلمان لا يمكن أن تقنع بأن القلوب هي الاجوبة. وذهن لا يتوقف عندها، ذهن يتعذب لأنه حي بطريقته. وسلمى ومحسن وسعد وآخرون يستمعون للاستاذة : لقد ألقي القبض على بعض الطلبة في فاس ومراكش. السجن باب وكلنا داخله. السجن داخل الاسوار خارجها سواء. والاستاذة تؤكد : مادام السجن وسيلة فكل الطرق إليه سنسلكها. ثم تضيف : السجون مفاتيح الشعوب. والشعب العربي يجب أن يكون لسجنه ثمن. ونظرة فعلية فعالة مع تصميم تسيطر على سعد ومحسن وسلمى. وحتى الأب كان بنظرته، إنما الآن أين هو وهي ؟. الارجل والهمم وقرار من سعد وسلمى ومحسن والطلبة : سنقاوم. لكن ذلك هو ما فعلت هدى من

قبل ومن بعد بطريقة من الطرق، إنما دون جدوى. وحتى الأب عاش محتجا بشكل خاص، ولكن موته مجاني. الاستاذة ترعد : إما أن يكون هذا الشعب هنا أو .. أو ماذا يا أستاذة ؟ فهو إما غير موجود عندهم نهائيا، أو حتى من اعترف منهم به، فإنه قد استخدمه فحسب ليسحبه إلى الخلف من بعد : الثورات العسكرية في وطننا العربي بالخصوص. إذن أتكون هي نفسها، هاته الثورات غدرا اضافيا ؟! ولهذا يجب أن يكون الشعب هو البدء والمنطلق، الخالق والمخلوق، ونحن : القاعدة، هي من عليها مسؤولية هذا الخلق. لكن من يرى معي أن صراعات كهاته عرضية فحسب. وأين أي ميدان نقاوم فيه كل ما يقع علينا دون أن تبصروه أيضا ؟. السواعد سواعد والهمم همم والرفض رفض حينما يراد ذلك. الشارع يهتز وكذلك المدينة. صراخ. الصراخ عبثي ولكنه ضروري. موت الاب وغياب سلمان حرره، لكن قتلهم الحياة وسجنهم الطلبة فرضه. الافواه هي وحدها التي بالمدينة وأين فمك يا سلمان، لأن هذا هو ما يعنيك ؟ محسن وسعد وسلمى في المقدمة وأين علي وليلى ورجاء وإلهام والمعنى ؟ وفم هدى تريد هاته المرة أن تستخدمه ولكن كيف ؟. موت الاب عبثي أو حتمي وكذلك الألم على موته أو حياته أكثر. الحرية تحولت إلى ألسنة والألسنة إلى لسان. دموع في الاعين لكن على من ؟. التيار تيار والاطراف المتقلصة بالثلوج، أطراف هدى تتمسح بالدفء : بها. الاستاذة تتحول إلى أستاذات وأساتذة. والاساتذة إلى تنظيم والتنظيم إلى زمجرة والزمجرة إلى حياة. الحياة تخرج من فمي في صياح وأنا أحملق في الارض والسماء : الحرية ؟ الحرية.؟ الاب كان حرا بالوهم، وأنا أريد

حرية مطلقة، وهؤلاء يريدون حرية موضوعية. القبر الموت الأب قد ولد موته الحياة في عروق التربة وإلى أين ؟. الفوضى والضرب والمقاومة والعروق تتفجر في الارض والناس. لو كان الاب حيا، فما الحرية التي كان له أن يطالب بها ؟. الحرية قيمة والعبد هو من يخنقها أو يلهو بها. وحريتي.. أين هي أين هي ؟. الاضلع تتفجر في الزمجرة ولترحل أنت يا سلمان. وأب يخدم موته الحياة غير ميت. الأبنية والاقواس والاوسمة والهياكل في خطر. الخطر أحياء والامان لأمثالها شلل وشخص لا يغضب يجب أن يقبر. سلمى على الاكتاف وغضبها سيفجر الغد للجموع. محسن يمسك بيد هدى وهي تستفهم بلا وضوح : ترى أليس الذي خلق منا ثائرين، بأشكال مختلفة، قد أراد أن يهزأ بنا ؟!. المسيرة فوق الزيف فوق الاضطهاد فوق الاحتقار فوق الاذناب فوق الثورات العسكرية مع الغاضبين. ضحايا... الرفض حتمي والضحايا ثمن له وإلى أين ؟. الطلبة في السجن. والمدينة، المدن، في السجن والناس قد غضبوا وهل الغضب هو المعنى ؟. نعم. لكن. الغضب الارتجالي يحرق نفسه دون بخور. والصراع الطبقي، هل هو وحده الذي يجب أن يطرح باصرار ؟.. ونحن أساسا أمة بلا تنظير ولا تخطيط. والاستاذة تتساءل : هل تراني لم أخلق من هؤلاء سوى انفجارات مثالية. والعنف المخطط هو الغضب الحقيقي. لكن الثورات العربية يقينا كانت هجينة : معانقة الشعارات لا معانقة الشعوب ومسالمة التناقضات وتزكيتها. لو أن الزوبعة التي أخرجت أنيابها وأظافرها تسير إلى النهاية : بعد كل سر وخلف كل حجاب حتى تستهلك القضايا العريضة إلى القضية الاصل. يا سلمان هل نحن

أنا وأنت نتوء أو وباء أو أصل ؟. لكن حتى هذا مجال زمني. العقل والنضج ومن سيقود ؟ المعنى ومجموعة في المجموعات تتكامل : سلمى سعد ومحسن وأنا، بل جزء مني وبعض الطلبة. الاستاذة تأمر.

ــ لننسحب الآن. جمع سري. يجب أن نبدأ...

توضيح

منذ أواخر 1968 كانت صفحات منها تصاحبني في الاقامة والترحال. ثم أصبحت ملجأ لي من العمل الاداري، حيث كنت أنكب عليها بسعر، أمزق المذكرات والمناشير الادارية وأهرب إليها، لأنها ساحتي الحقيقية، ولأنها انتقامي الآخر : أفرغ فيه ذلك الاشتعال والوهج والبحث الشرس خوفا من أن تغتالني الادارة ورتابتها.

وهكذا سرت فيها سريعا، حيث عكفت في صيف 1970 على طبعها على الآلة الكاتبة. وفي 1971 حملها الوالد الروحي، المرحوم علال الفاسي لطبعها، بعد أن ظننت أنها أحرقت، بسبب شراسة رد فعلي تجاه كل ما غشني واعتقدت جدواه، غير أنه انهار مؤقتا أمام الموت العبثي للوالد : الرمز (أرجو التنبه إلى أنه ليس هو الموجود في الرواية).

لكن السيدة التي اعتكفت معي صيف ذلك العام على طبعها على الآلة الكاتبة، أوهمتني بأنها قد أحرقت مع ما أحرق، ولكن صعب عليها تضييع جهدها ولا شك..

ثم بقيت زمنا تنتظر في مكتبة الوالد الروحي : المطبعة الجديدة للرسالة. انتقاله من بيته. جمع مكتبته في بيت صهره. انتظار بيته الجديد. انتظار فتح صناديق كتبه حيث اتفقنا على ذلك قبل رحلته الأخيرة رحمة الله عليه بيوم : لكن المأساة حلت..

وبعد الهول بمصابه.. والزمن لا يتوقف.. وانتظار التأقلم مع الفقد،

قصدت الرباط بعد ذلك، أكثر من سنة : صاعدة نازلة، سائلة باحثة، كأنني أصبحت مسؤولة عنها مسؤوليتين : تجاهها وتجاه الوالد الروحي الذي استنكر رد فعلي تجاه الموت، وأصر على الانتظار للحياة : لها، ولي، ولما تمثله، خصوصا وأنني قد حققت فيها تعدد الاصوات، والارضيات والطروحات وزوايا الرؤية، مع تعدد الابطال وتداخل الازمنة، من خلال روايتين تلتقيان وتبتعدان حتى تنصهران أخيرا في حركة جماعية، حيث يلتقي الفكر والفعل في علاقة جدلية يعكسها الفعل الجماعي الذي يرهص بالتغيير.

وبعد أكثر من سنة، حصلت عليها ناقصة. اذن يلزم زمنا آخر : فإلى العطلة الصيفية، حيث التفرغ والتضحية بالراحة أيضا.

أثناء ذلك، كانت المعاناة الخاصة، حيث ظهرت مجموعة «الصورة والصوت» دون أن تنسيني الغد والغضب.

.. وأخذتها معي إلى طرابلس أثناء انعقاد مؤتمر الشعب العام. وحضر بعد ذلك ممثل القومية للنشر والتوزيع إلى المغرب ووقعنا الاتفاق، هذا الاتفاق الذي بقي حبرا على ورق، اذ انتهت المدة التي اتفقنا عليها، وصمتت الاجابات التي كنت أتلقاها أحيانا على استفساراتي. وبعد صبر ومعاناة فيأس، بدأت في البحث عن النسخة الناقصة لأتمها من جديد..

وبعد جهد، وانتظار زمن آخر وعطلة صيفية أخرى، تذكرت الصورة الفوتوغرافية التي كان قد أخذها عنها أحد المخرجين السينمائيين المغاربة في اقتراح لتحويلها إلى سيناريو سينمائي.

آنذاك بدأت مرحلة البحث والاتصال، فله وللأخ الأديب الذي كان سيتكفل بكتابتها كسيناريو كل الشكر في إسعافي بالنسخة الفوتوغرافية.

وأينك يا صبر ؟

واشتغلت. ومللت. وتركت. وعدت، وضربت على الآلة الكاتبة. وتجددت الاحداث وتداخلت وتشعبت ولكن.. وخفت من نشرها خارج المغرب، حيث كانت بغداد مطروحة...

آنذاك دفعت «العاصفة» إلى المطبعة. وجاءت المواسم المدرسية وغيرها من المشاركات الأخرى وأخذتني : فتأخر تصحيحها بالمطبعة :.ولكن ها هي أخيرا تحييكم.

خناثة بنونة

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء
الايداع القانوني رقم 1991/79

خناثة بنونة ومسيرة الحرف

في البداية كانت "شروق" مجلة ثقافية تعلن بقوة الكلمة حضوراً حياً نشيطاً. ومع سطوع النور هتفت من الأعماق وبكل صدق الأنثى: "ليسقط الصمت" (مجموعة قصصية 1965). ومع الإصرار على النطق والبوح، وجدت نفسها تواجه التحدي وليس أمامها سوى "النار والاختيار" (رواية ومجموعة قصصية 1968) ومنذ ذاك بدأت رحلة السبع سنين بحثاً عن "الصورة والصوت" (مجموعة قصصية 1975) وارتفع إيقاع التحدي، وانتشت الإرادة أمام "العاصفة"

التحدي، وانتشت الإرادة أمام "العاصفة" (مجموعة قصصية 1979) وبين "شروق" "الأمس" و"الغد والغضب" تظل خناثة بنونة مخلصة لمسيرة الحرف مرتقية مراتب الوجد والتجلي مفعمة بشفافية لا تلين وصوفية رغناء تطاول الاستكانة والاستسلام.

